



فيقولو باريارو

الفتح الإسلامي للقسطنطينية

يوميات الحصار العثماني

١٤٥٣م

دراسة وترجمة وتعليق :

دكتور حاتم عبدالرحمن الطحاوي

نيقولو باريارو

الفتح الإسلامي للقسطنطينية

يوميّات الحصار العثماني

١٤٥٣ م

دراسة وترجمة وتعليق

دكتور / حاتم عبد الرحمن الطحاوي

كلية الآداب - جامعة الزقازيق

الطبعة الأولى

٢٠٠٢ م



عين للدراسات والبحوث الانسانية والاجتماعية

EIN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

هذه هي الترجمة الكاملة لكتاب

Nicolo Barbaro

Diary of The Siege of Constantinople 1453

Trans. by J. R. Jones, Jericho , New York, 1969. (78 Pages)

المشرف العام : دكتور قاسم عبده قاسم

المستشارون

د . أحمد إبراهيم الهسوارى

د . شوقي عبد القوى حبيب

د . قاسم عبده قاسم

مدير النشر: محمد عبد الرحمن عفيفى

تصميم الغلاف : محمد أبوطالب

الناشر : عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

- ه شارع ترعة المريوطية - الهرم - ج.م.ع - تليفون - فاكس ٢٨٧١٦٩٣

Publisher: EYN FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES

5, Maryoutia St., Alharam - A.R.E. Tel : 3871693

الإهداء

إلى ... نهلة

«عِيُونُكَ سَوْدُ

رصاص مکمن فی بارود»

... من مجرودة طحاوية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

تقديم

هناك حوادث فارقة قليلة فى التاريخ الإنسانى، منها الفتح الإسلامى للقسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى / التاسع الهجرى. ووجه الأهمية التى يكتسبها هذا الحدث التاريخى الفذ أنه حوّل «مدينة قنسطنطين» إلى «عاصمة الإسلام» (إسلامبول) .

ولم يكن هذا مجرد تغيير فى اسم مدينة؛ وإنما كان تغييراً فى مجرى التاريخ الإنسانى بأسره، إذ إن المدينة التى بناها الإمبراطور الرومانى قنسطنطين الكبير فى ثلاثينيات القرن الرابع الميلادى لتكون «روما الجديدة» ، بعدما أعلن مناصرته للمسيحية واعترف بها ديانة مسموح بممارستها بعد عصر الاضطهادات ، كانت عوضاً عن «روما القديمة» التى كانت قاعدة الإمبراطورية الرومانية الكلاسيكية ومقل الآلهة الوثنية . كما أن هذه المدينة صارت رمزاً لمحاولات الامبراطور جستنيان لإعادة بناء الإمبراطورية الرومانية فى الغرب والشرق تحت زعامة القسطنطينية . وقد ترك بها جستنيان كنيسة أيا صوفيا التى يبالغ المؤرخون الغربيون فى تقدير قيمتها، وبعد فشل مشروع جستنيان صارت القسطنطينية معقل المسيحية الشرقية وملاذها على الرغم من دخولها فى نزاعات دموية مع الكنائس الشرقية فى المناطق العربية حتى ظهور الإسلام. وحاول المسلمون، فى ظل الخلافة الأموية، عدة مرات فتح مدينة قنسطنطين دونما طائل . وبقيت المدينة مركزاً للحكم والحضارة التى عرفها المؤرخون باسم «الحضارة البيزنطية» عدة قرون حتى دهمها الصليبيون واستباحوها فى بدايات القرن الثالث عشر الميلادى / السابع الهجرى .

وطوال تلك الفترة كانت القسطنطينية على علاقة بالمنطقة العربية تتراوح بين التفاعل والاحتكاك الحضارى الإيجابى من ناحية، والعداء والمواجهات العسكرية من ناحية أخرى. وتبادل الطرفان التجارة والعلم والحرب والحكم ... والرعايا فى مناطق التخوم والثغور . وشاعت التطورات التاريخية أن تنمو إحدى الإمارات التركية لتكون دولة إقليمية عظمى على حساب دولة سلاطين المماليك من ناحية، والدولة البيزنطية من ناحية أخرى. وتجمعت لهذه القوة البازغة كل عناصر القوة التى أخذت تتسرب من دولة سلاطين المماليك والدولة البيزنطية. وكان حتمياً أن تبتلع ممتلكاتهما وأن تستولى على عاصمتيهما .

وفى سنة ١٤٥٣م رفرقت رايات العثمانيين على القسطنطينية وبعدها بحوالى سبعين سنة، أو أقل قليلاً، رفرقت الرايات ذاتها على القاهرة لتنبئ عن مولد عصر جديد من التوازنات العسكرية والسياسية، وهناك فى الغرب الأوربي، من بحر ايجة فى الشرق حتى بحر الشمال فى الغرب، انكمشت أوربا ترقب فى خوف ذلك العملاق الذى قبع على ضفاف البسفور والدردينيل يمد ذراعه صوب أوربا فى شرقها ووسطها حتى دار الزمن دورته .

وعلى الرغم من عشرات الكتب التى كتبت حول موضوع الفتح العثمانى للقسطنطينية فإن رواية شهود العيان لهذا الحادث التاريخى الفذ تبقى لها جاذبيتها ، وعلى الرغم من أهمية هذا الحادث الفذ فى تاريخ المسلمين، فإن ستاراً من النسيان - وربما التناسى - قد أُسدل على هذا الحدث الذى لايعرف تفاصيله ومقدماته ونتائجه كثير من المسلمين من العامة والمتقنين. وبسبب تطورات التاريخ الثقافى السلبية فى أنحاء العالم الإسلامى ظل هذا الحدث أُسير إطار الإنحيازات الغربية ضد المسلمين وتاريخهم.

ومع أن إسلامبول (استنبول) ظلت قاعدة العالم الإسلامى طوال عدة قرون ؛ فإن ما أطلقه المؤرخون الغربيون من «شائعات تاريخية» حول العثمانيين لقي أذاً فارغة فى كثير من أنحاء العالم الإسلامى إبان فترة الاستعمار الغربى.

من هنا تأتى أهمية هذه الترجمة والدراسة التى يقدمها الدكتور حاتم الطحاوى عن يوميات حصار العثمانيين للقسطنطينية حتى فتحوها سنة ١٤٥٣م كما رواها أحد شهود العيان. وتمتاز هذه الدراسة بالعمق والموضوعية الواجبة فى البحث التاريخى كما تمتاز الترجمة بأنها الأولى فى لغة العرب من ناحية، وبسلاسة وبساطة محببة تكشف عن جهد كبير بذله الدكتور حاتم الطحاوى، المدرس بجامعة الزقازيق ، فى سبيل إخراج صورة حية لحدث نادر المثال فى التاريخ الإنسانى من ناحية أخرى . ولعلها كانت مفارقة ساخرة من التاريخ أن يفقد المسلمون قاعدتهم فى الأندلس بأقصى الغرب الأوربي فى السنوات الأخيرة من القرن الذى شهد فتح المسلمين لقاعدة المسيحية الشرقية فى أقصى الشرق الأوربي.

وإننى شخصياً أشعر بسعادة غامرة وأنا أقدم هذا العمل الجميل إلى قراء العربية فى كل مكان ، وتقخر دار عين للدراسات الإنسانية والاجتماعية أن تقدم هذا الكتاب المذهل ضمن باقتها من الإصدارات التى نرجو أن تسهم فى تنمية الوعي بتاريخنا وورثتنا فى خدمة الإنسانية. والله الموفق والمستعان .

دكتور قاسم عبده قاسم

مقدمة الترجمة الإنجليزية

عندما سقطت مدينة القسطنطينية فى أيدي الأتراك العثمانيين ١٤٥٣م ، شغف من تبقى على قيد الحياة آنذاك برواية ما جرى . حدث هذا فى الوقت الذى تاقت فيه الشعوب الأوربية إلى الاستماع لقصة سقوط المدينة ، بأذان صاغية . ووصلت إلينا عدة مصادر قام بعض شهود العيان بتسجيلها حول ذلك الحدث. على أنه لا يوجد مصدر تاريخى أكثر تفصيلاً ودقة من هذا المصدر المترجم بين أيدينا الآن .

كان نيقولو باربارو، الطبيب والجراح، وأحد أفراد الأسر النبيلة بمدينة البندقية، موجوداً إبان الحصار العثمانى للقسطنطينية. ويتصف التقرير الذى سجله لنا بالتحيز لمواطنيه البنادقة، إلى الحد الذى جعله يتيه فخراً وزهواً بأعمالهم حدث ذلك فى الوقت الذى لم يكن فيه هذا التقرير عادلاً فيما يتعلق بما ذكره عن أعمال الجنوية والبيزنطيين .

وعلى الرغم من ذلك ، فإن هذا التقرير الذى تمت صياغته على شكل يوميات، يدلنا على ما جرى من أحداث كبرى مرتبة زمنياً. الأمر الذى جعله أعظم فائدة من أى مصدر معاصر ، ويمكن الوثوق والاعتماد على هذه اليوميات بشكل تام.

وبالنسبة للترجمة الإنجليزية ، فلقد أحجمت عن ترجمة المصطلحات التقنية، كأنواع السفن، والموازن، والمقاييس . لعدم وجود معادل لها فى اللغة الإنجليزية وقمت بإيرادها فى الكتاب حسب لغتها الأصلية.

وكذلك الحال، فلم أجر أية محاولة لتغيير أسماء الذين تم ذكرهم فى هذا الكتاب ، أو أسماء الأماكن التى أوردتها كما هى حسب الهجاء اليونانى أو التوسكانى. وقمت فى نفس الوقت بالمحافظة على أسلوب نيقولو باربارو الذى يتصف بالترار إلى حد ما .

ويعد هذا العمل فى غاية الأهمية بالنسبة للمؤرخين على وجه الخصوص، لأنه يقدم صورة واقعية وصريحة لما حدث . ولهذا فقد تركت قوائم الأسماء التى وردت فى الكتاب دون تغيير.

لقد قمت بهذه الترجمة عن النص الوارد فى طبعة إ. كورنت E. Comet الصادرة فى قيينا ١٨٥٦م. ولم يكن ممكناً بالنسبة لى أن أعتمد على المخطوط الأصيل الموجود فى مكتبة مارشيانا Biblotica Marciana بمدينة البندقية .

والحقيقة أن النسخة الخاصة بكورنت . كانت واضحة ودقيقة بشكل كبير. ومن المحتمل أننا لم نكن لنحزق تقدماً كبيراً إذا ما قمنا بالاعتماد على المخطوط الأصلي . كما أن الفراغات التي ظهرت في عدد من السطور ، كانت غير ذات أهمية .

أن بعض التعليقات التي ظهرت بخط اليد فوق المخطوط الأصلي، والتي يزعم أنها لماركو باريبارو Marco Barbaro ، المتخصص في علم الأنساب، قد تم دمجها كملاحظات إضافية وحواشي في نهاية الكتاب.

إن أفضل وأحدث تحليل للأحداث التاريخية التي قام باريبارو بتسجيلها قد تم بواسطة البروفيسور ستيفن رنسمان Steven Runciman في كتابه عن سقوط القسطنطينية ١٤٥٣م، الصادر عن مطبعة جامعة كامبردج ١٩٦٥م، الذي أحال القارئ إلى معلومات إضافية وجديدة. ويسلم المترجم بوجوب تقديم وافر الشكر، والعرفان بالجميل، للمساعدة التي حصل عليها من قبل السيدة م.ج كارول M. G. Carroll، والدكتور ج. أندريوني G. Androni في تحضير وإعداد هذا النص .

ج. ر. جونز

جامعة غرب استراليا

مقدمة الترجمة العربية

«لتفتحنَّ القسطنطينية . فلنعم الأمير

أميرها. ولنعم الجيش ذلك الجيش»

حديث شريف

واجه المسلمون في طريقهم لبناء الدولة الإسلامية الجديدة قوتين كبيرتين، هما دولة الفرس، ودولة الروم (الإمبراطورية البيزنطية) . وعلى حين نجحوا مبكراً في حسم صراعهم مع القوة الأولى، عبر معركة القادسية ١٤هـ - ٦٣٥م، ودخلهم للعاصمة المدائن ١٦هـ - ٦٣٧م^(١)، فقد اكتفوا بانتزاع ممتلكات بيزنطة في شمال الشام بعد عدة معارك أهمها اليرموك وأجنادين ١٦-١٧هـ / ٦٣٦-٦٣٧م^(٢) ثم فتح كل من فلسطين ١٥هـ / ٦٣٦م^(٣)، ومصر ٢٠هـ / ٦٤٠م^(٤).

وظل حلم القضاء على دولة الروم يراود الخلفاء الراشدين ، دون محاولة جدية لتحقيقه، غير أن الأمر انتقل من مساحة الحلم إلى حيز الواقع الميداني على عهد الخلافة الأموية، بعد أن اشتد عود الدولة الإسلامية الفتية، وبعد تزايد خبرة إرسال الحملات البرية، وفن القتال البحري لدى المسلمين، نتيجة فتح الشام، وفلسطين ومصر ، فكان قرار القيام بحملات عسكرية أنه أجل فتح القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية.

١- البلاذري (أحمد بن يحيى بن جابر) فتوح البلدان، تحقيق عبدالله وعمر الصباغ ، بيروت ، ١٩٨٧م، ص ٣٥٦ : الطبري (أبو جعفر محمد بن جرير) تاريخ الرسل والملوك ، ج ٣ ، تحقيق محمد أبو الفضل ، القاهرة ، ١٩٧٩، ص ٤٨٠-٥٢٩ . ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن الشيباني) الكامل في التاريخ ، ج ٢ ، تحقيق يوسف الدقاق ، بيروت ، ١٩٨٧، ص ٢٩٩ .

٢- ابن أعثم (أبي محمد أحمد بن أعثم الكوفي)، الفتوح ، ج ١ ، بيروت، د.ت ، ص ٢١٨-٢٤٤ : الضبري، المصدر السابق ، ج ٣ ، ص ٣٩٤-٤١٤ ، ٤١٥-٤١٨ ، ٦٠٥-٦٠٧ .

٣- البلاذري ، المصدر السابق ، ص ٢٣١-٢٤٩ : الطبري، المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٠٧-٦١٣ : ابن الأثير ، المصدر السابق، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

٤- البلاذري ، المصدر السابق، ص ٢٩٨ : الطبري، المصدر السابق، ج ٤ ، ص ١٠٤-١١٠ : ابن الأثير، المصدر السابق ، ج ٢، ص ٤٠٥ .

أرسل الأمويون حملتين في الأعوام ٤٨ هـ / ٦٦٨ م، ٥٤-٦٠ هـ / ٦٧٤-٦٨٠ م^(١) لمهاجمة القسطنطينية ، ونجحت الحملة الثانية في فتح جزيرة بالقرب من القسطنطينية تدعى أرواد، واستقر فيها المسلمون لسبع سنوات .

وأرسل الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩ هـ / ٧١٥-٧١٧ م) أخاه مسلمة على رأس حملة بحرية كبرى لفتح القسطنطينية ٩٧ هـ - ٧١٦ م. واتخذت الحملة طريقها تجاه المدينة بعد أن اقتحمت مدن سارديس Sardis وبرجامة Pergamus ثم أبيدوس Abydus ، لتقف في الخامس عشر من أغسطس ٧١٧ م أمام القسطنطينية ، حيث قام المسلمون بضرب حصارهم البحري حولها ، والذي استمر لمدة عام كامل^(٢).

وأصاب الفشل في النهاية حملة مسلمة به عبد الملك^(٣) لعدة أسباب ، أهمها قوة الاستحكامات البيزنطية، ومعاناة المسلمين من شتاء القسطنطينية القارس، والأمراض التي تفشت بين جنود الحملة، وعلى رأسها مرض الطاعون، فضلاً عن مهارة البحرية البيزنطية.

وعلى الرغم من الفشل العسكري الذي لحق بتلك الحملة، فإنها نجحت في احراز نصر معنوي، بعد أن اشترط القائد المسلم مسلمة بن عبد الملك على الامبراطور البيزنطي ليو الثالث Leo III (٧١٧-٧٤٠ م) ضرورة بناء مسجد داخل أسوار مدينة القسطنطينية^(٤)، مقابل

١- الطبري ، المصدر السابق، ج ٥ ، ص ٢٩٢ .

٢- الطبري ، المصدر السابق، ج ٦ ، ص ٥٣٠-٥٣١ . وانظر أيضاً ذلك المصدر البيزنطي الهام :

Theophanes, The Chronicle of Theophanes. (6095-6305) (A.D 602-813) . Trans. by , Harry Turtledove , Pennsylvania , 1982 , pp. 88-90 .

ولهذا المصدر ترجمة جديدة ووافية انظر:

Theophanes, The Chronicle of Theophanes Confessor , Byzantine and Near Eastern History AD 284 -813 . Translated with Introduction and Commentary by Cyril Mango and Roger Scot , With Assistance of Goffrey Greater , Oxford, 1997; pp. 538-550.

وانظر أيضاً الفصل القيم الذي كتبه أ.د. وسام فرج في كتابه «العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي» ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م، ص ١١٩-١٧٥ .

٣- وسام فرج ، المصدر السابق ، ص ١٧٤-١٧٥ . Theophans , Op. cit , p. 90 .

٤- على الرغم من عدم ذكر المؤرخ البيزنطي نيوفانس لهذا المسجد، ورفض أ.د. وسام فرج ص ١٧٣ لمسألة قبول البيزنطيين شرط مسلمة بضرورة بناء مسجد بالقسطنطينية اعتماداً على أنه من الصعب على الطرف الخاسر أن يملى شروطه . فإن تأكيد أحد أهم المصادر البيزنطية اللاحقة على وجود هذا المسجد ، أن «مسلمة الذي قاد حملة على القسطنطينية هو الذي أمر ببناء مسجد للمسلمين في المعسكر الامبراطوري» =

انسحاب قواته من أمام أسوار المدينة . ووافق ليو على ذلك بعد أن انهكته عملية الدفاع عن القسطنطينية ، ولكى يضمن حمايتها لفترة أطول . وبعد موت الخليفة سليمان بن عبد الملك ، أمر الخليفة الجديد عمر بن عبد العزيز (٩٩-١٠١هـ / ٧١٧-٧١٩م) بسرعة عودة الحملة إلى الشام^(١)، فى العام ٩٩هـ / ٧١٨م .

وهكذا فشلت أهم الحملات الإسلامية لفتح القسطنطينية ، عاصمة الامبراطورية البيزنطية وترتب على ذلك زيادة ثقة البيزنطيين فى قدراتهم ، فاستطاع ليو الثالث بعد ذلك بعدة سنوات- وعبر التحالف مع دولة الخزر- ايقاع الهزيمة بالجيش الإسلامى بالقرب من عموريه ، فى معركة اكرونيون^(٢) Acronion ١٢٢هـ - ٧٤٠م التى تمكن البيزنطيون بعدها من استعادة زمام المبادرة الحربية من المسلمين ، حيث تحولوا بعدها من مرحلة الدفاع إلى مرحلة الهجوم على الممتلكات الإسلامية برأ وبحراً .

وانتقلت حالة العداء الإسلامى- البيزنطى إلى جدول أعمال الدولة العباسية الجديدة، وقام العباسيون أول الأمر بغارات عسكرية محدودة ، حيث اتجه جل اهتمامهم نحو تثبيت وجودهم فى السلطة، الأمر الذى دعى إلى الاهتمام بالجبهة الداخلية على حساب الجبهة الخارجية.

= انظر قسطنطين السابع بورفيريوجنيتوس ، ادارة الإمبراطور البيزنطية ، عرض وتحليل وتعليق محمود سعيد عمران ، بيروت، ١٩٨٠م، ص ٨٢ . لهو أمر يدعو إلى الجزم بخضوع الامبراطور ليو الثالث لشرط مسلمه. وربما وافق ليو على ذلك بعد أن انهكته الحرب مع المسلمين ، ولكى يضمن حماية القسطنطينية لفترة أطول.

ويمكن اعتبار ذلك المسجد، ودار البلاط إلى جانبه بمثابة نواة الحى الإسلامى الذى كان بالقسطنطينية ، واستقر به التجار المسلمون فى القرن العاشر الميلادى. انظر: حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الإيطالية ، العلاقات التجارية ١٠٨١-١٢٠٤م، القاهرة ١٩٩٨، ص ٣٦، ٣٩. كما أثنى سبق أن ذكرت فى نفس الكتاب (ص ٣٩ هامش ٢) أن تاريخ المساجد فى القسطنطينية يستحق أن يخصص له . فيما بعد- بحث منفرد يتناول أسباب وزمن وجودها ، وتأثيرها على العلاقات بين بيزنطة والقوى الإسلامية المختلفة . وهناك بحث جديد حول هذا الموضوع . انظر: محمد الوسىمى، جامع القسطنطينية الأول وبوره السياسى، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة، مجلد (٦٠) عدد (٢)، أبريل ٢٠٠٠م، ص ٣٩-٧٣

١- الطبرى ، المصدر السابق، ج ٦ ، ص ٥٥٣ : ابن كثير ، البداية والنهاية ، ج ٩، طبعة وتوثيق عبد الرحمن الدتّى، محمد غازى بيضون ، بيروت ، ١٩٩٨م، ص ٢٢٨ .

٢- ابن كثير ، المصدر السابق، ج ٩ ، ص ٢٨٤-٢٨٧ : ابن الأثير، المصدر السابق ج ٤ ، ص ٤٥٦-٤٥٧ ، الطبرى، المصدر السابق ج ٧ ، ص ١٩١ . حيث يشير إلى مقتل عبدالله البطال فى هذه المعركة .

ويبدو أن العباسيين تعلموا من الفشل الأموي في حصار القسطنطينية ، فلم يفكر خلفاء الدولة العباسية في فتح القسطنطينية قدر تفكيرهم في انتزاع الأراضي البيزنطية الواقعة جنوبي آسيا الصغرى^(١).

ونجح الخلفاء العباسيون في إرهاب الإمبراطورية البيزنطية عسكرياً ، لدرجة أن الإمبراطورة ايرين Irene (٧٨٠-٨٠٢م) ، قامت بدفع الجزية السنوية للإمبراطور هارون الرشيد في العام ٧٨٣م^(٢)، مقابل الحفاظ على الهدوء على الجبهة الجنوبية، حتى تستطيع التفرغ لإقامة علاقات ودية مع البابوية ومع مملكة الفرنجة .

وتحول ميزان القوى مرة أخرى لصالح الإمبراطورية البيزنطية على عهد الأسرتين العمورية والمقنونية ، فاستولى باسل الأول Basil I (٨٦٧-٨٨٦م) وليو السادس Leo VI (٨٨٦-٩١٢م) على الأراضي الإسلامية بين فرعى نهر الفرات ومنطقة الجزيرة كما استطاع رومانوس الأول Romanus I (٩١٩-٩٤٤م) التوغل في أراضي الشام على حساب الأمير سيف الدولة الحمداني، وهاجم مدينة الرها ٩٤٤م وقام باستعادة المنديل الذي يقال أن السيد المسيح قد جفف به وجهه فانطبعت ملامحه عليه^(٣).

والحقيقة أن ظهور الأتراك السلاجقة على مسرح الأحداث ، قد اقتضى إعادة توزيع أدوار لعبة الحرب على الصعيد الإسلامي- البيزنطي. فبعد أن قبض السلاجقة على مقود الأمور في الدولة العباسية الثانية، في النصف الأول من القرن الحادي عشر الميلادي بدأوا في ممارسة دورهم التاريخي كحماة للخلافة العباسية التي أخذ دورها العسكري في الذبول. وساعد على ذلك نشأة ووجود الأتراك السلاجقة في آسيا الصغرى على تخوم الإمبراطورية البيزنطية. فبدأوا منذ ذلك الوقت في التصدي للقوة العسكرية البيزنطية ، والدفاع عن أراضي الشام ، فضلاً عن تطلعهم الدائم لاقتطاع المزيد من الأراضي والممتلكات البيزنطية في آسيا الصغرى.

١- الطبري، المصدر السابق، ج ٧ ، ص ٤٩٧ ، ٥٠٠ .

٢- الطبري ، المصدر السابق، ج ٨ ، ص ١٥٤ : Theophanes, Op. cit, p. 142

وهناك تحليل جيد للظروف التي دفعت الإمبراطور البيزنطي إلى هذا ، انظر: موفق سالم نوري، العلاقات العباسية البيزنطية ١٢٢-٢٤٧هـ / ٧٥٠-٨٦١م، بغداد، ١٩٩٠م، ص ١٩١-١٩٦

٣- ابن العبري (أبي الفرج جمال الدين) تاريخ الزمان، ترجمة الأب اسحق أرمله ، بيروت ، ١٩٨٦ ،

واستطاع الأتراك السلاجقة فى العام ٤٦٣هـ - ١٠٧١م انزال هزيمة ساحقة بالامبراطورية البيزنطية فى موقعة مانزكرت (Menzkirt)^(١)، حيث قاموا بتمزيق شمل الجيش البيزنطى، وأسر قائده الامبراطور رومانوس الرابع Romanus IV (١٠٦٨-١٠٧١م)، وهو الأمر الذى أحدث زلزالاً فى المجتمع البيزنطى .

وكان من أبرز نتائج موقعة مانزكرت ، اجتياح السلاجقة الأتراك لآسيا الصغرى ، وبالتالى منع بيزنطة من الاستفادة من المورد الرئيسى للجيش البيزنطى، وهو جنود آسيا الصغرى الأشداء . بالإضافة إلى تحطيم الهيبة العسكرية البيزنطية، فضلاً عن تعرض بيزنطة لخسارة اقتصادية فادحة نتيجة فقدانها للعديد من الأراضى الزراعية الخصبة.

والحقيقة أنه لايمكننا أن نغفل أن الانتصار العسكرى الكبير فى مانزكرت ، قد أثار مخيلة الأتراك السلاجقة المسلمين، نحو تحقيق انجازات عسكرية كبرى، ومن ثم مهاجمة القسطنطينية ، والقضاء على الإمبراطورية البيزنطية.

١- عالج العديد من المصادر البيزنطية والتركية والعربية الانتصار التركى الكبير على الامبراطورية البيزنطية فى مانزكرت . انظر Pesellus, M. F. , Fourteen Byzantine Rulers The Chronographia of Michael Pesellus , Tran, by . Sewter E.R.A, London , 1966, pp. 355-59 .

الحسينى (صدر الدين على بن ناصر) ، زبدة التواريخ . أخبار الامراء والملوك السلجوقية ، تحقيق محمد نور الدين، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٧-١١٥ م : البندارى (الفتح بن على بن محمد البندارى الإصفهانى)، تاريخ دولة آل سلجوق ، بيروت ، د.ت ، ص ٤٠-٤٤ .

ابن الاثير ، المصدر السابق، ج ١٠ ، ص ٢٠-٢١ : ابن القلانسى (ابويعلى حمزة) ، ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م، ص ٩٩ : ابن العبرى ، المصدر السابق، ص ١٠٩ وانظر كذلك بعض الكتب التى صدرت باللغة التركية عن موقعة مانزكرت :-

Faruk Sumer Ali Sevim. Islam Kaynaklarina gore. Malazgirt Savas, Ankara, 1971 ; Se-mavi Eyice. Malazgirt Savasi Kaybeden. Romanos IV Diogenes, Ankara , 1971 , Ali Se-vim. Malazgirt , Maydan Savası, Ankara, 1971

وكانت هزيمة الامبراطور رومانوس الرابع فى مانزكرت سبباً فى تفوق الارستقراطية المدنية، الأمر الذى نتج عنه تدهور الأوضاع العسكرية بالشكل الذى سمح للسلاجقة بمزيد من التوغل فى الاقاليم الشرقية للإمبراطورية البيزنطية .

وعلى الرغم من فشل الأتراك السلاجقة فى التصدى لجنود الحملة الصليبية الأولى، بعد قيام الإمبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس (Alexius Comnenus ١٠٨١-١١١٨م) بإنزالهم على الشاطئ الآسيوى ، وقيامهم بهزيمة السلاجقة فى معركة ضوروليوم (أسكى شهر) ١٠٩٧ (١)، فإن السلاجقة ظلوا على عدائهم الشديد للإمبراطورية البيزنطية ، الأمر الذى دفعهم فيما بعد إلى الحاق هزيمة أخرى مهينة بالإمبراطور مانويل كومنينوس (١١٤٣-١١٨٠م) فى ميريوكيفالون Myriokephalon ١١٧٦م (٢). وهى الهزيمة التى اعترف الإمبراطور مانويل بأنها تشبه هزيمة مانزكرت السابقة. وكان من أهم نتائجها ضياع هبة آل كومنينوس فى بيزنطة . وضياع أمل الإمبراطورية فى استعادة ممتلكاتها فى آسيا الصغرى. وحمل سلاجقة الروم (سلاجقة قونية) والأتراك الدانشمنديون (٣)، خلال القرنين الثانى

١- انظر: المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتقديم حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٥٨م، ص ٣٨-٤٢ ؛ ريموند اجيل، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس، ترجمة حسين عطيه ، الاسكندرية، ١٩٩٠م، ص ٧٨، ٧٧ ، فوشيه الشارترى، الوجود الصليبي فى الشرق العربى ، الاستيطان الصليبي فى فلسطين ، تاريخ الحملة إلى بيت المقدس ١٠٩٥-١١٢٧م ترجمة ودراسة وتعليق قاسم عبده قاسم، الكويت ، ١٩٩٣م، ص ١١١-١١٥؛ وليم الصورى ، الحروب الصليبية ج١، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٩١م، ص ٢٠٤-٢٠٥ .

٢- ابن الأثير، المصدر السابق، ج ١١، ص ٤١١ .

Choniates, N. O city of Byzantium, Annales of Niketas Choniates. Trans. by , Harry J. Magoulas, Detroit , 1981, pp. 101-107 ; kinnamos, J, Deeds of John and Manuel Cmnenus, Trans by , Brand. ch , New York , 1976, p. 224 .

وعن موقعة ميريوكيفالون وأثرها الهام انظر المراجع التالية:

محمود سعيد عمران، السياسية الشرقية للإمبراطورية البيزنطية فى عهد الإمبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م، الاسكندرية ، ١٩٨٥م، ص ٢٥٠-٢٥٣ ؛ على عوده الغامدى ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م مجلة كلية الشريعة ، جامعة أم القرى ، مكة ، ١٤٠٤ ، حسين عطيه ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م ونهاية النفوذ البيزنطى فى آسيا الصغرى، مجلة كلية الآداب- جامعة طنطا .

Dölger, F. Regesten der kaiserurkunden des Ostromis Schen Reiches 565-1453 , 2- Teil 1025-1204 , Munchen , 1925 , p. 86 .

٣- عن ذلك انظر: ابن البيي، مختصر سلجوق نامه (أخبار سلاجقة الروم) ، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، النوحة ١٩٩٤م ؛ على بن صالح المحاميد، الدانشمنديون وجهادهم فى بلاد الأناضول ، الاسكندرية ، ١٩٩٤م.

عشر والثالث عشر للميلاد عبء الكفاح ضد البيزنطيين حتى اختفاء اماره قونية وظهور عدد من الامارات التركية الصغيرة على الحدود الشرقية للإمبراطورية البيزنطية، التي أخذت في ذلك الوقت تقوم بتركيز اهتمامها نحو سياستها الأوربية .

وبشهادة المؤرخين الغربيين قامت معظم هذه الإمارات على عقيدة الجهاد ، وعمرت بواسطة المرابطين في العالم الإسلامي، وكان جنودها يحاربون البيزنطيين من أجل ترسيخ فكرة الإيمان ^(١)، كما قامت اماره عثمان على وجه التحديد فوق موقع استراتيجي يتحكم في الطرق القادمة من القسطنطينية إلى آسيا . وباعتبارهم ورثة للتقاليد الإسلامية والسلجوقية ، كانوا على دراية تامة بالنظم الإدارية، وهو الأمر الذي سمح فيما بعد لامارتهم الصغيرة بالتحول إلى امبراطورية مترامية الأطراف .

وتتنسب اماره عثمان إلى قبيلة القاي التركية، التي اضطرتها هجمات المغول على الهضبة التركية إلى الهجرة من أواسط آسيا إلى أرمينيا ، حيث استقر العثمانيون بقيادة سليمان شاه على نهر الفرات ما بين أرضروم وأرزنجان في العام ٦٢١هـ - ١٢٢٤م .

مكث العثمانيون بهذه المنطقة عشر سنوات قبل أن ينتقلوا برفقة سليمان شاه إلى مدينة أماسيا Amasya بالأناضول . وبعد وقت قصير أراد سليمان أن يعود إلى وطنه الأصلي في التركستان . لكنه مات ودفن عند قلعة جعبر .

وتسبب موت سليمان شاه في انقسام قبيلته ، فاتجه بعضها إلى خراسان بينما قاد ابنه أرطغرل البعض الآخر باتجاه آسيا الصغرى طالباً الحماية من دولة سلاجقة الروم في قونية ، حيث أقطعه السلطان علاء الدين كيقيباد الأول (١٢١٩-١٢٣٦م) في العام ١٢٢٢م المنطقة الواقعة حول سوجوت وجبال طوماينج وأرميني بيله، كموطن ومرعى له وقبيلته ^(٢) .

١- ج . م . هسي، العالم البيزنطي، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد، القاهرة ، ١٩٩٧م، ص ١٨٧ .

٢- انظر : محمد قزاد كويريللي ، قيام الدولة العثمانية ، ترجمة أحمد السعيد سليمان، القاهرة ، ١٩٩٢م، ص ١١٦-١١٧ . مع أنه يرى أن الارتباط العثماني بقبيلة القاي لم يكن بالشئ المعيز.

انظر أيضاً الكتاب القيم الذي قام الباحث التركي جمال كفادار بكتابته . Cemal Kafadar, Between

Two worlds, the Construction of the Ottoman States, London , 1995 , p. 122

حيث يشير إلى أن يازجي زاده Yazici Zade هو أول مصدر مكتوب ١٤٣٠م يربط العثمانيين بقبيلة

القاي.

وهكذا قامت الاماره العثمانية الجديدة فى شمال غرب آسيا الصغرى بالأتناضول وعلى تخوم الدولة البيزنطية .

وكان من الطبيعى أن يبدأ العثمانيون بعد ذلك فى مد يد العون للسلالقة فى اغاراتهم على المدن والقلاع البيزنطية. كما استولى العثمانيون أيضاً فى عهد أرطغرل (١٢٣١-١٢٨٨م) على بعض القلاع والممتلكات البيزنطية. وبدأوا - نتيجة لموقعهم الجيوبوليتيكي الفريد- فى التفكير فى توسيع رقعة امارتهم الوليده على حساب جيرانهم البيزنطيين .

وعلى الصعيد البيزنطى ، كان الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس Michael VIII Palaeologos (١٢٥٨-١٢٨٢)^(١) قد اغتصب العرش من أسرة لاسكارس Laskaris فى نيقية فى العام ١٢٥٨م، مما دفعه إلى مواجهة معها أسفرت عن تسريحه لأعداد كبرى من القوات البيزنطية المرابطة على الحدود الآسيوية بسبب موالاتها لأسرة لاسكارس^(٢)، وهو الأمر الذى دفعه أيضاً إلى فرض الضرائب الباهظة عل السكان^(٣)، من أجل مواجهة المتطلبات العسكرية، وهو ما أدى إلى تحول القوات البيزنطية المرابطة على الحدود الآسيوية تجاه العثمانيين .

وكذلك الأمر فقد رأى السكان المحليون أن تحولهم إلى الأتراك العثمانيين سوف يجعل أمورهم المعيشية أفضل حالاً مما هى عليه تحت قيادة الإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس. وأدى هذا الأمر فى نهايته إلى تحول ميزان القوى لصالح العثمانيين . ففى الوقت الذى ازدادت فيه هجماتهم عنفاً وضراوة ، خبت مقاومة البيزنطيين إلى درجة كبيرة.

١- عن الدور التاريخى الهام للإمبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس ، انظر.

اسحق عبيد، الدولة البيزنطية فى عصر ميخائيل باليولوغس ١٢٦١-١٢٨٢م، بيروت ، د.ث :

٢- Pachymers ,G, De Michael Palaeologus , vol , I. ed . Bekke in, C.S. H. B, Bonne, 1885, pp. 221, 244-250 .

محمد فؤاد كوبريللى ، المرجع السابق، ص١٢٦-١٢٧ . لكنه أشار إلى أن قوات الأكرتاي Akritai البيزنطية . التى قام ميخائيل الثامن باليولوغس بتسريحها ، كانت تدعى بالخرائطية، حسب المصادر الإسلامية .

Pachymers , Op. cit, pp. 221-22 .

وبعد وفاة أرطغرل ، خلفه ابنه عثمان (١٢٨٨-١٣٢٦م) ، الذى وجد مسرح الأحداث مهياً لى يواصل العثمانيون قضم الممتلكات البيزنطية، عبر التحالف مع عدد من قادة المدن والقلاع البيزنطية فى آسيا الصغرى، وتآليبهم ضد السلطة البيزنطية، وضد بعضهم البعض، وفشلت الدفاعات البيزنطية فى إيقاف الزحف العثماني^(١)، لدرجة أنه لم يتبق لبيزنطة فى شمال غرب آسيا الصغرى سوى مدن بروسه ونيقية ونيقوميديا، والأقاليم التابعة لها، فى بداية القرن الرابع عشر الميلادى.

وكان من الطبيعى أن ينتهز السلطان عثمان تدهور الأحوال السياسية والعسكرية للإمبراطورية البيزنطية، وأن يفكر فى الاستيلاء على مدينة نيقية. وهو الأمر الذى توقعه الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثانى باليولوغس Andronicus II Palaeologus (١٢٨٢-١٣٢٩م) فحاول إيقاف تقدم العثمانيين داخل أراضى وممتلكات بيزنطة، واعتبر عثمان من أخطر أعدائه الأتراك ، واستجمع الامبراطور قواته للتصدى للقوات العثمانية ، لكن الأخيرين استطاعوا تشتيت شمل الجيش البيزنطى فى العام ١٣٠١م بالقرب من مدينة قويون حصار (بافيوم)^(٢) إلى مسافة ليست بعيدة عن مدينة نيقوميديا ، وساعد هذا الانتصار على استتباب الأمور للعثمانيين فى آسيا الصغرى .

ارتفعت معنويات العثمانيين بعد هذا النصر، وهو ما شجعهم على الزحف باتجاه مدينة نيقية الشهيرة، وقاموا بفرض الحصار عليها ، وعلى الرغم من فشل العثمانيين فى اقتحام المدينة ، فقد فرضوا الحصار عليها من أجل إجبارها على الاستسلام، وهو الأمر الذى لم يحدث آنذاك.

١- انظر المصدر العثماني الهام لابن عاشق باشا :

Asik Pasa oglu Tarihi , Hazirlayan , A. Nihal Atsiz, Ankara, 1985, pp. 18-19 .

Pachymers, Op. cit, p. 327 .

-٢

محمد فؤاد كوبريللى، المرجع السابق، ص ١٦٢ .

انظر أيضاً : ناهد عمر صالح السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور اندرونيكوس الثانى باليولوغس ١٢٨٢-١٣٢٨م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة، ١٩٩٩م، ص ٨٢ .

بعد أن أتت سياسة عثمان ثمارها على صعيد العلاقات مع السلطة البيزنطية، ومع قادة المدن البيزنطية، أدرك الأخيرون مدى خطورة عثمان على مدنهم، فقاموا بتكوين حلف يهدف إلى تقويض سياسة عثمان عن طريق إجباره على تغيير بوصلة سياسته من الهجوم إلى الدفاع. وتجمعت قوات هذا الحلف البيزنطى من أجل مهاجمة عثمان فى عاصمته ينى شهر، لكن عثمان أدرك هدف أعدائه، وقام بالقضاء على تلك المحاولة فى مهدها ٧٠٧هـ - ١٣٠٧ م.

ويمكن اعتبار ذلك العام بمثابة نقطة الانطلاق الحقيقية لفتوحات عثمان الكبرى على حساب المدن والأراضى البيزنطية . إذ نجح عثمان فى ازاحة القوى العسكرية لقادة المدن، مما فتح أمامه الطريق للاستيلاء عليها ، وهو الأمر الذى جرى بوتيرة سريعة بعد العام ١٣٠٧ م.

وتطلع عثمان نحو الاستيلاء على مدينة بروسا Brusa لأهميتها الاستراتيجية فقام بعدة محاولات - لم تلق نجاحاً - لحصارها والاستيلاء عليها فى الأعوام ٧١٨هـ - ١٣١٨ م، ٧٢٠هـ - ١٣٢٠ م، ٧٢٢هـ - ١٣٢٠ م، ٧٢٢هـ - ١٣٢٢ م، مما دعاه إلى فرض حصار نهائى عليها. وتم إجبارها على التسليم عام ٧٢٦هـ - ١٣٢٦ م^(١). حيث أبدى عثمان قدراً كبيراً من التسامح مع سكان بروسا، وترك لهم حرية البقاء بها أو الرحيل .

وكان من أبرز نتائج استيلاء العثمانيين على مدينة بروسه أن رسخت أقدام تلك القوة العسكرية الجديدة فى آسيا الصغرى، فى الوقت الذى تدهورت فيه مكانة بيزنطة وبدأ للعيان أن نجمها فى أفول .

قام السلطان الجديد أورخان ابن عثمان (١٣٢٦-١٣٥٩م) باتخاذ مدينة بروسا عاصمة جديدة للعثمانيين . وبعد أن قام بالتقاط أنفاسه ولّى وجهه صوب الاستيلاء على مدينتى نيقية^(٢) (التي استعصت على الفتح منذ حين). ونيقوميديا، وبدأ استراتيجية عسكرية تهدف إلى قطع خطوط الإمدادات البيزنطية نحو المدينتين .

أدرك الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس Andronicus III Palaeologos (١٣٢٨-١٣٤١) مرمى السلطان أورخان . فاتجه على رأس جيش بيزنطى لانقاذ مدينة نيقية ١٣٢٩م، حيث واجه القوات العثمانية عند بيلكانو (Maltepe) ، والتي ألحقت به هزيمة

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 36-38 ; Nicole, D, The Last Centuries of Byzantium , London 1972, p. 154 .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 46-47 ; Nicol, Op. cit. p. 174 .

ساحقة ، ومزقت شمل القوات البيزنطية، لدرجة أن الإمبراطور أندرونيكوس نفسه لحقت به إصابة فى هذه المعركة . ولم يكتف العثمانيون بهذا النصر ، بل تعقبوا قلول الجيش البيزنطى عند فيلوكرين Philocren فى طريقه تجاه القسطنطينية ، وأعملوا فيه القتل والأسر .

كان من أهم نتائج انتصار العثمانيين على البيزنطيين فى بيلكانو وفيلوكرين ١٣٢٩م، أن سقطت مدينة نيقية فى يد العثمانيين دون قتال ٧٣١هـ - ١٣٣١م. حيث أبدى أورخان- كآبيه سياسة تسامحية إزاء سكان المدينة، وخيرهم بين البقاء فيها أو الرحيل عنها .

استمر السلطان أورخان فى التوغل داخل الأراضى البيزنطية الباقية فى آسيا الصغرى، مما أدى ببيزنطة إلى عقد معاهدة سلام مع العثمانيين فى العام ١٣٣٣م^(١).

وعلى الرغم من هذا فإن البحرية العثمانية لم تلتزم بهذا الأمر، وتطلعت فى العام ١٣٣٧م إلى مهاجمة سواحل مدينة القسطنطينية . غير أن الأسطول البيزنطى - وبسبب خبرته البحرية الطويلة على العثمانيين- تمكن من دحر واغراق السفن العثمانية المهاجمة .

كان من أهم نتائج تلك المغامرة البحرية الفاشلة، أن اتخذ السلطان، أورخان قراره بضرورة الاستيلاء على مدينة نيقوميديا، التى عانت من الحصار العثمانى، وسلمت فى النهاية دون قتال ١٣٣٧م^(٢). ومرة أخرى سمح أورخان لسكانها بحرية البقاء أو الرحيل .

وهكذا استولى العثمانيون على آخر المدن البيزنطية شمال غربى آسيا الصغرى، ووصلت الجيوش العثمانية إلى شواطئ البوسفور .

وجد الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس نفسه فى موقف عسكرى لا يحسد عليه، فقد وصل أعداؤه العثمانيون إلى ساحل مضيق البوسفور ، وأصبحوا يواجهون الآن المدينة العظمى، القسطنطينية، مباشرة .

١- نصت المعاهدة على أن يدفع الامبراطور البيزنطى أندرونيكوس الثالث باليولوغس ١٢٠ ألف هيبيريون للعثمانيين، وأن تبقى الأراضى البيزنطية فى بيثينيا بآسيا الصغرى فى قبضة البيزنطيين مع اعتراف الامبراطور البيزنطى بالممتلكات العثمانية الجديدة فى آسيا الصغرى. وأن تكون مدة هذه المعاهدة عشرين عاماً . انظر:

وانظر أيضاً ، صلاح ضبيح ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية البيزنطية فى عصر آل باليولوغس ١٢٦١-١٤٥٣م، رسالة دكتوراه لم تنشر ، جامعة جنوب الوادى ، مصر ، ١٩٩٨م، ص ٩١-٩٢ .

وفى محاولة منه لايقاف المد العثماني نحو القسطنطينية، أصدر الامبراطور مرسوماً قضى فيه باعدام كل من يقوم بالمساعدة فى رسو أية سفينة عثمانية فى مضيق البوسفور أمام غاليبولى Gallipoli ، لأنه كان يأمل أن يستمر ذلك الحاجز الطبيعى حائلاً بينه وبين تطلعات السلطان أورخان والعثمانيين نحو العبور إلى أوربا، والاستيلاء على العاصمة القسطنطينية.

وعلى أثر وفاة الامبراطور أندرونيكوس الثالث باليولوغس ١٣٤١م، نشبت حرب أهلية بين أرملة الامبراطورة أنا Anna الوصية على ابنه يوحنا باليولوغس^(١)، وبين يوحنا كانتاكوزينوس John Cantacuzenus الذى كان وصياً عليه أيضاً . فلم تجد الإمبراطوره بداً من الاستنجاد بالسلطان العثمانى أورخان، الذى قبل مساعدتها ، وفى نفس الوقت قام يوحنا كانتاكوزينوس بطلب المساعدة من أورخان مقابل أن يقوم بتزويجه من ابنته الأميرة ثيودورا Theodora . فاختار أورخان أن يهب لمساعدة كانتاكوزينوس .

والحقيقة أنه من المفارقات التاريخية التى لايجب أن تغيب عن بالنا، أن العبور العثمانى الأول نحو القارة الأوربية كان بناء على طلب الامبراطور البيزنطى يوحنا السادس كانتاكوزينوس (١٣٤٧-١٣٥٥م) الذى استنجد بأورخان، فانتهاز الأخير الفرصة وأمده بقوات تتألف من عشرة آلاف مقاتل ساهمت فى تثبيت كانتاكوزينوس على العرش البيزنطى ١٣٤٧م مع يوحنا باليولوغس ، فضلاً عن زواج أورخان من الأميرة ثيودورا^(٢).

واجتمع الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس مع السلطان أورخان فى نفس العام عند اسكوتارى Scutari ، وطلب منه - مرة أخرى- المساعدة فى حربه ضد الصرب، فاستجاب أورخان وأرسل له عشرين ألف مقاتل عثمانى ١٣٤٩م، ونجحت تلك القوة العثمانية بعد ذلك بثلاث سنوات ١٣٥٢م فى سحق الصرب فى معركة ايمبيثيون^(٣) على نهر ماتيزا Matiza .

١- Doukas, Decline and Fall of Byzantium to the Ottoman Turks. Trans . by , Harry J. -
Magoulis . Detroit, 1975 , pp. 64 , 71 , 75 , 76 .

٢- Doukas, Op. cit, pp. 71-73 ; Nicol , Op. cit, p. 209 .

٣- Dolger , Op. cit., T.S, p 33 .

لكنه يحدد تاريخها بالعام ١٣٤٩م : انظر أيضاً ، صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص ١٠٧-١٠٨ .

وهكذا استغل العثمانيون فرصة الحرب الأهلية البيزنطية للحصول على موطنٍ قدم لهم في القارة الأوربية ، ذلك الموطن الذي لم يقوموا بالتزحزح عنه قيد أنملة، حتى نجحوا في النهاية في الاستيلاء على العاصمة البيزنطية ١٤٥٣م.

على أية حال واصل العثمانيون سياسة الاستيلاء على الأراضي البيزنطية في القارة الأوربية، فاستولوا على مدينة غاليبولى في العام ١٣٥٤م^(١)، ومنها انطلقوا نحو الاستقرار في أراضي البلقان .

لم يجد الامبراطور يوحنا السادس كانتاكوزينوس أمامه سوى استخدام أسلوب المفاوضات مع السلطان العثماني أورخان ، وابنه سليمان ، من أجل استعادة الأراضي البيزنطية التي استولى العثمانيون عليها ، لكن أورخان وابنه رفضا ذلك ، وتمسك العثمانيون بممتلكاتهم الجديدة في أوربا .

وكان من نتيجة ذلك الرفض العثماني أن اعتبر الشعب البيزنطي أن الامبراطور كانتاكوزينوس هو المسئول المباشر عن استقرار العثمانيين في البلقان وهو الأمر الذي دفع الامبراطور إلى التنازل عن العرش البيزنطي أواخر العام ١٣٥٤م^(٢).

ومن ناحية أخرى واصل سليمان ابن أورخان فتوحاته في الأراضي البيزنطية في البلقان ، وقام بالاستيلاء العديد من المدن والقلاع أهمها مدينة ديموطيقيا ١٣٥٧م^(٣).

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 51-53 * Dolger, Op. cit, T.S. p. 36 ; Nicol, Op. cit, pp. 253-254 .

وحول الاختلاف على تاريخ استيلاء العثمانيين على المدينة انظر:

Charanis, p. On The Date of The Occupation of Gallipoli , by The Turk, in Social , Economic and Political Life in the Byzantine Empire, London , 1973, pp. 113-117

٢- تنازل يوحنا السادس كانتاكوزينوس عن العرش البيزنطي في الرابع من ديسمبر ١٣٥٤ م . وانضم إلى سلك الرهبنة في دير بيرليبيتوس Peribleptos ، انظر

Doukas, Op. cot, p. 78

Asik Pasa, Op. cit., p. 55 .

وازداد نجم العثمانيين صعوداً ، فبعد أن اعتلى السلطان مراد الأول (١٣٥٩-١٣٨٩م) العرش العثماني خلفاً لوالده أورخان ، استمرت الفتوحات العثمانية التي اجتاحت مدن (أدرنه) Adrianople^(١) . وفيليبوبوليس Philipopolis في الأعوام ١٣٦١م، ١٣٦٣م، الأمر الذي دعا الامبراطور البيزنطي يوحنا الخامس باليولوغس John V Palaeologos (١٣٥٥-١٣٧٦م) إلى ادراك خطورة موقفه، وخطورة وضع مدينة القسطنطينية ، فعقد اتفاقية سلام مع مراد الأول، اعترف فيها بالسلطان العثماني سيّداً له^(٢) . في العام ١٣٦٢م.

تفاضت البابوية الكاثوليكية عن التوسع العثماني في أراضي وممتلكات الامبراطورية البيزنطية الارثوذكسية . وعندما اقترب التهديد العثماني للإسلامي من الدول الأوربية التي تدين بالمدن الكاثوليكي، والخاضعة لسلطة البابا الروحية، سعى البابا اريان الخامس Urban ٧ (١٣٦٢-١٣٧٠م)^(٣) لاعداد حملة صليبية ضد العثمانيين بقيادة أماديو السادس كونت سافوي Amadio VI of Savoy^(٤) ، لكن تلك الحملة - المباركة من البابوية والغرب- لم تنجح سوى في استرجاع مدينة غاليبولي ١٣٦٦م^(٥)، وبعض القلاع على بحر مرمرة .

١- Asik Pasa, Op cit, pp. 57-58 .

القرماني (ابن العباس أحمد بن يوسف النمشقي) أخبار الدول وآثار الأول في التاريخ ، بيروت ، د.ت ، ص ٢٩٩ .

Zachariadou, E, " The Conquest of Adrianople by The Turks" in , S.V , XII, 1970, pp. 211-217 .

٢- Nicol, Op. cit, p. 273 .

٣- هو سادس بابوات أفينيون Avignon . كان اسمه الحقيقي وليم دي جريمورد Guillaume de Grim- oard . ودرس في مونبيلييه وتولوز ومارسيليا . تم اختياره خليفة للبابا انوسنت الرابع بينما كان في مهمة في نابولي . قدم مساعدة للبيزنطيين ١٣٦٤م لمقاومة الأتراك : أنظر Kelly , J.N. Oxford Dictionary of Popes, Oxford, 1986, pp. 223-225 .

٤- منح البابا اريان الخامس أماديو السادس كونت سافوي حق الامتيازات المالية كأمر صليبي ، كالهباء والعشور والمساعدات المالية، طبقاً لما هو سائد في كونتية سافوي وكافة الأراضي الموجودة تحت يده
أنظر : ; Atiya , A.S, The Crusades in the Later Middle Ages, London , 1938 , pp. 380-381
٥- Nicol, Op. cit., p. 276 .

Nicol, Op. cit, pp. 276-277 .

بعد نجاح العثمانيين فى اكتساح منطقة البلقان، أدرك البيزنطيون الخطر الداهم الذى يتربص بهم، وحاولت السياسة البيزنطية استمالة الغرب الأوروبى من أجل الوقوف فى وجه الخطر العثمانى (١). وبدأ الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس فى تكثيف اتصالاته بالغرب اللاتينى عارضاً وحدة كنيسة القسطنطينية وروما. على حين ظلت غالبية الشعب البيزنطى تؤيد كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية فى رفضها سياسة يوحنا والاتحاد الكنسى ، وهو ما دفع البابوية إلى عدم تقديم أى دعم حقيقى للامبراطور البيزنطى .

وعلى أية حال ، بدأ العثمانيون بقيادة السلطان مراد الأول توسيع دائرة نفوذهم فى أوربا على حساب الامبراطور البيزنطية والصرب، وأكبر دليل على ذلك هو انتقال البلاط العثمانى من آسيا إلى تراقيا Trace ، واستقرار السلطان العثمانى فى العاصمة الجديدة أدرنه منذ العام ١٢٦٥م.

وبعد فشل رحلة الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس إلى الغرب من أجل استجداء المساعدة لاتقاذ القسطنطينية ، أقدم على ما كان لابد وأن يقدم عليه ، فعقد معاهدة سلام مع السلطان مراد الأول فى العام ١٢٧٢م (٢) تعهد فيها بدفع جزية سنوية للسلطان العثمانى، والاعتراف به سيداً له، مع تقديم العون العسكرى له وقت الحاجة.

وهكذا أصبحت الامبراطورية البيزنطية - بمقتضى تلك المعاهدة- مرتبطة بالأتراك العثمانيين من الناحية العملية، وأصبح الامبراطور البيزنطى العريق مجرد تابع اقطاعى عليه أن يؤدى الالتزامات العسكرية نحو سيده العثمانى .

١- Nicol , Op. cit , p. 284 .

٢- Ibid, p. 287 .

لكن البروفسير نيقول يعتمد على ما ذكره المؤرخ البيزنطى خالكوكونديليس Chalcocondylas .

على أية حال فإن هذه المعاهدة نصت على أن يدفع الامبراطور يوحنا جزية سنوية للسلطان مراد الأول، وكذا تقديم الخدمة العسكرية له، وترك ابنه مانويل رهينة لديه، فضلاً عن السماح لكل من يرغب من العثمانيين بحرية الدخول إلى القسطنطينية كل ذلك مقابل أن يغض السلطان مراد الطرف عن الامبراطور يوحنا، وأن يسمح له بحكم القسطنطينية وسالونيك وبعض الجزر فى بحر ايجه

وتوجد مناقشه جديده للأسباب الحقيقية التى جعلت الامبراطور البيزنطى لايجد أمامه مفرأ سوى الخضوع للسلطان العثمانى، من أجل انتظار المسانده الغربية ، ومن أجل الحفاظ على وحدة الجبهة الداخلية، وحتى لايقوم ابنه اندرونيكوس بالثوره ضده. انظر: صلاح ضبيح ، المرجع السابق، ص ١٣٨ .

ولم يكتف العثمانيون بهذا، فنجحوا في حرق الصرب مرتين الأولى عام ١٣٧١م^(١)، والثانية في كوسوفو ١٣٨٩م^(٢)، التي سميت بمرج الشحارير، حيث خضع الصرب والبلغار بعدها للدولة العثمانية.

وانعكست العلاقة الطيبة بين السلطان مراد الأول والامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس على ولديهما ساوهي شلبي، واندرونيكوس، اللذان احتفظا معاً بعلاقات صداقة ومودة، وفكرًا أيضاً في اعتلاء الحكم عبر القيام بثورتين ضد والديهما.

أدرك السلطان مراد أبعاد المؤامرة الخاصة به، ونجح في القضاء على الثورة وقتل ابنه الطامح إلى العرش^(٣)، وعلى الصعيدي البيزنطي نجح الامبراطور اندرونيكوس أيضاً في التصدي لطموحات ابنه، وزج به في السجن بعد أن سمل عينيه^(٤).

وعلى الرغم مما جرى لاندرونيكوس الابن، فقد تمكن من الهرب من محبسه بعد ثلاث سنوات ١٣٧٦م، ولجأ إلى الجنوي في مستعمرة Galata غلطة التجارية^(٥). وعاد من هناك اتصالاته بالسلطان مراد طالباً مساعدته في اقتحام القسطنطينية مقابل بعض التنازلات للعثمانيين. وبالفعل نجح أندرونيكوس بفضل المساعدة العسكرية الكبيرة التي قدمها له السلطان مراد- في دخول القسطنطينية في منتصف عام ١٣٧٦م، حيث قام بالقاء القبض على والده الامبراطور يوحنا الخامس باليولوغس، وأخويه مانويل وتيودور^(٦).

وكما سبق أن تمكن اندرونيكوس من الهرب من من سجنه، تمكن أيضاً والده الامبراطور السابق يوحنا الخامس وولديه من الفرار بعد ثلاث سنوات من السجن ١٣٧٩م^(٧). وكما هي

١- Asik Pasa, Op. cit, pp. 59-60 .

٢- Ibid, p. 56 . Housley , N , The Later Crusades. from Lyons to Alcazar 1274-1580 , Oxford , 1992 , pp. 71 , 77 , 86 , Nicol, Op. cit, p. 300 .

٣- Doukas, Op. cit, p. 79 .

٤- Ibid, p. 80 .

٥- Loc. cit .

٦- Loc. cit .

٧- Loc. cit .

Nicole, Op. cit, p. 292 .

٧- الذي يذكر أن فترة سجنهما كانت سنتين .

وانظر أيضاً

العادة توجهوا جميعاً لاستجداء المساعدة من السلطان مراد الأول، وعقد الطرفان معاهدة من أجل عودة يوحنا الخامس إلى العرش البيزنطى فى مقابل تقديم العديد من الامتيازات والتنازلات للسلطان العثمانى (١).

وهكذا تمكن يوحنا الخامس باليولوغس - بفضل المساعدة العسكرية العثمانية- من دخول القسطنطينية فى منتصف عام ١٣٧٩م، وهرب ابنه أندرونيكوس -ثانية- إلى الجنوبة فى غلطة.

وبعد عامين من المفاوضات حول أحقية الأب والابن بالعرش البيزنطى، تم التوصل إلى صيغة تسوية فى العام ١٣٨١م ، تقضى بأن يرث أندرونيكوس عرش والده بعد وفاته .

وأراد مانويل ابن الإمبراطور يوحنا الخامس أن يخرج من فكاك التبعية للسلطان العثمانى، فقام العثمانيون بحصار مدينة سالونيك Thessalonik والاستيلاء عليها فى أبريل ١٣٨٧م (٢). حيث هرب مانويل من المدينة ، وسعى إلى الاختباء عند أحد أصدقائه من حكام المدن، لكنهم رفضوا جميعاً استقباله ، وحتى القسطنطينية نفسها رفضت استقباله خشية غضب السلطان مراد.

وهكذا لم يجد مانويل أمامه مفرأ من التوجه بنفسه إلى السلطان مراد فى عاصمته بروسه، وتقديم فروض الطاعة والولاء لسيده العثمانى.

ويمكننا أن ندرك من الأحداث السابقة مقدار النفوذ العثمانى فى القسطنطينية فى الربع الأخير من القرن الرابع عشر الميلادى، وكيف كان السلطان مراد الأول هو الرقم الصعب فى

١- نصت المعاهدة على أن يدفع الإمبراطور يوحنا الخامس باليولوغس ثلاثين ألف بيزانت كجزية سنوية للسلطان مراد الأول . وأن يقدم له - مع ابنه مانويل- فروض الطاعة والولاء تجاه سيدهم العثمانى . وأن يقومون بتزويده بفرقة عسكرية بيزنطية بشكل سنوى للمساعدة فى حروب السلطان العثمانى . وبالإضافة إلى ذلك يتنازل الإمبراطور البيزنطى يوحنا الخامس عن مدينة فيلادلفيا للسلطان مراد. وتتبع أهمية هذه المدينة آنذاك من كونها آخر الممتلكات البيزنطية فى آسيا الصغرى. عن ذلك انظر :

Charanis , p. An Important Short Chronicle of the Fourteenth Century, in Social , Economic and Political Life in the Byzantine Empire , pp. 335-362 .

Nicol, Op. cit, pp. 296-298 ; Charanis, Op. cit, p. 359 .

معادلة التسوية السياسية بين العثمانيين والبيزنطيين. والحقيقة أن علاقة التبعية التي ربطت أفراد أسرة باليولوغس الحاكمة في القسطنطينية ، بالسلطان العثماني مراد الأول لم تنته إلا بوفاة الأخير في معركة كوسوفو منتصف ١٣٨٩م.

اعتلى السلطان بايزيد الأول (١٣٨٩-١٤٠٢م) العرش العثماني، بعد وفاة والده مراد الأول، واستمر في متابعة السياسة العثمانية الرامية إلى التدخل في الصراعات العائلية بين أفراد أسرة باليولوغس في القسطنطينية، فأقدم بايزيد على مساعدة يوحنا السابع ابن اندرونيكوس الرابع في دخول القسطنطينية ١٣٩٠م. لكن الامبراطور يوحنا الخامس تمكن من طرد يوحنا السابع وقواته من المدينة .

مارس السلطان بايزيد علاقة التبعية بين العرشين العثماني والبيزنطي، فأصدر أوامره للامبراطور يوحنا الخامس بأن يرسل إليه ابنه الأمير مانويل على رأس قوة تتألف من مائة مقاتل بيزنطي، ولم يكن أمام الامبراطور الضعيف سوى تنفيذ تلك الأوامر ، فأرسل ابنه مانويل الذي ساعد السلطان بايزيد في الاستيلاء على مدينة فيلادلفيا آخر معاقل البيزنطيين في آسيا الصغرى .

استغل الامبراطور يوحنا الخامس غياب السلطان بايزيد في آسيا الصغرى ، وقام باجراء بعض الاصلاحات والترميمات في أسوار القسطنطينية^(١)، الأمر الذي أثار غضب بايزيد، وهدد الامبراطور البيزنطي بسمل عيني ابنه مانويل الموجود لديه، إذا لم يقيم بهدم التحصينات والترميمات التي قام بها في أسوار المدينة^(٢).

وهكذا فلم يكن أمام يوحنا الخامس بدٌ من هدم ما قام به من اصلاحات ، ويبدو أن الامبراطور البيزنطي لم يستطع تحمل كل تلك المهانات الموجهة من قبل السلطان العثماني ، فمات في أوائل العام ١٣٩١م.

علم مانويل بوفاة والده ، وهو في معسكر السلطان بايزيد في آسيا الصغرى، فتسلل هارباً من المعسكر العثماني^(٣)، ووصل إلى القسطنطينية حيث اعتلى العرش البيزنطي (١٣٩١-١٤٢٥م) .

Doukas, Op. cit., p. 82 .

Loc. cit .

Loc. cit .

-١

-٢

-٣

استمر السلطان بايزيد فى ممارسة علاقة التبعية مع الامبراطور الجديد مانويل، وأصدر إليه العديد من الأوامر، التى أبدى مانويل تذرره منها، الأمر الذى جعل السلطان العثمانى يوجه إليه رسالة ضمنها عبارته الشهيرة «إذا لم تكن راجياً فى تنفيذ أوامرى ، فأغلق عليك أبواب مدينتك (القسطنطينية)، واحكم داخلها ، فكل ما وراء الأسوار ملك لى»^(١).

غير أن الإمبراطور مانويل أعلن رفضه وتذرره من العلاقة التى تضمن تبعيته للسلطان بايزيد، وعندها توجه السلطان العثمانى بقواته إلى تراقيا، ثم تقدم نحو القسطنطينية لحاصرتها^(٢). ولم ينته الحصار إلا بعد رضوخ الامبراطور البيزنطى مانويل لمطالب بايزيد، والتى كان من ضمنها ضرورة انشاء مسجد جديد فى القسطنطينية .

وعادت العلاقات الطبيعية بين مانويل والسلطان بايزيد ، حيث قدم الأول على رأس قواته إلى آسيا ١٣٩١م لمساعدة بايزيد فى حروبه هناك .

وأمر السلطان بايزيد بضرورة عقد اجتماع فى مدينة سارديس Sardis فى نهاية ١٣٩٢م وبداية ١٣٩٤م ، قام فيه بجمع كافة حكام المدن التابعين له ، من أجل تكريس المزيد من تبعيتهم له، وتقديم المساعده العسكرية بشكل دائم^(٣).

-١-

Doukas , Op. cit, p. 83 .

فى الحقيقة فإن السلطان العثمانى بايزيد كان يهدف إلى اذلال الامبراطور الجديد مانويل، إذ أرسل إليه بطلب منه - على وجه السرعة- استقبال وتعيين قضاة مسلمين من أجل تسيير شئون التجار العثمانيين بالقسطنطينية الذين لا يجب أن يمثلوا بين أيدي قضاة بيزنطيين بعد الآن. كما أنه يجب على الامبراطور تخصيص حى كامل فى القسطنطينية لاقامة هؤلاء التجار المسلمين الذين يحق لهم ممارسة شعائر دينهم حرية تامة . ولم ينس السلطان بايزيد تذكير مانويل بضرورة دفع الجزية السنوية التى قام أبوه يوحنا لخامس بدفعها، وأن يكرس فى النهاية تبعيته المطلقة للسلطان العثمانى .

واضطر مانويل - نتيجة لخرج موقفه- إلى قبول شروط السلطان بايزيد، فأقام محكمة إسلامية، وحياً سلامياً فى منطقة سيركجى Sirkeci تحت حراسة حامية عثمانية ، بالإضافة إلى موافقته على تشييد مسجد جديد فى الحى الإسلامى انظر: صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص ١٦٥ .

-٢-

Asik Pasa, Op. cit, pp. 68-69 .

-٣-

Nicol, Op. cit, p 314 .

ومرة أخرى قرر الامبراطور مانويل التخلص من علاقة التبعية للسلطان بايزيد ، فكان رد الأخير أن قام بحصار القسطنطينية ١٣٩٤م^(١)، وبدأ فى تنفيذ تهديده السابق لمانويل ، إذ استولت قواته على جميع ممتلكات الامبراطور خارج أسوار المدينة. وبدأ أن مسرح الأحداث قد أصبح مهياً لسقوط القسطنطينية فى أيدي العثمانيين هذه المرة.

ولم يكن أمام الامبراطور البيزنطى إلا أن يتوجه - كما فعل والده من قبل- نحو الغرب الأوروبى، يناشده حماية القسطنطينية التى ظلت قروناً طويلة حصن الأمان الشرقى للعالم الأوروبى المسيحى^(٢).

لكن مناشدة الامبراطور مانويل لم تثر فى الغرب سوى الشعور بالعطف، إذ ذهبت ندائاته ادراج الرياح، ولم تصله سوى تطمينات معنوية، ووعد - لم يتحقق أبداً- بالمساعدة . ومكث الامبراطور فى باريس ينتظر وصول خبر سقوط القسطنطينية ، بين يوم وآخر ، فى الوقت الذى توجهت فيه سفارة من النبلاء البيزنطيين إلى آسيا الصغرى من أجل تسليم مفاتيح مدينة القسطنطينية للسلطان بايزيد الأول^(٣).

١- Doukas , Op. cit, pp. 83-86 ' Asik Pasa Op. cit, pp. 68-70 .

٢- Doukas , Op. cit, p. 83 .

أرسل الامبراطور مانويل أولاً برسانته إلى البابا، وإلى ملك فرنسا وإلى حاكم المجر يخبرهم فيها بحصار القسطنطينية واقترب سقوطها. فى أيدي أعداء المسيحية . وذلك قبل أن يغادر القسطنطينية فى العاشر ديسمبر ١٣٩٩م برفقة كبار النبلاء ورجال الدين البيزنطيين . وصل الإمبراطور إلى البندقية ١٤٠٠م، ثم إلى نابلى وميلان ، ومنها تحرك ركبته حتى الحدود الفرنسية ، حيث اصطحبته فرقة من الضباط أرسلها شارل السادس ملك فرنسا الذى رحب بالامبراطور البيزنطى فى باريس. وقام بترتيب اجتماعات له مع ملوك قشتالة وأراجون.

وفى نفس العام ١٤٠٠م، غادر مانويل فرنسا متجهاً إلى إنجلترا عبر ميناء كاليه لمقابلة الملك هنرى الرابع . والحصول على نجدة عسكرية ثم غادر لندن فى منتصف العام ١٤٠١م إلى باريس مرة أخرى.

وعن وجود الامبراطور مانويل الثانى فى إنجلترا انظر .

Nicole , D, A Byzantine Emperor in England . Manuel's Visit to London in 1400-1401: , in Byzantium : its ecclesiastical history and relations with Westen World . London , 1972 , pp. 204-225 .

٣- Barker, J.W, Manuel II Palaeologus, 1391-1425 . A Study in Later Byzantine Statesmanship, New Jersey , 1969, p. 215 .

وهكذا كانت القسطنطينية على وشك السقوط النهائي فى أيدي العثمانيين فى بداية القرن الخامس عشر الميلادى، لولا تدخل القدر ليزيد من عمر بيزنطة نصف قرن جديد. فقد تنامت قوة المغول فى نهاية القرن عشر تحت قيادة تيمور لك Timerlane ، ولم يحاول السلطان العثمانى بايزيد أن يتجنب الاستفزازات المغولية حتى ينتهى مشروعه الحربى بإسقاط القسطنطينية ، وربما فكر بايزيد فى القضاء على الخطر المغولى فى شرق السلطنة العثمانية ، على أن يعود بعد ذلك لمعاودة حصاره للقسطنطينية التى كانت آنذاك بلا حول ولا قوة بشكل فعلى. وهنا كان خطؤه القاتل .

على أية حال نجح تيمور لك فى ايقاع هزيمة مروعة بالجيش العثمانى فى معركة أنقرة ١٤٠٢م، بل أنه تمكن من أسر السلطان بايزيد نفسه، الذى مات فى الأسر بعد عدة أشهر^(١).

انعكست آثار هزيمة العثمانيين فى موقعة أنقرة على مسرح الأحداث داخل السلطنة العثمانية، وفى بيزنطة ، فقد مكن الانتصار المغولى ، وزوال الخطر العثمانى عن القسطنطينية، الامبراطور مانويل من العودة إلى عرشه بالقسطنطينية كما اضطر الأمير سليمان ابن

١- تعد معركة أنقره ٨٠٤هـ / ١٤٠٢م من أهم المعارك العسكرية فى العصور الوسطى . لآثرها على كافة القرى بالمنطقة. عن ذلك انظر:

ابن عربشاه (ابى العباس شهاب الدين بن محمد اللمشقى) ، عجائب المقنور فى نواثب تيمور ، تحقيق فايز الحمصى ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص ٣١٩-٣٢١ ؛ ابن العماد والحبلى (أبو الفلاح عبد الحى) شذرات الذهب فى أخبار من ذهب ج ٧، بيروت ، ب.ت، ص ٤٧ .: ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ج ١٢ ، القاهرة ، د.ت ، ص ٢٦٧-٢٦٨ ويذكر ابن تغرى بردى، أنها حدثت فى السابع والعشرين من ذى الحجة ٨٠٤هـ .

Asik Pasa, Op. cit, pp. 75-81 , Doukas , Op. cit, pp. 90-95 .

Nicol , Op. cit , pp. 329-330 ' M.M , Alexandrescu - Dersc, La Campagne de Timur en Anatolie 1402. London , 1972, pp. 68-79 .

انظر أيضاً : جوزيف داهموس ، سبع معارك فاصلة فى العصور الوسطى، ترجمة محمد فتحى الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢، ص ١٨١-٢٠٦ .

السلطان بايزيد على التوقيع على اتفاقية مهينة في العام ١٤٠٣م ، مع يوحنا السابع باليولوغس، الامبراطور الشريك في القسطنطينية^(١).

جاء اختفاء السلطان بايزيد الأول مؤذناً بنشوب حرب أهلية بين أبنائه^(٢)، وقام الامبراطور مانويل بدور كبير فيها عن طريق تغذية روح الغيرة والكراهية بين الأخوة.

على أية حال ، انتهت تلك الحرب الأهلية بانفراد السلطان محمد الأول (١٤١٣-١٤٢١)^(٣) بالعرش العثماني وشهدت العلاقات البيزنطية العثمانية هدوءاً في عهده مما سمح للامبراطورية البيزنطية بالتقاط أنفاسها . كما ارتبط بعلاقة صداقة مع الامبراطور البيزنطي لدرجة أنه أوصى- وهو على فراش الموت - بارسال اثنين من أبنائه ليكونا تحت وصاية الامبراطور البيزنطي .

بعد وفاة السلطان محمد الأول ، اعتلى العرش العثماني ابنه مراد الثاني (١٤٢١-١٤٥١م)^(٤)، فأرسل له الامبراطور مانويل رسالة تطالبه بتنفيذ وصية والده، وارسال اثنين من إخوته للقسطنطينية ليكونا تحت وصاية الامبراطور .

وعندما رفض السلطان مراد الأول طلب الامبراطور مانويل ، قام الأخير بايقاظ الفتنة النائمة حول العرش العثماني ، فأطلق سراح الأمير مصطفى الذي ادعى أنه ابن السلطان بايزيد ، وقدم له مساعدة عسكرية مكنته من الاستيلاء على بعض الأراضي العثمانية في

١- Dolger , Op. cit, p. 75 ; Dennis, S.J, The Byzantine - Turkish Treaty 1403" in, O.C.P, - vol , XXXIII, 1967 , pp. 72-88 .

والحقيقة أن سليمان بن بايزيد - ونتيجة لخرج موقفه - قدم العديد من التنازلات لكل من الامبراطور يوحنا ، وجنوا، والبندقية والصرب. انظر ترجمة معاهدة ١٤٠٢م عند صلاح ضبيح ، المرجع السابق، ص ٢٠٢-٢٠٤ .

وقد أشار ابن تغرى بردى أيضاً إلى صلح سليمان مع البيزنطيين . انظر النجوم الزاهرة ، ج ١٢ ، ص ٢٦٩ .

٢- Asik Pasa , Op. cit, pp. 83-85 .

ابن عرش شاه ، المصدر السابق ، ص ٢٣٤-٢٣٦ ،

Doukas, Op. cit., pp. 100-103 , 105-106 .

٣- Asik Pasa, Op. cit, pp. 84-85 .

Ibid, p. 93 .

القارة الأوربية، وهو الأمر الذى دفع السلطان مراد للتصدى له بجدية حتى تم القضاء عليه، وعلى دعواه .

وأراد السلطان مراد الأول معاقبة الامبراطور مانويل على دوره فى الفتنة السابقة، فأعلن عليه الحرب، وقام بحصار القسطنطينية ١٤٢٢م، حتى بدأ أن المدينة على وشك السقوط . فاستخدم الامبراطور مانويل سلاح الدبلوماسية البيزنطية مرة أخرى ، إذ فكر فى ضرورة جذب انتباه السلطان إلى جبهة أخرى. ونجح فى التحريض على ثورة تهدد الممتلكات العثمانية فى آسيا الصغرى. وهو ما اضطر السلطان مراد الأول إلى رفع الحصار عن القسطنطينية والتوجه نحو اخماد هذه الثورة . حيث استطاع السلطان العثماني القضاء على تلك الثورة تماماً^(١).

وهكذا ظهر للجميع استعادة العثمانيين لعافيتهم المفقودة منذ هزيمة أنقره ١٤٠٢م. وبدأ العثمانيون فى اعادة تنظيم قواتهم واستعادة موقعهم السابق كخطر يهدد القسطنطينية باستمرار . وهو ما أفضى فى النهاية إلى قيام معاهدة بين السلطان مراد الثانى والامبراطور مانويل فى العام ١٤٢٤م^(٢)، تنازل فيها الامبراطور عن جميع الامتيازات التى حصلت عليها بيزنطة طبقاً لمعاهدة ١٤٠٣م، التالية لمعركة أنقره مباشرة ، والتى تم توقيعها بين الأمير سليمان ويوحنا السابع .

كان من أهم نتائج معاهدة ١٤٢٤م أن عادت الأمور بين العثمانيين والبيزنطيين لما كانت عليه قبل العام ١٤٠٢م . وهو ما جعل الأنظار تتجه من جديد نحو القسطنطينية .. الهدف النهائى للعثمانيين .

اعتلى آخر الأباطرة البيزنطيين قسطنطين الحادى عشر Constantine XI العرش البيزنطى

Asik Pasa, Op. cit, pp. 94-99 .

١-

٢- بعد أن قوى موقف العثمانيين عن ذى قبل نجح السلطان مراد الثانى - فى هذه المعاهدة - فى ارغام الامبراطور مانويل على دفع جزية سنوية تقدر بثلاثمائة ألف دوكات Ducat ، وأن يسلم له المدن والقلاع البيزنطية بطول سواحل البحر الأسود، بالإضافة إلى الأراضى المحاذية لنهر استريمون Strimon ، وجبل اثوس Athos ، وسالونيك ، انظر: Doukas , Op. cit, p. 169 ; Nicol, Op. cit , p. 350

صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص ٢٤٢ .

(١٤٤٨-١٤٥٣م) (١)، وكان سيئ الحظ، إذ ورث أوضاعاً سياسية واقتصادية وعسكرية مضطربة . ولم يكن أمامه الكثير ليقوم بفعله، سوى المحافظة على العلاقات الطيبة مع العثمانيين (٢)، والقيام - فى نفس الوقت- بالاستتجاد بالغرب الأوروبى لاتخاذ القسطنطينية.

وفى الوقت الذى ظل فيه السلطان مراد الثانى على علاقته الطيبة بالعرش البيزنطى، فإن الغرب الأوروبى تقاعس فعلياً عن مد يد العون العسكرى للإمبراطور ، إلا بعد أن تعلن كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية اتحادها مع كنيسة روما الكاثوليكية، وهو الأمر الذى رفضه بطاركة القسطنطينية (٣)، والشعب البيزنطى حتى النهاية.

وبمجرد اعتلاء السلطان محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) للعرش العثمانى، بدأ فى العمل لتحقيق الانجاز الذى كان أبيه وأجداده على وشك تحقيقه أكثر من مرة ، وهو فتح القسطنطينية ، فاستهل عهده باتفاقية سلام مع الامبراطور قسطنطين الحادى عشر تعهد له فيها بعدم الاعتداء على القسطنطينية (٤). كما عقد اتفاقيات بنفس المعنى مع سفراء بلغاريا ،

Nicol, Op. cit, p. 390-391 .

-١-

الذى يذكر أنه جرى تتويج قسطنطين الحادى عشر امبراطوراً فى ميسترا Mistra فى السادس من يناير ١٤٤٩م. ولم يدخل مدينة القسطنطينية سوى فى الثانى عشر من مارس ١٤٤٩م.

Nicol , Op. cit, p. 391 .

-٢-

حيث يذكر أنه بمجرد دخول الامبراطور قسطنطين للقسطنطينية قام بارسال سفير للسلطان العثمانى مراد الثانى من أجل تقديم التحية والولاء، وكذلك من أجل بحث عقد اتفاقية سلام بينهما.

٣- اعترض البطريرك جورج اسكولاريوس George Scholarius على فكرة الاتحاد الكنسى، وعندما رأى أن الظروف السياسية ، والتهديد العثمانى للقسطنطينيين سوف يؤدى فى النهاية إلى اقرار وحدة الكنائس على غير رغبة كنيسة القسطنطينية الارثوذكسية ، والشعب البيزنطى، لم يجد أمامه بداً من الانزواء فى أحد الأديرة ١٤٥٠م، ليصبح راهباً تحت اسم جيناديوس Ginnadios انظر : Nicol , Op. cit, p. 392 .

Doukas, Op cit, pp. 191, 304 , not . 230 .

-٤-

أرسل الامبراطور البيزنطى سفارة لتهنئة محمد بالجلوس على العرش العثمانى، ومطالبته بالابقاء على المعاهدات السابقة المبرمة بين البيزنطيين والعثمانيين ورحب السلطان محمد الفاتح بالسفارة البيزنطية ووعدهم خيراً، كما تعهد بأن يدفع لقسطنطين الحادى عشر ثلاثمائة ألف عمله قضيه (اسبيره) سنوياً من دخل القرى الموجودة على طول شواطئ نهر ستريمون Stryman ، للتكفل بنفقات الامير العثمانى أورخان ابن عم السلطان الفاتح، وابن السلطان سليمان ، الذى كان يدعى أحقيته فى الحصول على العرش العثمانى .

والمجر والصرب والبندقية وراجوزة وجنوا غلطة^(١). ثم توجه بعد ذلك للأناضول من أجل القضاء على بعض الثورات التي نشبت ضده^(٢).

بعد أن استتب الأمر للسلطان محمد الثاني، أخذ يتحين الفرصة لإعلان الحرب على بيزنطة، وأحكام الحصار حول القسطنطينية. وانتهاز وصول سفارة من قبل الامبراطور قسطنطين الحادي عشر تلح على زيادة ما يقوم بدفعه من نفقات مقابل إعاشة الأمير أورخان بن سليمان، فاستثار ذلك غضب السلطان العثماني، وتبعه بإعلان الحرب رسمياً على الامبراطورية البيزنطية.

بدأ محمد الفاتح استعداداته العسكرية بتشديد قلعة «الروملي» على الضفة الغربية للبوسفور، وعلى مسافة ستة أميال من القسطنطينية باتجاه البحر الأسود، وهي القلعة التي ذكرت المصادر البيزنطية المعاصرة أنه يمكن تسميتها، «بقاطعة الرقبة»^(٣)، بسبب وجودها في موضع مقابل للقلعة العثمانية الموجودة على الضفة الشرقية للبوسفور والمعروفة باسم «أناضولو حصار» الأمر الذي مكن محمد الفاتح من فرض سيطرته على البوسفور، وعلى كافة السفن المتجهة من وإلى البحر الأسود. وفرض الضرائب عليها.

وخلال بضعة أشهر (مارس - أغسطس ١٤٥٢م) كان العثمانيون قد انتهوا من بناء قلعة الروملي (روملي حصار). التي ساهمت بشكل كبير في احكام الحصار البحري على القسطنطينية.

وأدرك الامبراطور قسطنطين الحادي عشر مرامي السلطان العثماني، فقام -بشكل يومي- بإرسال السفارات والهدايا لمحمد الفاتح من أجل اثباته عن استكمال بناء تلك القلعة^(٤)، التي

١- Doukas, Op. cit, p. 191-193 .

٢- Asik Pasa, Op. cit, pp. 137-138 .

حيث يشير إلى نجاح محمد الفاتح في القضاء على ثورة أبناء قرمان .

٣- Tursun Bey , Tarih - i- Ebül - Feth . Hazirlayan . by Mertol Tulum, Istanbul , 1977 , pp. 40-45 , Doukas, Op. cit p. 196 ; Asik Pasa, Op. cit, p. 137 ; Kritovoulos, History of Mehmed The Conqueror, Trans . by , C.T Riggs, Princeton, 1954, pp. 16-20 .

٤- Barbaro, N, Diary of The Seige of Constantinople 1453 . Trans. J. R, Jones, New York , 1969, p. 9 .

أدرك الامبراطور مدى أهميتها الاستراتيجية لدى حصار محمد الفاتح للقسطنطينية ، لكن السلطان العثماني رفض محاولات الامبراطور البيزنطي، بل إنه تمادى فى اعلان عدائه لبيزنطه بعدما تم الانتهاء من تشييد قلعة الروملى، حيث أمر باستبقاء سفيرين للامبراطور البيزنطي، وأمر بضرب عنقيهما^(١)، ايذاناً ببدء المواجهة العسكرية بينهما.

بذل قسطنطين الحادى عشر قصارى جهده فى تجهيز دفاعات القسطنطينية، فقام بترميم أسوار المدينة، وتشبيد الأبراج ، واقامة المتاريس، وجمع الأسلحة وتوزيع المقاتلين البيزنطيين على البوابات وأعلى الأسوار.

وأرسل الامبراطور البيزنطي إلى البابا نيقولا الخامس Nichola V (١٤٤٧-١٤٥٠م)^(٢) يطلب مساعدته ، وحث الدول الأوربية المسيحية على انقاذ العاصمة البيزنطية ، لكن البابوية كان لها رأى آخر. إذ كانت تبحث عن مصالحها أولاً ، فبدلاً من أن يقوم البابا بارسال مساعدة عسكرية عاجلة، أرسل الكاردينال ايزيدور Isidore للقسطنطينية من أجل اتمام عملية الاتحاد الكنسى. قبل التفكير فى انقاذ المدينة.

وتفيض المصادر البيزنطية واللاتينية، وكذلك نيقولو باربارو فى كتابه الذى بين أيدينا ، بالحديث عن المشاورات ، وعملية التصويت التى جرت فى كنيسة أيا صوفيا، حيث تم اعلان الاتحاد الكنسى بها فى ديسمبر ١٤٥٢م.

Barbaro, Op. cit, p.9

-١

ويعتبر باربارو أن اعدام محمد الفاتح لسفيرى قسطنطين الحادى عشر بمثابة بداية أحداث الحرب المعلنة بينهما.

٢- كان ابناً لأحد الأطباء . ودرس فى جامعة بولونيا بإيطاليا تحت اسم توماسو بارنتوسيللى Tomma-so Parentucelli . حصل على الدكتوراه فى القانون ، ثم قام بخدمة الأسقف نيقولو البرجاتى Niccolo Al-bergati لمدة عشرين عاماً، تولى مسئولية البابوية ١٤٤٧م، لكنه لم يكن يمتلك مشروعاً للإصلاح ، فوجه اهتمامه ناحية الثقافة والاهتمام بالمخطوطات . قام فى العام ١٤٥٢م بتتويج فريديك الثالث Frederick III امبراطوراً فى كنيسة القديس بطرس فى روما انظر:

Kelly , J. N, The Oxford Dictionary of Popes, Oxford, 1986, pp. 244-245 .

لم تلق وحدة الكنائس قبولاً لدى الشعب البيزنطى الارثوذكسى، ويومها قال الرجل الثانى فى الامبراطورية البيزنطية القائد الأعلى Mega dux ، لوкас نوتاراس Lucas Nataras «أنتى أفضل أن أرى عمائم الأتراك فى القسطنطينية، على أن أرى قلنسوات رجال الدين اللاتين»^(١).

حدث هذا فى الوقت الذى ناشد فيه الامبراطور قسطنطين الحادى عشر أوروبا المسيحية لمساعدته، فلم تصله سوى امدادات بسيطة من مدينتى جنوا والبندقية. وكانت المساعدة الحقيقية التى تلقتها القسطنطينية هى وصول جيوفانى جستينيانى Giovanni Giustiniani^(٢)، القائد العسكرى الجنوى الشهير ، إلى المدينة فى يناير ١٤٥٣م، على متن سفينتين حربيّتين كبيرتين، وبرفقتة ٧٠٠ مقاتل، ٤٠٠ منهم من مدينة جنوا، والباقي من جزيرتى رودس وخيوس. ولدى وصول جستينيانى للقسطنطينية ، رحب به قسطنطين ترحيباً حاراً، بل إنه عهد إليه بالمسئولية الأولى عن عملية الدفاع عن المدينة.

بدأت القوات العثمانية فى التحرك من أجل تنفيذ الحصار البرى والبحرى على مدينة القسطنطينية . فتحرّكت القوات البرية يوم ٢٣ مارس من مدينة أدرنة ، تحت قيادة السلطان محمد الفاتح نفسه، كما غادر الأسطول البحرى ميناء مدينة غاليبولى فى نهاية مارس - أول أبريل، متجهاً صوب المياه الإقليمية للقسطنطينية، والحقيقة أن السفن العثمانية لعبت دوراً هاماً - سوف يأتى ذكره لاحقاً- فى عملية اقتحام القسطنطينية ، جنباً إلى جنب مع القوات البرية العثمانية ، خاصة تلك العناصر المكونة من الانكشارية والعزبان.

والحقيقة أن المدفعية العثمانية قد لعبت دوراً ضخماً فى دك أسوار مدينة القسطنطينية ١٤٥٣م، وإذا كانت أساليب الحرب قد عرفت استخدام المدفعية قبل ذلك بعدة عقود من الزمان، فإنه يمكن القول بأن العثمانيين قد أحدثوا نقلة نوعية ، فى حجم وأنواع المدافع المستخدمة فى الحرب، ومدى قذائفها ، وكمية الدمار التى تسببت فيها.

Doukas, Op. cit, p. 210 .

Ibid, pp. 211-212 , 217-219 , Kritouvoulos , Op. cit pp. 69-70 , Sphrantzes, G. The -٢ Fall of the Byzantine Empire 1401-1477 , Tran , by , Manos , Philippides, Amherst, 1980, p. 103 .

كان محمد الفاتح يدرك مدى مناعة أسوار القسطنطينية ، ويعلم أنها السبب الرئيسى الذى منع أبيه وأجداده العثمانيين من اقتحام المدينة . كما كان الفاتح يدرك جيداً أن أجداده كثيراً ما طالبوا الإباطره البيزنطيين بعدم ترميم أسوار القسطنطينية فى حال تعرضها للسقوط ، أو وجود بعض الثغرات بها، من أجل أن تظل سهلة المنال للعثمانيين إذا ما ارتأوا مهاجمة المدينة فى أى وقت . ولعلنا نذكر كيف أن السلطان بايزيد الأول قد أمر الامبراطور البيزنطى يوحنا الخامس باليولوغس بضرورة هدم التحصينات والترميمات الجديدة التى أقامها بأسوار القسطنطينية فى نهايات القرن الرابع عشر الميلادى^(١).

وإيماناً منه بضرورة التعامل بجدية مع أسوار القسطنطينية ، ولّى السلطان محمد الفاتح وجهه نحو ضرورة تطوير مدافعه ، الأمر الذى جعله يولى اهتمامه بضرورة التعامل مع المهندس اربان Urban ، أحد أهم صناع المدافع فى العالم آنذاك^(٢)، والذى كان يعمل فى خدمة الامبراطورية البيزنطية ، لكنه - بحثاً عن أجر أكبر يليق بمهنته - تحول إلى اعدائهم العثمانيين، الذين اهتملوا تلك الفرصة الذهبية وقام السلطان الفاتح بالاحتفاء بالمهندس اربان ومنحه الكثير من الأموال ، ومن السلطات التى تخول له صنع مدفع ضخّم لم تعرفه العلوم العسكرية من قبل.

نجح اربان فى تحقيق ما عهد به إليه ، وانتهى من صناعة المدفع العثمانى العملاق، الذى يعود إليه الفضل فى اسقاط العديد من جوانب أسوار القسطنطينية وتعجب العثمانيون والبيزنطيون - على السواء- من قدرات هذا المدفع الذى أصاب المدافعين عن القسطنطينية بالذعر والهلع نتيجة للصوت الهائل الذى كان يخرج منه عند كل قذيفة، فضلاً عن حجم الخسائر الفادحة التى ألحقها بالأسوار .

على أية حال قام العثمانيون بإرسال المدفع العملاق^(٣) باتجاه مدينة القسطنطينية فى الثانى

Doukas, Op. cit, p. 82 .

١- انظر .

٢- Ibid , pp. 200-201 ; Kritovoulus , Op. cit, pp. 43-47 , Tursun Bey , Op. cit, p. 47 ; Riccherio, C, The Capture of Canstantinopl in The Year 1453 in, Jones (ed.) The Siege of Constantinople . Seven Centemporary Accounts. Amesterdam, 1972, p. 119 .

٣- يذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس أن أربعمئة رجل، مائتين من كل جانب، كانوا يقومون بدفع المدفع =

من أبريل ١٤٥٣م^(١)، على حين وصلت القوات العثمانية البرية للتمركز أمام أسوار المدينة في السادس من أبريل ، وبدأت في اتخاذ مواقعها، ونصب معسكرها، من أجل القيام بالهجوم النهائي، واسقاط القسطنطينية.

وبدأ الجنود العثمانيون - بناء على أوامر محمد الفاتح- في تدمير كافة ضواحي القسطنطينية ، واصطحب السلطان كبار قادته لتفقد أسوار المدينة الممتدة من بحر مرمره إلى خليج القرن الذهبي، من أجل التوصل إلى أضعف نقاط الأسوار لمهاجمتها بواسطة المدافع والجنود العثمانيين.

بعد أن انتهى السلطان وقادته من تفقد الأسوار البرية والبحرية للقسطنطينية^(٢)، أصدر محمد الفاتح أمراً إلى أبرز قادته : زاجانوس باشا Zaganos Pasha بضرورة حصار مدينة غلطة، تلك المستعمرة التجارية الجنوبية، والمنطقة المحيطة بها حتى بوابة زيلو بورتا Xyloporta.

وقاد والى إقليم الأناضول، اسحق باشا ، ورفقته محمود بك ميمنة القوات العثمانية التي رابطت تحت الأسوار الجنوبية للقسطنطينية ، من بوابة القديس رومانوس إلى البوابة الذهبية على بحر مرمره . بينما قاد قراجة بك وآخرون ميسرة القوات العثمانية المرابطة أمام أسوار المدينة من بوابة زيلوبورتا حتى بوابة خاريسسيوس. وتم تزويد تلك القوات بالعديد من المدافع بهدف التركيز على تلك المنطقة من الأسوار ، بعد أن تمت ملاحظة ضعفها وعدم تحصينها بشكل جيد^(٣).

واتخذ السلطان محمد الفاتح ورفقته خليل باشا موقعهم في مواجهة المنطقة الوسطى من الأسوار ، التي امتدت من بابا خاريسسيوس شمالاً حتى باب القديس رومانوس جنوباً ورفقتهم العديد من القوات البرية المؤلفة بشكل أساسي من الانكشارية والعزبان^(٤).

= العملاق ، وحفظ توازنه، حيث كان مفككاً فوق ثلاثين عربة نقل ، فضلاً عن وجود خمسين نجاراً ، ومائتين من مساعديهم من أجل تسوية الطرق، وعمل الكبارى والجسور اللازمة لمرور هذا المدفع عليه . انظر:

“Decline and Fall of Byzantium” , p. 207 .

١- وهو نفس اليوم الذي قام فيه البيزنطيون بخلق السلسلة في مدخل خليج القرن الذهبي انظر:

Barbaro, Op. cit, pp. 24-25 .

Kritovoulos, OP. cit, pp. 40-41 .

Loc. cit .

Kritovoulos, Op. cit , p. 42 .

-٢

-٣

-٤

وأصدر محمد الفاتح أوامره لقائد الأسطول البحرى العثمانى، بلطه أوغلو Balta Oglu بحصار السور البحرى للقسطنطينية ، الممتد من الباب الذهبى على بحر مرمرة ، إلى ساحل مدينة غلطة ، فضلاً عن التصدى لمحاولات البحرية البيزنطية الرامية إلى كسر حلقات الحصار العثمانى للمدينة.

اتخذت القوات البيزنطية مواقعها داخل القسطنطينية بحيث توسط الإمبراطور قسطنطين قواته بعد أن تمركز عند بوابة خاريسيوس برفقة أعداد من فرسانه وأمرائه، على حين قاد القائد الجنوى جستينيانى ميمنة القوات المحاصرة بالقرب من بوابة القديس رومانوس، وتركزت جُلّ القوات البيزنطية والجنوية فى المسافة الواقعة بين بوابة خاريسيوس - حيث أضعف تحصينات الأسوار- إلى بوابة القديس رومانوس^(١).

كما تولى العديد من القادة البيزنطيين والبنادقة مهمة الدفاع عن ميسرة الإمبراطور فى المنطقة الممتدة من باب القديس رومانوس شمالاً حتى باب سليمان سليمبريا Silymbria جنوباً، على حين عهد إلى القائد الأكبر نوتاراس، ورفقته بعض القادة البيزنطيين من أسرة باليولوغس بمهمة الدفاع عن القسطنطينية بطول ساحل القرن الذهبى.

وراحت مدافع العثمانيين تدك أسوار مدينة القسطنطينية منذ الأسبوع الأول من شهر أبريل ١٤٥٣م، وترتب على قوة تأثير المدفعية العثمانية نتيجتين فى غاية الأهمية، الأولى ذات تأثير نفسى، إذ تسبب صوت المدافع فى إحداث حالة من الرعب والهلع والذعر لدى السكان البيزنطيين، إذا لم يسمعوا بمثل تلك الأصوات الهائلة من قبل ، والثانية ذات تأثير واضح على الأسوار، إذ دكت قذائف المدافع العثمانية الأسوار البرية للقسطنطينية بشكل مؤثر للغاية، مما ترتب عليه تهدم مساحة كبيرة من السور الخارجى، وسقوط بعض الأبراج الموجودة به.

بدأ جيوفانى جستينيانى والمدافعون عن المدينة فى إيجاد حل سريع لمسألة تهدم جدران الأسوار الخارجيه ، وذلك عن طريق سرعة ترميمها، وسد الثغرات التى أحدثتها القذائف العثمانية بها، وإقامة سياج من الأوتاد ، ووضع العديد من الأوانى الخشبية المليئة بالرمال فوقها من أجل صد القذائف الجديدة.

فضلاً عن ذلك قام جستنياني ورفاقه بجمع كافة الشجيرات القصيرة من داخل مدينة القسطنطينية ووضعها مكان الثغرات الموجودة في الأسوار^(١)، كما أقاموا خندقاً ثانياً من أجل حمايتهم ، إذا ما تهدم السور الخارجى تحت وطأة القذائف العثمانية .

قام العثمانيون في النصف الثانى من أبريل بمحاولتين في البر والبحر لاقتحام المدينة، لكن جهودهما ذهبت سدى . فقد أمر محمد الفاتح بردم الخندق الموجود أمام الأسوار البريه عند منطقة وادى ليكوس Licos^(٢)، بالأحجار والرمال، والأخشاب . وهاجمت القوات العثمانية- مستترة بالليل- أسوار المدينة.

وعلى الرغم من المحاولات المستميتة للجنود العثمانيون ، والى استمرت حتى شروق شمس اليوم التالى، فقد نجح المدافعون البيزنطيون في الدفاع عن مدينتهم ، ورد العثمانيين على أعقابهم ، بعد أن قاموا بتكبيدهم خسائر فادحة^(٣).

ودفع هذا النصر البيزنطيين وحلفائهم الجنوبيه والبنادقة إلى الاهتمام باصلاح الأسوار وإلى التوجه بالشكر والدعاء للرب فى كنيسة أيا صوفيا .

وإدراكاً من محمد الفاتح للأهمية الاستراتيجية لخليج القرن الذهبى، فقد وضعه ضمن أولوياته العسكرية القصوى، وسعى منذ البداية لاقتحامه والاستيلاء عليه. فأصدر أوامره لقائد الأسطول البحرى العثمانى بلطه أوغلو باقتحام السلسلة الموجودة فى مدخل القرن الذهبى، ومهاجمة السفن البيزنطية التى اتخذت أماكنها أمام السلسلة ، وخلفها حيث مدخل الخليج.

ودارت معركة بحرية عنيفة بين السفن العثمانية والسفن البيزنطية ، تمكنت الأخيرة خلالها من تحقيق النصر ، ومنع السفن العثمانية من اجتياز السلسلة .

كما تسببت البحرية العثمانية فى فشل جديد أثار حنق محمد الفاتح، بعد أن فشلت بعد ذلك بعدة أيام فى منع أربع سفن أوربية كبرى تحمل المؤن والامدادات من دخول القرن الذهبى^(٤)، والوصول إلى القسطنطينية ، وهو الأمر الذى أدى بالفاتح إلى اقضاء وزير البحر العثمانى .

Barbaro , Op. cit, p. 36 .

-١-

٢- قام الريابنة البنادقة وبحارتهم بحفر ذلك الخندق فى الرابع عشر من مارس .، انظر:

Barbaro , Op. cit, pp. 23-24 .

Barbaro , Ibid , p. 32 .

-٢-

Ibid , pp. 33-34 ; Kritovoulos, Op. cit, pp. 50-51 .

-٤-

وترتب على ما حدث أن أدرك السلطان محمد الفاتح أن الأسطول العثماني ان يتمكن من الولوج إلى خليج القرن الذهبي ، واحكام الحصار حول الاسوار البحرية للقسطنطينية ، ما دام الأسطول البيزنطي القوى يقف له بالمرصاد ، فضلاً عن وجود السلسلة الحديدية التي أحكمت اغلاق باب الخليج من ناحية مضيق البوسفور، ووجود السفن البيزنطية المتمركزة خلف السلسلة.

ولما كان من الضروري أن تدخل السفن العثمانية إلى القرن الذهبي، فقد تفتق ذهن السلطان محمد الفاتح عن فكرة عبقرية . استطاع بها في النهاية «إنزال» سفن الأسطول العثماني إلى مياه القرن الذهبي.

ونستخدم التعبير «إنزال» عن قصد بعد أن قام العثمانيون بنقل العشرات من سفنهم من مياه البوسفور - وعبر الطريق البري والتلال- بعد حركة التفاف رائعة ، إلى أن تم انزالها في نهاية خليج القرن الذهبي ليلة الثاني والعشرين من أبريل ١٤٥٣م.

وتحقيقاً لهذه الفكرة العبقريّة . فقد أمر الفاتح بتسوية الطريق البري من البوسفور إلى القرن الذهبي، وعبر استخدام الألواح الخشبية المدهونة بالشحم، ودهن الأغنام . ثم دفع السفن العثمانية بواسطة الرجال، وجرها بواسطة الثيران والأبقار والرجال الأشداء ، وهو ما أدى إلى انزلاق السفن على الألواح الخشبية المدهونة ،بالإضافة إلى أن السفن كانت تُجَرَّ وأشرعتها مفرودة. فساعدتها الرياح، كما لو كانت تسير فوق صفحة الماء.

وهكذا نجح العثمانيون في انزال حوالي ٧٢ سفينة إلى مياه خليج القرن الذهبي بعد رحلة برية بلغ طولها ثلاثة أميال كاملة (١).

كان وقع هذا الانجاز العسكري العثماني على البيزنطيين مروّعاً. إذ استيقظوا ذات صباح ليجدوا سفن الأسطول العثماني في نهاية خليج القرن الذهبي ، على حين كانت السفن البيزنطية والبندقية ما زالت مرابطة أمام وخلف السلسلة .

وقبل أن يفيق البيزنطيون من وقع المفاجأة ، كان عليهم ضرورة استيعاب ذلك الموقف العسكري الجديد الذي هدد أسوارهم البحرية في القرن الذهبي بشكل مباشر. وهو ما دعاهم

١- عن تلك الخطة الحربية الفذة . انظر المصادر المعاصرة التالية :

Tursun Bey , Op. cit, p. 52 ; Doukas, Op, cit, pp. 85-86 , Kritovoulos, Op. cit, pp. 55-58 .

إلى ضرورة نقل العديد من القوات المراقبة على الأسوار البرية للقسطنطينية من أجل الدفاع عن الأسوار البحرية. وهو ما عرض القوات المدافعة عن الأسوار البرية إلى ضغط شديد نتيجة للنقص الذى حدث فى أعدادها بالمقارنة مع طول الأسوار.

لم يكتف العثمانيون بهذا، بل أمر محمد الفاتح بتشديد جسر من البراميل الخشبية يمتد من غلطة إلى القسطنطينية بعرض خليج القرن الذهبى، ليصل إلى أقرب مكان للأسوار البحرية^(١). وهو ما زاد من ارتباك البيزنطيين، فقاموا بتحويل قواتهم باتجاه رأس الجسر الجديد. فضلاً عن مراقبة السفن العثمانية المراقبة فى القرن الذهبى، وهو ما ساهم فى ارباك خطط الدفاع البيزنطية، وشنت جهودها فى الدفاع عن أسوار القسطنطينية فى عدة أماكن مختلفة ومتباعدة عن بعضها البعض.

وعلى الرغم من حدوث بعض المناوشات والمطاردات البحرية بين السفن البيزنطية والسفن العثمانية داخل خليج القرن الذهبى، فإنها لم تسفر عن نجاح البيزنطيين فى تجنب الخطر البحرى العثمانى، الذى أصبح واقعاً لا مفر منه.

ويبدو أن الوضع العسكرى البيزنطى الحرج قد دفع الامبراطور قسطنطين الحادى عشر إلى ارسال سفارة للسلطان محمد الفاتح تطلب منه التراجع عن فكرة الاستيلاء على القسطنطينية مقابل دفع جزية سنوية كبيرة^(٢).

كان رد السلطان الفاتح قاطعاً وحاسماً، بأنه لن يرجع عن هدفه بفتح القسطنطينية وأنه يهب نفسه من أجل هذا الأمر، ولو أدى إلى أن يكلفه حياته، كما عرض على الامبراطور الرحيل بسلام عن القسطنطينية مقابل منحه ملك البلوبونيز Plopones، ومنح بعض الأراضى والممتلكات الأخرى لآخواته ورجاله. أما إذا لم يوافق على هذا العرض النهائى منه، سوف يأمر قواته بقتل الامبراطور ونبلائه، فضلاً عن نهب وسلب كافة ممتلكات سكان القسطنطينية^(٣).

١- Asık Pasa, Op. cit, p. 138 ; Doukas, Op. cit, pp. 219; Reccherio, Op. cit, p. 119 .

٢- يعتبر بوكاس هو المصدر التاريخى الوحيد الذى ذكر هذه السفارة، انظر:

Doukas , Op. cit, pp. 217-218 .

Loc. cit .

وعندما لم يجد الامبراطور جديداً في رد السلطان الفاتح، أخذ يبذل محاولاته الأخيرة في الدفاع عن المدينة ، وقرر بأنه يجب أن يتخذ موقفاً إيجابياً ازاء الأسطول البحرى العثمانى الذى استطاع «النزول» إلى القرن الذهبى . وذلك عبر تنفيذ خطة تهدف إلى إضرام النيران بالسفن العثمانية وتشيت شملها ، حتى يستطيع البيزنطيون أن يمسكوا بزمam الأمور مرة أخرى.

استقر عزم الامبراطور وحلفاؤه البنادقة على ضرورة القيام بهجوم مباغت فى نهاية شهر أبريل ، لاحراق السفن العثمانية. وبالفعل بدأت سفن البنادقة بالاقتراب منها ، لكن السفن العثمانية فاجأتها باطلاق القذائف عليها، فضلاً عن مساعدة المدافع العثمانية لها، مما أدى إلى فشل الهجوم البندقى، وغرق العديد من السفن البندقية والبيزنطية بحارتها (١).

أحدث فشل الخطة البيزنطية الرامية لمفاجأة السفن العثمانية واشعال النار فيها، احباطاً شديداً للمدافعين البيزنطيين والبنادقة ، الأمر الذى دعاهم إلى اتهام الجنوة سكان غلطة بالتواطؤ مع محمد الفاتح (٢)، وابلاغ العثمانيين بموعد الهجوم البحرى. واضطر الامبراطور قسطنطين الحادى عشر إلى احتواء هذا النزاع من أجل الحفاظ على تماسك جبهته الداخلى ، ومجابهة المحاولات العثمانية المتكررة لاقتحام القسطنطينية.

وطوال الوقت، كان الامبراطور البيزنطى ينتظر الأسطول الذى وعدت البندقية بإرساله لمساندة القسطنطينية . وعندما وجد الامبراطور أن الوقت يمضى سدى ، وأن الاستعدادات العثمانية تتواصل، وأن العثمانيين قد بدأوا موجات الهجوم الأولى، لم يجد أمامه بداً من ارسال سفينة بيزنطية للبحث عن الأسطول البندقى المزعوم (٣).

ولما كان من الصعب على أية سفينة بيزنطية أن تمر من حصار السفن العثمانية الراضية أمام سلسلة القرن الذهبى. استخدم ريان تلك السفينة البيزنطية حيلة بسيطة لكى يشق طريقه، إذ رفعت سفينته العلم العثمانى، وارتدى بحارتها الزى العسكرى للبحرية العثمانية (٤).

١- Barbaro, Op. cit, pp. 39-42 , Leonard of Chios, "The History of the Loss and Captivity of the City of Constantinople", in , Jones (ed.) The Siege of Constantinople 1453 : Seven Contemporary Accounts, Amsterdam, 1972 , p. 24 .

Barbaro, Op. cit, pp. 39-40 .

Ibid, p. 44 .

Loc . cit.

وهكذا استطاعت تلك السفينة أن ترحل بسلام إلى البوسفور ، ومنها إلى بحر مرمرة، لكنها لم تصادف الأسطول البندقي الذي لم يحضر إلا بعد سقوط القسطنطينية.

دفع السلطان الفاتح بقواته البرية لاقتحام القسطنطينية بعد مرور أسبوع من شهر مايو، لكن المدافعين البيزنطيين عن الأسوار تمكنوا من صد الهجوم التركي، الذي أسفر عن اضرام النيران في بوابة القصر الامبراطوري (قصر بلاخرناى Blachernai) ، فضلاً عن تعرض أجزاء من الأسوار للتهرم، وهو ما جعل البيزنطيين والايطاليون (البنادقة - الجنوبيه) لتوجيه جهودهم نحو اخماد النيران المشتعلة ببوابة القصر، واعادة ترميم الأسوار التي تأثرت جراء القذائف العثمانية .

وتمكن البيزنطيون أيضاً من صد هجوم عثماني برى جديد بعد ذلك بخمسة أيام^(١)، وأوعز هذا الفشل العثماني الجديد إلى السلطان محمد الفاتح بنقل مجموعة من المدافع إلى مواجهة بوابة القديس رومانوس ، حيث أمطرتها بالقذائف ، وهو ما دعى الامبراطور البيزنطى إلى اصدار أوامره بضرورة الدفاع عن تلك البوابة بواسطة ثلاثمائة جندي أجنبي (ايطالى غالباً) ، لدرجة أنه لم يكن بينهم جندي بيزنطى واحد^(٢).

أدرك سكان القسطنطينية حرج موقفهم ، وشعروا بدنو يوم سقوط مدينتهم فى قبضة الأتراك بعد تقاعس البابوية والغرب الأوربي عن مد يد العون والمساعدة للمدينة البائسة . وكذلك بسبب محدودية عدد قواتهم بالمقارنة مع القوات العثمانية التي بدت مصممة أكثر من أى وقت مضى على اقتحام ودخول القسطنطينية.

وانتشرت - نتيجة لكل ذلك- لدى سكان المدينة الرؤى والأساطير القديمة التي تحدثت عن تعرض القسطنطينية للسقوط فى يد عدو قوى ، وأن نهاية المدينة سوف تكون على عهد امبراطور يدعى قسطنطين. كما راجت الرؤى الاسطورية القائلة بهبوط ملاك من السماء شاهراً سيفه ، ليقوم بتسليمه إلى أحد البيزنطيين البسطاء ، من أجل تحرير المدينة ، وطرد الأتراك العثمانيين^(٣).

Barbaro , Op. cit, p. 46 .

-١-

Ibid, p. 50 .

-٢-

٣- عن النبوءات والرؤى الاسطورية حول سقوط القسطنطينية انظر. - Doukas , Op cit, p. 226 , Le- onard of Chios , Op. cit, p. 15 ; Barbaro , Op. cit, pp. 56 , 61 .

على أية حال ، فإن الصمود البيزنطى دفع الاتراك العثمانيين لمضاعفة جهودهم العسكرية، عبر استخدام طرق وأساليب جديدة لمحاولة اقتحام القسطنطينية، من ذلك حفرهم للعديد من الانفاق^(١) تحت أسوار المدينة، بغية التسلل خلسة، ومفاجأة القوات البيزنطية ، ومن ثم اعتلاء الأسوار من الداخل .

وعلى الرغم من تكرار استخدام العثمانيين لأسلوب حفر الانفاق ، فإن اليقظة البيزنطية حالت دون نجاح الجنود العثمانيين فى التسلل إلى داخل المدينة وكثيراً ما قام البيزنطيون ، بمفاجأة الاتراك العاملين فى حفر الانفاق ، وقاموا بإشعال النيران من الجهة المقابلة ، مما أدى فى كثير من الأحيان إلى تعرض العديد من المهاجمين العثمانيين للحرق والاختناق .

وعندما اكتملت استعدادات القوات العثمانية طبقاً للخطة الموضوعة ، أرسل محمد الفاتح رسالة للامبراطور قسطنطين الحادى عشر^(٢) يخبره فيها باكمال استعدادات الهجوم النهائى ضد القسطنطينية . ويحثه فيها على تسليم المدينة، والرحيل فى سلام إلى أية جهة يرغبها، برفقة أهل بيته وحاشيته . مع وعد من السلطان الفاتح بعدم التعرض لسكان القسطنطينية بسوء.

ولم ينس السلطان العثمانى أن يذكر الامبراطور البيزنطى، بأن رفضه تسليم المدينة واختياره طريق المقاومة ، هو بمثابة استباحة لدمه، وممتلكاته، فضلاً عن تعرض كافة سكان القسطنطينية للسبى، وتشتتهم عبر الأراضى العثمانية^(٣).

جاء رد قسطنطين الحادى عشر مخيباً لآمال محمد الفاتح، إذ عرض عليه أن يتراجع عن نيبته فى اقتحام القسطنطينية، مذكراً إياه بالعلاقات الطيبة التى جمعت الابطار البيزنطيين السابقين بالسلطين العثمانيين عن أسوار القسطنطينية . ورفض الامبراطور البيزنطى رفضاً قاطعاً تسليم المدينة ، وجاءت كلماته التى أرسلها إلى السلطان الفاتح - بعد أن عقد اجتماعاً مع مجلس السناتو البيزنطى- على النحو التالى :

١- Tursun Bey , Op cit, pp. 47-51 ' Doukas, Op. cit, p. 221, 223 ; Barbaro , Op. cit, p. 50, 51 , 55 , 57 , 58 .

٢- Doukas, Op. cit, p. 220 .

٣- Loc. cit .

«... أما عن امكانية تسليم القسطنطينية اليك ، فهذا مالا أستطيعه ، ولايستطيع أى شخص آخر أن يقوم به ، وبالأحرى عليك القضاء على حياتنا جميعاً، إنه قرارنا بالاجماع ، المقاومة ... والموت عن طيب خاطر»^(١).

عندما وصل رد الامبراطور البيزنطى إلى محمد الفاتح ، شعر الأخير باليأس من استسلام المدينة دون قتال. فأصدر تعليماته للمنادين فى جيشه، بإبلاغ كافة الجنود بأن ساعة اقتحام القسطنطينية قد حانت ، وأقسم أنه ليس من شئ أحب إليه من سقوط أسوار القسطنطينية . وأعلن الفاتح لجنوده استباحة ثرواتها وسكانها ... «كل هذا سوف يكون من نصيبكم»^(٢). وعندها انطلقت من حناجر جنوده صيحات الموافقة والاستحسان .

اتخذ السلطان محمد الفاتح قراره بسرعة اقتحام القسطنطينية ، بعد قراءة الظروف المحيطة به ، فالامبراطور يرفض المرة تلو المرة أن يقوم بتسليم المدينة، وفى نفس الوقت فإن المساعدة الأوربية التى توقع السلطان العثمانى أن تصل إلى القسطنطينية، ربما كانت فى طريقها بالفعل فى الوصول إلى المدينة.

وخوفاً من انقلاب موازين القوى العسكرية بين الطرفين نتيجة ما سوف يقدمه ذلك الاسطول الأوربى المنتظر من مساعدة للبيزنطيين. قرر محمد الفاتح ضرورة الاسراع فى عملية اقتحام القسطنطينية. وعقد مجلساً حربياً شرح فيه لقادة جيشه حالة الضعف التى تمر بها الدفاعات البيزنطية ، وذكرهم بالمجد الذى ينتظرهم عندما يفتحون القسطنطينية. ولم ينس أن يذكرهم بأنه سوف يكون فى مقدمة موجات الهجوم الكبير^(٣).

وقرر السلطان الفاتح أن يكون هجومه النهائى على القسطنطينية ليلة التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م. كما قرر أن يترك المدينة – بعد فتحها – تحت رحمة جنوده لمدة ثلاثة أيام. وبالنسبة إليه فإنه سوف يكتفى فقط بالحصول على المدينة ومبانيها^(٤).

١- Doukas , Op. cit, p. 220 .

٢- Loc. cit .

٣- Kritovouls, Op. cit, pp. 61-64 .

٤- Doukas , Op. cit, p. 220 .

تفقد الامبراطور البيزنطى آخر الاستعدادات البيزنطية والايطالية للدفاع عن القسطنطينية، كما أصدر تعليماته لكافة سكان المدينة بحمل الأيقونات والذخائر المقدسة والقيام بمسيرة كبرى فى شوارع القسطنطينية، تبتهل إلى الرب، وتطالبه بانتقاذ مدينتهم بدلاً من الوقوع فى براثن العثمانيين.

وقام الامبراطور بعقد اجتماع شامل ضم البيزنطيين والايطاليين، حثهم فيه على ضرورة الدفاع عن عاصمة المسيحية الارثوذكسية حتى الرمق الأخير، قبل أن يتوجه فى النهاية تحيط به حاشية نحو الكنيسة العظمى، أيا صوفيا ، حيث حضر القداس النهائى ، وخرج بعد ذلك إلى الأسوار لتفقد الدفاعات البيزنطية بها، ويعد أن اطمأن إلى وضعها ، غادر إلى مكان مركزه مع حاشيته وياروناته ، عند بوابة القديس رومانوس .

وبالفعل، شن العثمانيون هجومهم النهائى على القسطنطينية فجر التاسع والعشرين^(١) من مايو، مستخدمين كافة أساليب القتال اللازمة ، فقد أمطرت مدافعهم أسوار المدينة وبواباتها بالآلاف القذائف . وكذا فعلت السفن العثمانية التى هاجمت الأسوار البحرية على القرن الذهبى.

وهاجم المشاة العثمانيون المؤلفين من صفوة جنود الانكشارية والعزبان أسوار القسطنطينية عبر استخدامهم لمئات السلاالم التى صنعت من الحبال والأخشاب ، والذين تمكنوا - فى النهاية- من الصعود إلى أعلى الأسوار ومهاجمة القوات البيزنطية المدافعة . ونجح العديد من رجال الانكشارية والعزبان^(٢) - الذين شهدت لهم المصادر البيزنطية واللاتينية بالبراعة والشجاعة الفائقة- فى اقتحام الأسوار. والنفاز إلى شوارع القسطنطينية حيث قاموا بفتح بواباتها أمام باقى الجنود العثمانيين .

وعلى الصعيد البيزنطى. فوجئ الامبراطور وقواته بالموجات المتوالية للهجمات العثمانية التى لم تتوقف . فضلاً عن الدور الهائل الذى قامت به المدافع العثمانية ، مما جعل القوات البيزنطية فى موقف لا تحسد عليه .

Barbaro , Op. cit., p. 62 ; Doukas, Op. cit, pp. 224-225 .

-١-

Barbaro , Op. cit , p. 62 .

-٢-

على أن الأمر الذى زاد أحوال المدافعين عن القسطنطينية سوءاً ، كان إصابة القائد الجنوى جيوفانى جستينيانى بجرح خطير تحت ذراعه ^(١)، وهو ما أدى إلى انسحاب المسئول العسكرى الأول عن الدفاع عن المدينة ، إلى سفينته بحثاً عن العلاج. وجاء خبر انسحاب جستينيان ليوهن من عزيمة البيزنطيين ، لتضيق الدائرة عليهم، ويدركوا أن سقوط القسطنطينية تحت سنايك خيل العثمانيين، ما هى إلا مسألة وقت.

وتصدى الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر لمحاولات العثمانيين اقتحام بوابة القديس رومانوس . لكن عنف هجمات العثمانيين دفع بالجنود البيزنطيين نحو الداخل ، حيث الامبراطور ، الذى سقط صريعاً تحت ضغط الجنود ^(٢)، وتحت الضربات المتلاحقة لجنود الانكشارية العثمانيين .

وهكذا نجح العثمانيون بقيادة السلطان محمد الفاتح فى فتح القسطنطينية يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأول ٨٥٧هـ - ٢٩ مايو ١٤٥٣م. وقام الفاتح بدخول المدينة يوم فتحها ظهراً ، تحيط به قوات الانكشارية ، وتقدم نحو كنيسة، أيا صوفيا ، مبدئاً اعجابه بعمارتها ، وقام باستدعاء أحد الشيوخ الأتراك لاقامة الصلاة الأولى فى مسجد أيا صوفيا الجديد ^(٣).

١- Barbaro, Op. cit, p.65 , p. 65 ; Doukas , Op. cit, pp. 211-212 , 217-219 , Kritovoulos -
 , Op. cit, pp. 69-70 , Sphrantzes, Op. cit, pp. 103 .

٢- Doukas , Op. cit, p. 104 , Kritovoulos, Op. cit, p. 71 , Sphrantzes , Op. cit, p. 70 .

وانظر أيضاً المصادر العثمانية التى تحدثت عن مقتل الامبراطور قسطنطين الحادى عشر :

Asik Pasa , Op. cit, p. 138 ; Tursun Bey , Op. cit , p. 59

Asik Pasa, Op. cit, p. 138 .

-٣-

ويذكر أحد الباحثين الأتراك المحدثين أن السلطان محمد الفاتح والعثمانيين الفاتحين قاموا بإدخال صلاة الجمعة الأولى فى مسجد أيا صوفيا الجديد ، يوم أول يونيه ١٤٥٣م. حيث تلا الخطبة وأتم الصلاة الشيخ، أق شمس الدين انظر: يلماز أورتونا، تاريخ الدولة العثمانية ج١، ترجمة عدنان سلمان، مراجعة محمود الأنصارى، استانبول ، ١٩٨٨م، ص١٤١

وذكر المؤرخ العثمانى المعاصر لفتح القسطنطينية، طورسون بك، أنه يصدق على كنيسة أيا صوفيا قوله تعالى «لم يخلق مثلها فى البلاد» الفجر آية ٨ - وأن بعض جدرانها قد تهدمت . فقام السلطان الفاتح بتعميرها، عدا القبة الأساسية لاحتياجها إلى توسيع، حيث قام أحد المهندسين المهرة بذلك بواسطة قناطر فريده وأنصاف قباب ... وصارت بذلك تتسع لخمسین ألفاً ، انظر:

Tarih- i Ebül- Feth , pp. 63-64 .

ولدينا مصدر بيزنطى معاصر لفتح القسطنطينية ، يذكر دخول الفاتح إلى الكنيسة العظمى، فلم يستطع المؤرخ البيزنطى بوكاس Doukas^(١) أن يمنع نفسه من الحسره على سقوط مدينته البائسة .

«... واحسرتاه ! ويا للكارثة! ، إن ما يحدث لهو أمر رهيب ومريع ، وأسفاه ، ماذا حدث لنا؟ أواه ! ماذا نشاهد الآن؟ التركى (الكافر) يقف على المنبح المقدس الذى يحتوى على الذخائر المقدسة للرسل والحواريين والشهداء . إنه لشئ مريع . أيتها الشمس ، أين نور الرب .. لم يعد هناك أى اعتبار لمقامنا وديانتنا بين الأمم .. إن الكنيسة التى دعيت باسم كنيسة الثالوث المقدس ، والكنيسة العظمى ، وصهيون الجديدة ، قد أصبحت الآن مذبحة للبرابرة . وتغير اسمها وطبيعتها لتصبح منزلا لحمد !! يا إلهى لا نريد منك سوى أن تشملنا بعدلك ورحمتك أيها الرب».

وعندما أدرك الجنويه سكان غلطة أن المدينة قد سقطت ، حاولوا الهرب عبر الميناء برفقة زوجاتهم وأطفالهم ، لكن العثمانيين قاموا باقتحام غلطة بقيادة زاجانوس باشا، الذى قام بتهدئة نفوس التجار الجنويه، ووعدهم بالحفاظ على امتيازاتهم التجارية، وبأن السلطان العثمانى سوف يوقع معهم معاهدة جديده ، ونتيجة لذلك قام البودستا الجندى جيوفانى لوميلينو Giovanni Lomellino بتسليم مفاتيح مدينة غلطة لحمد الفاتح .

على أية حال نجح العثمانيون فى دخول القسطنطينية ١٤٥٣م، وجعلوا منها مقراً لعاصمتهم الجديدة ، بعد أن قاموا بمحوا آخر صفحات الامبراطورية البيزنطية من الوجود . والكتاب الذى بين أن أيدينا الآن^(٢) يحتفظ بأهمية تاريخية بالغة بالنسبة لذلك الحدث الفذ، فتح العثمانيين للقسطنطينية، ويزكى ذلك أن مؤلفه كان معاصراً لتلك الأحداث ، وتفرغ لكتابة

١- " Decline and Fall of Byzantium" , p. 231 .

٢- Ibid , p. 230 .

٣- صدر لهذا الكتاب ترجمتان باللغة الايطالية الحديثة ، انظر:

1- Nicolo Barbaro , Giornale dell ' assedio di Constantinopoli 1453 , ed . E . Cornet , Vienna, 1856 .

2- Fondazione Lorenza Valla. Le testimonianze dei Contemporanei, in Pertusi, A. La Caduta Constantinopoli, Verona, 1976 .

كما صدرت له أيضاً ترجمه إلى اللغة التركيه الحديثه . انظر:

Kostantiniyye Muhasarasi Ruznames , 1453 Mutercimi . S. Talip Diler. Istanbul, 1976 .

وقائعها على شكل يوميات، ولم يغفل حدثاً كبيراً أو صغيراً علم به إلا وقام بتدوينه فى يومياته.

مؤلف هذا الكتاب هو الطبيب والجراح البندقى نيقولو باربارو ، الذى كان يعمل على احدى سفن أسطول البندقية . ولد فى العام ١٤٠٠م ، وكان شاهد عيان على الفتح العثمانى للقسطنطينية، إذ كانت سفينته تشارك فى أعمال الدفاع عن المدينة، حيث قام بتدوين أحداث الفتح أولاً بأول^(١).

قام باربارو بتدوين كافة الأحداث العسكرية بين الجانبين العثمانى والبيزنطى منذ الثانى من مارس ١٤٥٢م حتى التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م. ونجحت سفينته فى الفرار بعد سقوط القسطنطينية ، وعادت إلى البندقية، حيث أعاد صياغة ما قام بكتابته بلهجة مدينة البندقية.

وغنى عن القول أن السفن الايطالية فى العصور الوسطى كانت تحمل على متنها، طبيباً وجراحاً ، للقيام بمداواة البحارة والتجار خلال الرحلات البحرية التجارية وكذلك الحال بالنسبة للسفن الحربية، فقد اقتضت ظروف السفر والقتال البحرى، أن يكون هناك طبيب واحد على الأقل على متن السفينة من أجل تطبيب ومداواة البحارة والمسافرين^(٢) ، والجنود.

١- احتفظ نيقولو باربارو بيومياته ، حتى عاد إلى مدينته الأم، البندقية، فى شهر يوليو ١٤٥٣م، ليعيد كتابتها وصياغتها من جديد. انظر:

Nicol, " Byzantium and Venice , " p. 396 .

وانظر أيضاً :

O. D.B , vol , I, Oxford, 1991 , p. 253 .

٢- كان قانون رودس البحرى Nomos Rhodian أهم القوانين البحرية التجارية فى البحر المتوسط منذ القرن السابع الميلادى، وكان ينص فى مادتيه رقم ٧،٥ على ضرورة وجود الطبيب على متن السفن التى تقوم بالابحار فى البحر المتوسط عن ذلك انظر:

Ashburner , W, (ed.), The Rhodian Sea Law , Oxford , 1909, pp. 83 , 85 .

وتذكر المادة الخامسة أنه «إذا ما نشبت مشاجرة بين البحارة ، دعهم (الربان) يتبادلون السباب، ولا تدع أحدهم يقوم بالاعتداء على الآخر. وإذا ما قام A بضرب B على رأسه فأصابها ، أو جرحه فى موضع من جسده بأية طريقة ، فيجب على A أن يقوم بدفع أجرة الطبيب الذى سيقوم بمداواة B وكذلك دفع كافة النفقات...».

=

ونظراً لانتشار الجامعات في إيطاليا في العصور الوسطى، وأهمها جامعة بولونيا لدراسة القانون، وجامعة سالرنو لدراسة الطب^(١)، فلا بد أن مؤلفنا كان خريج مدرسة الطب بجامعة سالرنو. التي تأسست منذ أواسط القرن الحادى عشر الميلادى. أو ربما كان خريج إحدى كليات الطب الحديثة التي انتشرت بعد ذلك في إيطاليا في العصور الوسطى.

وعلى أية حال ، فيبدو أن سفينة نيقولو باربارو التي لم يحدثنا المؤلف عن نوعها ، وعن طبيعتها وما إذا كانت سفينة تجارية أو حربية، قد وصلت إلى القسطنطينية في شهر سبتمبر ١٤٥٢م.

وعلى الرغم من ذكر المؤلف لتواريخ سابقة على هذا التاريخ ، كبداية استعداد العثمانيين للهجوم على القسطنطينية منذ يناير ١٤٥٢م، ووصول سفينة من كريت لتقديم الامدادات للمدينة في فبراير من نفس العام، ثم ذكره لبداية تشييد العثمانيين للروملى حصار (قلعة الروم- قاطعة الرقبة) في مارس ١٤٥٢م وانتهائهم منها في أغسطس من نفس العام، فإننا نعتقد أن باربارو قد استقى تلك المعلومات من مصادر أخرى أو من شهود عيان ، لأننا نراه بعد ذلك، وبالتحديد منذ يوم السادس من سبتمبر ١٤٥٢م يقوم بتوثيق الأحداث التي جرت بذكر تاريخ اليوم الذى حدث فيه . كذكره لما جرى في السادس من سبتمبر ، العاشر من نوفمبر ، السادس والعشرين من نوفمبر، ثم الثانى من ديسمبر ، ... وهكذا .

ويرجح ما نذهب إليه من أن سفينته لم تصل إلى القسطنطينية إلا في أوائل سبتمبر ١٤٥٢م من أن الفترة ما بين شهر يناير السابق إلى شهر سبتمبر ، لم يذكر فيها باربارو إلا عدداً من الأحداث البسيطة التي لا تتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة ، في حين أنه ذكر فيما

= بينما تذكر المادة السابعة أنه «إذا قام أحد الرابنة أو التجار أو البحارة بضرب الآخر بقبضته ، وتسبب في إصابته بالعمى، أو قام بركله وتسبب في إصابته ، فإن المعتدى يجب أن يقوم بدفع أجرة الطبيب »

١- هاسكنز ، نشأة الجامعات في العصور الوسطى. ترجمة جوزيف نسيم يوسف، الاسكندرية ، ١٩٨٤م، ص ٢٤٥

وعن مدرسة الطب في سالرنو ، انظر:

Kristeller , p. o , " The School of Salerno . its development and its Contribution to The History of Learning " in , B. H. M, XVII, 1945, pp. 138-194 .

بعد جميع الأحداث التالية بالتفصيل الشديد، فذكر اليوم الذى جرت فيه، كما ذكر الوقت الذى جرى فيه الحدث، وربما ذكر أيضاً الساعة التى شهدت هذا الحدث.

وبشكل عام قام نيقولو باربارو بالتركيز فى يومياته على الأحداث العسكرية التى جرت منذ شهر ديسمبر ١٤٥٢م . وربما كان ذلك بسبب تسارع وتيرة المناوشات والاحتكاكات العسكرية بين العثمانيين والبيزنطيين، وبداية محاولات الاتحاد الكنسى التى جرت داخل كنائس القسطنطينية ، والمحاولات المستميتة لتوحيد الجبهة الداخلية لصد الخطر التركى.

ولم نعثر على أية كتابات أخرى لمؤلفنا اليوم نيقولو باربارو ، باستثناء تلك اليوميات التى بين أيدينا الآن. والتى - وبطبيعة الحال- قام فيها بالتركيز على العمليات العسكرية البحرية والبرية بين الطرفين، مع التركيز على الدور الذى قامت به السفن البندقية . كما لم نعثر على أية كتابات عن باربارو المؤرخ والطبيب.

ويجئ تركيز باربارو على ما قامت به سفن البندقية لعدة أسباب، أهمها أنه كان على متن إحدى تلك السفن ، الأمر الذى مكّنه من رصد كافة الأحداث البحرية بشكل كامل.

ومن الغريب أن تلك السفن التجارية الخاصة بالبندقية ، كان على متنها العديد من الكتبة، وموثقى العقود التجارية. ولم يترك لنا أحداً منهم وصفاً كاملاً للحصار العثمانى للقسطنطينية، والوصف الوحيد الذى وصلنا من البحريه البندقية، قام به طبيب وجراح من المفترض أن له مهمة أخرى.

ويمكننا أن نلاحظ ، من خلال تحليلنا ليوميات باربارو ، أنه لم يكن مؤرخاً محترفاً ، كالمؤرخين البيزنطيين المعاصرين لنفس الحدث، والذين قاموا أيضاً بوصف حصار واقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، كما يمكننا أن نلاحظ أيضاً أن المؤلف ربما قام بهذا العمل لنفسه، لأنه لم يتوافر لنا أية معلومات تفيد بأنه كان ينوى تقديم يومياته فى صورة تقرير للبحرية البندقية ، أو إلى الدوج والسناتو فى مدينة البندقية.

ولم يقم باربارو بالتوقف كثيراً أمام الأحداث لتحليلها، أو لتفسيرها تفسيراً موضوعياً ، بل كان يقوم برصد ووصف الأحداث التى جرت كما شاهدها ، وسمعها بنفسه .

كما اهتم باربارو كثيراً بتفاصيلات الحدث الذى يقوم بتدوينه فى يومياته، كحجم الاضرار التى أصابت أسوار القسطنطينية نتيجة قذائف المدافع العثمانية . كما اهتم بأعداد القتلى من الجانبين ، مع مبالغة واضحة فيما يتعلق بأعداد القتلى من الأتراك.

قام المؤلف بإيراد اسمه ومهنته كطبيب في مناسبة واحدة فقط في طيات يومياته^(١) - بصرف النظر عن ذكره لاسمه في قوائم البنادقة الموجودين بالقسطنطينية، ثم الهاربين منها على متن إحدى سفن البندقية- وهي الإشارة الوحيدة للتعريف بنيقولو باربارو ، إذ لم تحدثنا باقى المصادر البيزنطية واللاتينية والعثمانية المعاصرة لهذا الحدث عن شخص باربارو ، ولا عن مهنته ، ولا عن المصدر التاريخي الهام الذى قام بكتابته .

على أن الأمر المثير للانتباه حقيقة ، هو أنه على الرغم من كون مهنة باربارو هي الطب والجراحة ، فإنه لم يتطرق في يومياته إلى أية أحداث أو معلومات تقترب من تخصصه الدقيق . فلم يذكر طوال يومياته التى استمرت لفترة تسعة أشهر تقريباً تعرض البحارة البنادقة أو المدافعين البيزنطيين عن القسطنطينية لأية أمراض، أو أنواع الاصابات التى تعرضوا لها ابان الهجمات العثمانية المتوالية ، كما لم يذكر أنه قام بنفسه - طوال فترة وجوده بالقسطنطينية- بمعالجة أحد البحارة أو الجنود البيزنطيين والبنادقة.

ولا يوجد فى كتاب باربارو ما يدل على أنه مارس مهنته سواء على متن سفينته، أو على ساحل القسطنطينية ، غير أنه ذكر- ومعه بعض المصادر التاريخية المعاصرة - اصابة القائد العسكرى الجنوى، جيوفانى جستنيانى، اصابة خطيرة تحت ذراعه، دفعته للتخلى عن موقعه ، والانسحاب باتجاه سفينته من أجل الحصول على علاج سريع ، أو اجراء جراحة عاجلة، لابد أنها حدثت بواسطة الطبيب والجراح الجنوى الموجود على متن السفينة.

كان نيقولو باربارو يدرك جيداً حجم الخطر العثمانى. وكان يدرك أيضاً مغزى سقوط القسطنطينية فى يد السلطان محمد الفاتح ، ولهذا فقد امتلأ كتابه بالكثير من عبارات السخط والكلمات الحانقه على الأتراك ، كما سوف يتضح من قراءة الكتاب.

وعكس باربارو فى كتابه خوف الأوربيين من الخطر العثمانى المتصاعد فى مقابل الضعف البيزنطى المتزايد، وتجلى ذلك فى حديثه عن السلطان العثمانى محمد الفاتح، الذى كنّ له باربارو، وللعثمانيين، كراهية عميقة .

وعلى الرغم من كره المؤلف لشخص السلطان الفاتح ، ووصفه له بعبارات من قبيل (الوثئى . الكافر - الكلب...) فإنه لم يقارن بينه وبين الشخصيات التاريخية السابقة، فلم يقم بتشبيهه على سبيل المثال بنبوخذ نصر كمل فعل المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس.

ويمكننا أن نقوم بتفسير ذلك على ضوء أن باربارو لم يكن مؤرخاً محترفاً ، قارئاً للتاريخ القديم للمنطقة، وعارفاً بالعلاقة بين اليهودية القديمة وخصومها ، كما يمكن تفسير ذلك بسبب الخلفية الثقافية المختلفة بين الطبيب البندقي باربارو، والمؤرخ البيزنطي المحترف بوكاس. فعلى حين كان الأخير يعي جيداً ما يقوم بكتابته ، ويقوم بتحليل وربط الأحداث ، وارجاع بعضها للتاريخ القديم عبر اتباع المنهج الاستردادي، كتشبيهه لمحمد الفاتح، الذي قام بسبي المسيحيين البيزنطيين، بنبوخذ نصر والسبي البابلي لليهود ٥٨٦ ق.م .

ولم يحدث باربارو - نتيجة ثقافته المتواضعة - مشابهة تاريخية بين سقوط أورشليم في أيدي البابليين ، وسقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين، وهو الشيء الذي تنبه له المؤرخ بوكاس.

ويؤكد ما سبق أن نيقولو باربارو لم يكن سوى مؤرخ هاوٍ، ومجرد مسجل ليوميات سقوط مدينة القسطنطينية.

كما تبدو في كتاب باربارو بعض الأفكار الخاطئة عن الإسلام، مثل ذكره عن توجه المسلمين بالصلاة تجاه سيدنا محمد- صلعم- ، وغير ذلك مما يشي بضعف ثقافته خارج نطاق الدين المسيحي.

ويبدو في الكتاب اعجاب نيقولو باربارو بشخص الامبراطور البيزنطي قسطنطين الحادي عشر. على أنه من الغريب أنه لم يتحدث كثيراً عن كبار القادة البيزنطيين معاونين للإمبراطور، كالقائد العسكري الأعلى (لوكاس نوتاراس) الذي لم يأت ذكره سوى مرتين فقط في الكتاب^(١). فضلاً عن أنه لم يتحدث عن الخلاف الذي وقع بينه وبين القائد الجنوي جستنياني حول كيفية الدفاع عن أسوار القسطنطينية. ذلك الخلاف الذي تحدثت عنه بعض المصادر الأخرى. غير أن باربارو لاحظ مساهمة الرهبان البيزنطيين في أعمال المراقبة والحراسة على مقربة من الأسوار البحرية للقسطنطينية.

ونتيجة لحالة التوجس والعداء التي اكتنفت العلاقة بين البندقية وجنوا، فقد توجس باربارو -البنادقة- شراً من جانب الجنوية في مستعمرة غلطة التجارية في مواجهة القسطنطينية.

وكال باربارو الاتهامات لجنوية غلظه بالوقوف إلى جانب العثمانيين والتحالف مع محمد الفاتح . ولم تأت مناسبة في الكتاب إلا وأشار فيها إلى خيانة الجنوية، وأهم تلك الاشارات تتعلق بإطلاعهم السلطان محمد الفاتح على الموعد الذي حددته السفن البندقية لمحاولة احراق السفن العثمانية بالقرن الذهبي^(١).

كما قام باربارو بتحميل الجنوية لجميع الخسائر التي تعرضت لها السفن البندقية ، وخاصة غرق وموت العديد من البحارة والجنود، وكثيراً ما وصف الجنوية بعبارات حادة مثل: الكفار، .. أعداء الدين المسيحي^(٢).

وعلى الرغم من الدور الكبير الذي قام به القائد العسكري الجنوى جستنياني في قيادة عمليات الدفاع عن أسوار القسطنطينية ، وهو الدور الذي شهدت به باقى المصادر البيزنطية واللاتينية المعاصره ، فإن نيقولو باربارو يبخل الرجل حقه ، إذ لم يذكره فى يومياته سوى فى عدة سطور، فضلاً عن قيامه بتحميله المسئولية المباشرة عن سقوط القسطنطينية بعد أن اتهمه بالهرب من ميدان المعركة وهو يصيح «لقد اقتحم الاتراك المدينة بالفعل»^(٣).

وهو الأمر الذى تكذبه باقى المصادر، إذ تذكر أن جستنياني توجه إلى سفبنته للعلاج من إصابة مميتة، فاضطر لمغادرة موقعه بعد أن قام بشد أزر الامبراطور والمدافعين عن المدينة، على وعد بالعودة بعد تلقيه العلاج على متن سفبنته .

كما قام باربارو بتوجيه اتهامه إلى بودستا Podesta الجنويه فى غلظه ، بالتحالف مع السلطان الفاتح ابان سقوط القسطنطينية ، كما اتهمه بمحاولة احتجاز باقى السفن البندقية، بما فيها سفينة باربارو نفسه، من أجل تسليمها للسلطان العثماني ، لكن باربارو ورفاقه تمكنوا من الهرب من القرن الذهبي بعد كسر السلسلة ، والابحار فى البوسفور بمساعدة الرياح الشمالية^(٤).

Barbaro , Op. cit , p. 39

-١

Loc. cit .

-٢

Barbaro , Op. cit, p. 65 .

-٣

Ibid , p. 68 .

-٤

ونتيجة طبيعية لكون مؤلفنا بندقياً ، جاء تركيز باربارو في يومياته على ما قامت به البندقية، والبنادقة من محاولات لانقاذ القسطنطينية من السقوط ، بداية بما قرره الدوج والسناطو البندقى من ضرورة توجيه أسطول لمساعدة المدينة، وهو الأسطول الذى لم يصل إلى مشارف المدينة إلا بعد سقوطها في أيدي العثمانيين .

وامتدح باربارو الدفاع المجيد الذى أبداه البنادقة عن المدينة، وخصّ بالذكر محاولة الريان البندقى جاكومو كوكو اضرام النيران بالسفن العثمانية^(١)، وكذلك استبسال البحارة والجنود البنادقة فى الدفاع عن القسطنطينية حتى النهاية.

ويتميز المصدر التاريخى الذى بين أيدينا بأنه الوحيد- دون باقى المصادر البيزنطية واللاتينية والعثمانية المعاصرة- الذى أورد قوائم بأسماء جميع المحاربين البنادقة الذين اشتركوا فى عمليات الدفاع عن القسطنطينية ، وشاركوا بصورة فعلية فى المعارك البحرية والبرية التى واكبت اقتحام الجنود العثمانيين للمدينة . فقد قام باربارو بذكر أسماء كافة النبلاء البنادقة الذين شاركوا فى القتال، والذين قتلوا منهم، والذين تم أسرهم (وافتيادهم فيما بعد) ، فضلاً عن أسماء الذين فروا من المدينة لحظة سقوطها على أيدي العثمانيين^(٢).

وإذا كان من الطبيعى أن يقوم نيقولو باربارو البندقى بذكر جميع أسماء البنادقة الموجودين بالقسطنطينية، والدور الذى قام به كل منهم ابان الحصار العثمانى واقتحام المدينة، فإن ذلك يعد اضافة هامة لباقي المصادر التاريخية المعاصرة، والتى تطرقت بشكل عادى لما قام به البنادقة ، لكنها لم تتحدث بالتفصيل عن الدور البندقى، ناهيك عن ذكر أسماء الجنود البنادقة . وهو الأمر الذى جعل كافة المراجع التاريخية الأوربية بعد ذلك تعتمد اعتماداً كبيراً على ما كتبه باربارو في يومياته بهذا الخصوص .

ويلاحظ على مؤلفنا نيقولو باربارو ولعه الشديد بذكر التفاصيل، من ذلك ذكره للمعارك البحرية بين السفن البندقية والبيزنطية والعثمانية بشكل دقيق يتفوق على باقى المصادر. ويرجع ذلك بالطبع لأنه كان مشتركاً بها على متن سفينته.

Barabro , Op. cit, pp 41-42 .

-١-

Ibid, pp. 70-76 .

-٢-

كذلك تظهر دقة باربارو وولعه بالتفاصيل في ذكره لأسماء كافة الذين حضروا الاجتماع الذي تم في كنيسة القديس مرقس من أجل استبقاء ربابنة وبحارة السفن التجارية البندقية^(١)، ومنعهم من الرحيل من أجل مساهمتهم في الدفاع عن القسطنطينية. كذلك ذكره لأسماء كافة المحاربين الذين لاقوا حتفهم ابان الغارة البحرية الفاشلة على السفن العثمانية بالقرن الذهبي، كما كان باربارو في غاية الدقة لدى حديثه عن السفن التي قام البيزنطيون بوضعها بطول سلسلة القرن الذهبي ، القسطنطينية حتى ييرا، من أجل منع السفن العثمانية من اقتحام السلسلة، إذ تحدث المؤلف عن تلك السفن وربابيتها، وكذلك عن حمولتها بالتفصيل^(٢).

ولا بد أن وجود باربارو الدائم على متن إحدى السفن العاملة في البحرية البندقية قد جعله شديد الملاحظة لأنواع السفن وحمولتها . ويظهر ذلك جلياً منذ الصفحات الأولى للكتاب ، إذ يفرق بين السفن حسب أنواعها : Fuste , Parandaria , bregantini , gripo, Galley

وعلى الرغم من أن البروفسير جونز Jones لم يقدّم بايضاح طبيعة وحمولة تلك السفن لدى قيامه بترجمة يوميات باربارو إلى اللغة الانجليزية. فقد حاولت أن أضع أمام القارئ العربي الحقيقة كاملة حول أنواع وطبيعة السفن التي قام البنادقة والعثمانيون باستعمالها حسب يوميات باربارو . وأرجو أن أكون قد وفقت في هذا . -

وتحدث نيقولو باربارو عن مسألة الاتحاد الكنسي بين الكنيسة الكاثوليكية في روما، وكنيسة القسطنطينية الارثوذكسية فذكر في كتابه الذي بين أيدينا مسألة الاجتماع الذي سُدث في كنيسة آيا صوفيا لاقرار وحدة الكنائس في الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢م^(٣). حيث وافق الامبراطور وكيار رجاله- مضطرين - على مسألة الاتحاد الكنسي .

ويتخذ على باربارو أنه مر مرور الكرام على ذلك الاجتماع ، فلم يستغرق من يومياته سوى بعض السطور الم معدودة. فلم يتحدث عن معارضة بطريرك كنيسة القسطنطينية الشديدة لهذا الأمر، ولم يذكر معارضة القائد العسكري الأعلى لوكاس نوتاراس لمسألة الاتحاد الكنسي،

Barbaro , Op. cit, p. 14 .

Ibid, pp. 29-30 .

Ibid, p. 12 .

ولم يورد فى يومياته تلك العبارة الشهيرة التى نقلتها بعض المصادر عن نوتاراس «أنتا نفضل أن نرى عمائم الأتراك فى شوارع القسطنطينية ، على أن نرى قلتسوات رجال الدين اللاتينى».

كما أن باربارو لم يتطرق للمعارضة الشعبية البيزنطية لمسألة الاتحاد الكنسى، واكتفى فى يومياته بذكر عبارة يتيمة تذكر أنه كان الكثير من العامة يكون وينوحون فى الشوارع المحيطة بكنيسة أيا صوفيا إبان حدوث الاجتماع الخاص بوحدة الكنائس^(١).

ولم يفسر لنا المؤلف أن ذلك البكاء والنواح كان بسبب معارضتهم الشديدة لاتحاد كنيستهم الارثوذكسية مع الكنيسة الكاثوليكية، فضلاً عن أنه كان بسبب محاولة البابوية والغرب الأوربي استغلال حرج موقفهم العسكرى أمام العثمانيين، وفرض الاتحاد الكنسى عليهم.

ويمكننا أن نأخذ على نيقولو باربارو عدم انتقاده لمدينته الأم، البندقية، وكذا للبابوية والغرب الأوربي ، لتقاعسهم عن تقديم المساعدة السريعة للامبراطور البيزنطى من أجل انقاذ مدينة القسطنطينية من السقوط فى قبضة الأتراك العثمانيين . فعلى حين إكتفى باربارو بذكر أن البندقية قد اتخذت قراراً بإرسال أسطول بحرى لتقديم المساعدة للقسطنطينية (ذلك الأسطول الذى لم يصل أبداً إبان الحصار) ، فإنه لم يشير إلى أية مساعدة فعلية قامت بتقديمها البابوية أو ملوك غرب أوروبا من أجل انقاذ المدينة.

كما يمكننا أن نلاحظ أنه فى الوقت الذى أشاد فيه باربارو بشجاعة مواطنيه البنادقة فى الدفاع عن القسطنطينية، فإنه لم يشد ببسالة القوات البيزنطية المدافعة عن المدينة، بل إنه وجه إليها الاتهام بانخفاض الروح المعنوية. ولاشك أنه بالغ كثيراً فى امتداح شجاعة النبلاء البنادقة ، وكذلك فى اتهامه للمدافعين البيزنطيين عن مدينتهم بعدم ابداء الشجاعة الواجبة فى مواجهة الهجمات المتوالية للأتراك العثمانية^(٢).

غير أن ذلك لاينزع عن باربارو صفة الموضوعية فى يومياته ، وعلى سبيل المثال فلم تمنعه كراهيته الشديدة للأتراك، وللسلطان محمد الفاتح، من أن يشيد بجنود الانكشارية العثمانيين، وأن يصفهم بأنهم كالأسود الضارية . ولايهابون الموت ، ويأنهم جنود محترفين ، وأبدى إعجابه

Barbaro , Op. cit, p. 12 .

-١

Ibid, p. 50 .

-٢

بما يقومون به فى ميدان القتال. لدرجة أنهم كانوا لا يسمحون للبيزنطيين بالحصول على جثث القتلى الأتراك، فكانوا يتقدمون بمواجهة الأسوار بشجاعة بالغة ، من أجل استرداد جثث قتلاهم دون خوف على أنفسهم من التعرض للموت، أو الإصابة البالغة على أيدي المدافعين عن أسوار القسطنطينية ، من الجنود البيزنطيين والإيطاليين^(١).

ويمكن القول أنه على الرغم من الاهتمام الشديد الذى أولاه باربارو لذكر الأحداث السياسية والعسكرية التى جرت فى ميادين القتال ، برأً وبحراً، فإنه لم يتطرق لذكر الأحوال الاقتصادية داخل مدينة القسطنطينية المحاصرة . وكيفية توفير المؤن والامدادات الغذائية وتوزيعها على السكان والمدافعين عن المدينة. ولابد أن القسطنطينية كانت تعاني آنذاك من قلة الإمدادات التموينية نتيجة الحصار البحرى والبرى الذى فرضه العثمانيون عليها .

وعلى الرغم من اهتمام باربارو بذكر الوقائع العسكرية بين العثمانيين والبيزنطيين، فإنه لم يعط القائد التركى زاجان باشا حقه من المدح والإطراء لدوره البارز فى فتح القسطنطينية كما أنه لم يتطرق لخيانة الوزير التركى خليل بك، وصداقته للبيزنطيين، وإيعازه الدائم للسلطان الفاتح بالتخلي عن محاولة اقتحام القسطنطينية.

وتبدو الخلفية الثقافية والتاريخية للمؤلف نيقولو باربارو ضحلة فيما يتعلق بالعلاقات العثمانية البيزنطية فى المرحلة السابقة على فتح القسطنطينية . فعلى الرغم من ذكره لوجود الأمير التركى أورخان بالقسطنطينية^(٢)، ودوره فى الدفاع عنها إلى جانب البيزنطيين ، فإنه لم يفسر لنا سبب وجود أورخان Orhan فى البلاط البيزنطى. وهو الأمر الذى قامت المصادر التاريخية الأخرى- التى قام بكتابتها مؤرخون محترفون - بتفسيره حسب تتبعها للخلافات داخل البلاط العثمانى ، ومن ثم لجوء أورخان للبيزنطيين ضد أبناء عمومته .

ولم يتعرض باربارو فى يومياته للأيام الأولى لوجود العثمانيين بالقسطنطينية بعد الفتح ، كما أنه لم يتحدث عن معاملة السلطان محمد الفاتح للسكان البيزنطيين، وفدائه للعديد من الأسرى الذين سقطوا فى أيدي جنوده الأتراك.

وكذا لم تتناول يوميات باربارو المعاملة الطيبة التى أبداهها السلطان الفاتح تجاه كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية ، وتعيينه للبطريرك جيناديوس Ginnadius على رأس البطريركية الأرثوذكسية بالمدينة.

Barbaro , Op. cit, pp. 32, 63 .

Ibid, p. 28 .

وفضلاً عن ذلك لم تفصح يوميات باربارو لنا عما حدث للقائد العسكرى الأعلى لوكاس نوتاراس بعد سقوط القسطنطينية ، ولا عن المعاملة الطيبة التى قام بها الفاتح تجاهه ، قبل أن يأمر بقتله فيما بعد .

والحقيقة أن عدم ورود تلك الأحداث فى يوميات باربارو لا يقلل من قيمتها التاريخية ، ويمكننا فهم ذلك إذا ما تذكرنا أن نيقولو باربارو قد غادر مدينة القسطنطينية يوم سقوطها ، على متن سفينته ، وهو ما يجعل م عدم استكمالها للأحداث التى جرت فى المدينة بعد الفتح ، أمراً يبدو منطقياً .

وعلى الرغم من هذا ، فإن المصدر التاريخى الذى بين أيدينا الآن، يعد أهم مصادر الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م، وأكثرها دقة ، إذ قام المؤلف بتدوينه على شكل يوميات ، لجمل الأحداث العسكرية التى وقعت بين الجانبين العثمانى والبيزنطى، التى شاهدها المؤلف بنفسه، أو سمع بها من زملائه - على البر- فى نفس يوم حدوثها .

وإذا ما قمنا بمحاولة- متواضعة- لمقارنة العمل الذى تركه باربارو حول فتح القسطنطينية بباقى المصادر التاريخية اللاتينية والبيزنطية والعثمانية، فسوف نجده يتفوق عليها جميعاً، خاصة فيما قام به من «تكتيف» لهذا الحدث الكبير.

فقد انصبّت يومياته على أحداث فتح القسطنطينية بشكل مباشر، ولم يخرج عن خيط الأحداث الذى أمسك به منذ البداية ، ولم يترك الحديث عن الوقائع العسكرية ليلتفت إلى وقائع أخرى، مما يقطع حبل أفكاره . وهو ما جعل باربارو لا يكتب كلمة واحدة فى يومياته خارج الموضوع الذى انتوى الكتابة فيه . وعلى الرغم من غرامه بالتفاصيل ، فإن إيرادها كان هاماً من الناحية التاريخية ، كما أنها لم تستغرقه تماماً . بل كان ينتقل منها إلى ذكر أحداث جديدة بتفاصيلها كلما أمكنه ذلك.

وهكذا فإن مقارنة مصدرنا التاريخى اليوم بالمصادر الأخرى المعاصرة لفتح العثمانيين للقسطنطينية تظهر تفوقه بشكل كبير . وعلى سبيل المثال فإن ما قام بكتابتة الفلورنسى جياكومو تيدالدى Giacomo Tedaldi^(١) من صفحات حول ذلك الحدث، لا يشفى غليل الباحث الجاد. فلم يتناول بالتفصيل ما حدث من مواجهات عسكرية فى البحر وعلى البر .

١- Giacomo Tedaldi , in, Jones (ed.) The Siege of Constantinople 1453 : Seven Contemporary Accounts , Amsterdam , 1972 , pp. 1-10 .

وعلى الرغم من أنه حاول إحصاء عدد السفن العثمانية والبيزنطية. فإنه لم يتطرق لما جرى داخل مدينة القسطنطينية سواء فيما يتعلق بإقرار وحدة الكنائس، أو باستعدادات المدافعين البيزنطيين عن الأسوار.

كما أن تيدالدي لم يتطرق لكيفية توزيع القوات البيزنطية والإيطالية، والأسلوب الذي تم اتباعه في الدفاع عن أسوار المدينة. ولا عن كيفية مهاجمة السفن العثمانية. فضلاً عن كونه كان مغرمًا بذكر سُمك أسوار القسطنطينية، وارتفاعها، وعمق القنوات الموجودة أمامها، وعرضها كما أنه تعرض لذكر وجود جيوفاني جستنياني الجنوبي، وإبراز شجاعته، كما عرض في النهاية لاستسلام أهالي المستعمرة الجنوبية في غلطة للسلطان محمد الفاتح.

والحقيقة أن يوميات نيقولو باربارو التي جاءت في عشرات الصفحات، تفوقت في تفصيلاتها وحبكتها التاريخية، ودقتها عما كتبه جياكومو تيدالدي في وريقات معدودة.

وكذلك الحال، فإن كتاب باربارو يعد أكثر أهمية مما كتبه كريستوفورو ريشيريو Cristoforo Riccherio^(١)، فعلى الرغم من أن الأخير قد أشاد بشخص السلطان محمد الفاتح، ممتدحاً ذكاه، ومعدداً الأسباب التي دعت إلى توجيه اهتمامه نحو الاستيلاء على القسطنطينية، فإن ما ذكره ريشيريو عن الأعمال العسكرية المتبادلة بين الجانبين العثماني والبيزنطي ليس بمستوى ما قام باربارو بتسجيله، إذ تناول اقتحام العثمانيين للقسطنطينية بشكل عابر وسريع، فضلاً عن إشارته البسيطة لدور جستنياني في الحرب.

ثم عرج ريشيريو على ما قام به الجنود العثمانيون في المدينة من عمليات السلب والنهب، كما تعرض لإعدام القائد العسكري الأعلى نوتاراس، مما يشي أنه مكث بالمدينة لفترة من الوقت بعد الفتح العثماني، وتلك هي النقطة الوحيدة التي تفوق فيها عمل ريشيريو على يوميات باربارو. وإن كان للأخير عذره كما نعرف إذ قام - وزملاؤه - بالفرار من القسطنطينية يوم الفتح، خوفاً على حياتهم.

وتتفوق يوميات باربارو على ما كتبه الإيطالي جورجى بولفين Zorzi Dolfín^(٢) الذي عاصر الفتح العثماني للمدينة، وكتب أحداثه في تقرير من عدة صفحات، سجل فيه بشكل سريع للغاية، كيف اتخذ المدافعون البيزنطيون واللاتين مواقعهم داخل القسطنطينية استعداداً للهجوم العثماني النهائي.

١ - Cristoforo Riccherio, The Capture of Constantinople in the Year 1453 on the Twenty - ninth day of May, in Jones (ed.), pp. 117-124.

Zorzi Dolfín, Cronaca ff. 313-322 (Selections) in, Jones (ed.), pp. 125-130.

كما سجل دولفين أيضاً بعض الأساطير والمعجزات التي راجت في أوساط البيزنطيين قبيل سقوط القسطنطينية ، ولم يفته أيضاً أن يسجل - في عجالة سريعة- ابتهاج السلطان محمد الفاتح بالنصر.

والحقيقة أنه لا يمكن ، بأية حال من الأحوال ، مقارنة ما كتبه دولفين بيوميات نيقولو باربارو شديدة التفصيل، والتي اهتمت بذكر كل شاردة وواردة حول الحصار والاقتحام العثماني للقسطنطينية .

ولدينا مصدر لاتيني آخر يتحدث عن سقوط القسطنطينية في قبضة العثمانيين، وهو عبارة عن نص رسالة قام بكتابتها انجيلو جيوفاني لوميلينو Angelo Giovanni Lomellino^(١) البودستا السابق لمستعمرة الجنوية في غلطة (بيرا) إلى أخيه ، وهي لا تتحدث كثيراً عن اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، بقدر ما تتحدث عن أحوال الجنوية وأوضاعهم ابان ذلك الحدث. وعن الاتفاقية التي نجح البودستا الجنوي لوميلينو في عقدها مع السلطان محمد الفاتح من أجل استمرارية امتيازاتهم التجارية في غلطة . وهي في النهاية لا يمكن أن تقارن بما قامت بتسجيله يوميات نيقولو باربارو حول الفتح العثماني للقسطنطينية .

ويمكن مقارنة المصدر التاريخي الذي بين أيدينا بأحد المصادر اللاتينية الهامة حول سقوط القسطنطينية ، وهو التقرير الذي قدمه ليونارد الخيوسى Leonard of Chios أستاذ اللاهوت ، وكبير أساقفة ميتيلين Mytilene إلى الباب نيقولا الخامس Nicholas V في يوم السادس عشر من أغسطس ١٤٥٣م. ويتميز هذا المصدر بالذات بالموضوعية لعدة أسباب، أهمها أن ليونارد الخيوسى كان داخل مدينة القسطنطينية آنذاك ، موفداً من قبل البابا نيقولا للإشراف على مسألة الاتحاد الكنسى.

ومن الجدير بالذكر أن نيقولو باربارو قد أشار في يومياته إلى وجود ليونارد الخيوسى في الاجتماع الذي تم عقده في كنيسة أيا صوفيا بتاريخ الثالث عشر من ديسمبر ١٤٥٢^(٢)، من أجل اقرار الاتحاد الكنسى. وإن كان باربارو لم يذكر اسمه صراحة ، لكنه أشار أكثر من مرة إلى وجود أسقف ميتيلين.

١- . Angelo Giovanni Lomellino , ex- Podesta of Pera, to his brother . in , Jones (ed.) . pp. 131-135 .

٢- Leonard of Chios , the History of the Loss and Captivity of the city of Constantinople, Written to his Holiness Pope Nicholas in , Jones (ed.) , pp. 11-41 .

Barbaro , Op. cit., p. 12

وقد استطاع ليونارد الخيوسى الهرب من القسطنطينية ابان اقتحام العثمانيين لها، وواصل طريقه لتقديم تقريره عما حدث للبابا نيقولا بعد ذلك بعدة أشهر . والحقيقة أن رواية ليونارد الخيوسنى حول سقوط القسطنطينية فى أيدي العثمانيين، تتميز أيضاً بالدقة والموضوعية . فقد أفرد صفحات طويلة فى تقريره للحديث عن الوضع الدينى بالقسطنطينية ، وعملية الاتحاد الكنسى^(١)، وذكر ليونارد صراحة أن ترحيب البيزنطيين بالاتحاد الكنسى كان ظاهرياً فقط، وأنه قام بتأليب الامبراطور على الشعب البيزنطى المعارض لوحدة الكنائس .

كما أن تسجيل ليونارد الخيوسى لعمليات القتال اليومى فى البر والبحر بين المعسكرين العثمانى والبيزنطى كان دقيقاً وموضوعياً ، ويكاد يناقش ويضاهى ما قام به نيقولو باربارو فى كتابه .

وأبدى ليونارد اعجابه بتنظيم جيش محمد الفاتح ، وقوته ، ونظام تسليحه، وتحدث عن المدافع العثمانية الضخمة ، كما سجل الفكرة العبقرية التى قام محمد الفاتح بتنفيذها ونقل السفن العثمانية - برا- إلى خليج القرن الذهبى. وذكر أيضاً تشييد العثمانيين للجسر الخشبى عبر استخدام براميل الزيوت والخمور، لقطع ذراع القرن الذهبى من غلطة إلى أسوار القسطنطينية^(٢).

ويتفوق تقرير ليونارد الخيوسى على ما كتبه نيقولو باربارو فى يومياته فى ذكره لبعض المواقف والأحداث التى أغفلها الأخير، مثل الخلاف بين جيوفانى جستينيانى والقائد العسكرى الأعلى نوتاراس حول الأسلوب الأمثل للدفاع عن المدينة^(٣)، وكذلك حديثه عن الدور الحقيقى الذى لعبه خليل باشا ، والخطابات التى قام بارسالها للامبراطور البيزنطى يحرضه فيها على عدم تسليم القسطنطينية لمحمد الفاتح^(٤)، تلك الرسائل التى قام لوكاس نوتاراس بتسليمها للسلطان العثمانى بعد سقوط المدينة ، والتى أدت فى النهاية إلى قيام الفاتح بعزل خليل باشا، والقاء القبض عليه، ثم اعدامه فى مدينة أدرنه^(٥).

Leonard of Chios. Op. cit, pp. 12-13, 19 .

-١

Ibid, pp. 16 , 20-21 .

-٢

Ibid , pp. 29-30 .

-٣

Ibid, pp. 31-32 .

-٤

Ibid, pp. 39-40 .

-٥

وينفرد تقرير ليونارد الخيوسى- من دون كافة المصادر اللاتينية والبيزنطية- بتدوين الصيحات التى خرجت من حناجر الجنود العثمانيين إبان القتال «لا إله إلا الله، محمد رسول الله»^(١)، كما أنه ذكر أيضاً استباحة الجنود العثمانيين مدينة القسطنطينية لثلاثة أيام بعد الفتح ، وأسرههم لستين ألفاً من المسيحيين البيزنطيين واللاتين .

ولعل ما ذكره ليونارد الخيوسى فى تقريره من أحداث يكمل ما قام بتسجيله نيقولو باربارو فى يومياته ، التى تحتفظ بكونها يوميات تتحدث بشكل تفصيلى أكثر عن الاشتباكات العسكرية البحرية والبرية بين الطرفين العثمانى والبيزنطى، دون أن تستدرج للحديث عن تفاصيل أخرى لم يكن باربارو مهتماً بإيرادها ، خاصة وأنه كان موجوداً طوال الوقت على متن سفينته ، ولم يحدثنا أبداً أنه قد غادرها يوماً ما .

ويتجلى الفارق فى التعبير عن موقف الجنوية من الأحداث لدى كل من نيقولو باربارو (البندقى) ، وليونارد الخيوسى (الجنوى) ، فعلى حين وصم الأول الجنوية بالخيانة والتحالف مع السلطان محمد الفاتح ضد الامبراطور والشعب البيزنطى، وبأنهم أعداء المسيحية والرب، وقام أيضاً باتهامهم بكشف الخطط العسكرية البيزنطية للعثمانيين مقابل الاحتفاظ بامتيازاتهم التجارية، فإن ليونارد الخيوسى كان يبدو فى تقريره خجلاً من موقف الجنوية . وعلى الرغم من وصفه لتصرفاتهم بالحكمة والتروى ، فإنه عاد وذكر أنه إذا لم يكن مخطئاً فإنه كان من الأفضل لهم أن يعلنوا الحرب على العثمانيين بدلاً من مهادنتهم^(٢). واتهمهم أيضاً بالسلبية والتخاذل مقابل التمسك بامتيازاتهم التجارية .

وفى الوقت الذى استخدم فيه نيقولو باربارو عباراته الحادة والمتهبة لوصف موقف الجنوية، فإن ليوناردو الخيوسى كان يكتب كمن فى فمه ماء. فاستخدم عبارات تخفيفيه لوصف موقف الجنوية من ذلك قائلاً ، «أنتم أيها الجنوية . لقد تم ترويضكم . ومن ناحيتى سوف أظل صامتاً ، تاركاً للآخرين مهمة اصدار الحكم على شعبى»^(٣).

Leonard of Chios, pp. 33,36 .

-١-

Ibid, pp. 18-19 .

-٢-

Ibid, p. 19 .

-٣-

وعلى الرغم من أن مسرح العمليات العسكرية كان فوق الأرض والمياه البيزنطية، فقد تفوق كتاب باربارو، ذلك المصدر التاريخي اللاتيني، على كافة المصادر التاريخية البيزنطية، التي نوت نهاية الامبراطورية البيزنطية وسقوط القسطنطينية.

وإذا ما حاولنا المقارنة بين المصدر الذي بين أيدينا، وما كتبه المؤرخ البيزنطي كريتوفولوس Kritovoulos^(١) حول الأحداث التي جرت عند سقوط المدينة، سوف نجد أن كتاب باربارو يتميز بذكره لكافة الأحداث التي جرت في البحر وعلى البر، على عكس كريتوفولوس الذي لم يكن مهتماً بذكر جميع تلك الأحداث، لأنه كرس مصدره التاريخي من أجل الحديث عن حياة وفضائل السلطان محمد الفاتح في الفترة ١٤٥١-١٤٦٧م.

وبشكل عام اهتم كتاب كريتوفولوس- الذي حوّل ولامه من الامبراطورية البيزنطية إلى السلطان الفاتح - بذكر استعدادات العثمانيين للهجوم على القسطنطينية، والاشتباكات العسكرية بين الطرفين.

ومن الغريب أن كريتوفولوس لم يتطرق لعدد القوات البيزنطية ودفاعاتها، والسياسة التي اتبعتها الامبراطور قسطنطين الحادي عشر من أجل الدفاع عن المدينة، وهو الجانب الذي لم يغفله كتاب باربارو، فاستحق أن يتفوق على هذا المصدر البيزنطي في ذكره لتفاصيل الأحداث، وفي دقته الشديدة.

أما المصدر البيزنطي المعروف بحولية فرانتزس Sphrantzes^(٢)، نسبة إلى المؤرخ جورج فرانتزس الذي تناول الأحداث التاريخية التي جرت في الفترة من ١٢٥٩-١٤٧٧م، فإن ما يهمنا منه تلك الأحداث المتعلقة بسقوط القسطنطينية، حيث نجد أن فرانتزس لم يذكر أحداث سقوط المدينة بالتفصيل كما فعل باربارو، بل اكتفى بإيراد اشارات بسيطة عن ذلك، ولم تستغرق الفترة من ١٤٥١-١٤٥٣م سوى صفحات قليلة من كتابه الكبير.

ولا يملك المرء سوى التعجب من عدم ذكر فرانتزس للأحداث بشكل وافٍ، وموضوعي على الرغم من قربيه من الامبراطور البيزنطي، وكونه شاهد عيان لكل ما جرى عند أسوار

١- Kritovoulos, History of Mehmed The Canqueror Trans. by Charles T. Riggs, Princeton, 1954.

٢- Sphrantzes, G, The Fall of the Byzantine Empire Achronicle by Gearge Sphrantzes 1401-1477. Trans. by, Marios Philippides, Amherest, 1980.

القسطنطينية ، بل أن العثمانيين قاموا بأسره مع عائلته بعد اقتحامهم المدينة، ولم يطلقوا سراحه سوى في شهر سبتمبر ١٤٥٣م.

والحقيقة أن كل ما سبق يجعلنا نجزم بأن هذا المصدر التاريخي البيزنطي لا يصمد طويلاً أمام يوميات نيقولو باربارو الموضوعية حول وقائع سقوط القسطنطينية .

ويعتبر المصدر التاريخي الذي كتبه المؤرخ البيزنطي خالكو كونديليس Chalcocondyles^(١) جديراً بالانتباه ، خاصة عند تعرضه للفترة الأخيرة من العلاقات البيزنطية العثمانية التي أفضت إلى سقوط القسطنطينية في قبضة السلطان محمد الفاتح .

واهتم هذا المصدر بذكر البداية الحقيقية لتحويل نوايا السلطان إلى واقع فعلي ملموس ، عندما أمر ببناء قلعة الروم (الروملی حصار)، من أجل احكام حلقات الحصار حول مدينة القسطنطينية.

وسجل خالكو كونديليس في كتابه بعض المعارك التي جرت بين الجنود العثمانيين والبيزنطيين، وأشاد أيضاً بجنود الانكشارية الأتراك . لكنه تميز - فقط - عن كتاب باربارو في أنه تحدث عما جرى في القسطنطينية بعد سقوطها، وعن إعدام السلطان الفاتح للقائد العسكري نوتاراس ، وللوزير خليل باشا. وهو ما لم يرد في يوميات باربارو التي انتهت فعلياً يوم سقوط القسطنطينية في يد الأتراك، وهروبه على متن سفينته إلى وطنه الأم، البندقية.

ويمكن مقارنة يوميات باربارو حول سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين ١٤٥٣م بما ورد في أحد أهم المصادر التاريخية البيزنطية، المنسوبة إلى المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس Michael Doukas^(٢)، الذي كان معاصراً للاقتحام العثماني للمدينة . لكنه لم يكن بداخل القسطنطينية وقت الهجوم ، كما أنه استقى معلوماته بعد ذلك من أفواه بعض الجنود الأتراك، ومن إحدى السيدات البيزنطيات ذات الأصل التبيل، فضلاً عن تأليفه لهذا المصدر بناء على رغبة أحد الرهبان.

١- Laonicus Chalcocondylas , Turkish History , Book VIII, 201-214 , in , Jones (ed.) , pp 42-55 .

٢- Doukas, M, Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks. Trans by , Harry J. Magoulias, Detroit , 1975 .

كما اعتمدت على الفصول من ٣٢ إلى ٤٢ من كتاب دوكاس حسب ترجمة أخرى له . انظر .

Michael Ducas, Byzantin History, Chapters, 33-42 in , Jones (ed.) pp. 56-116 .

وتتبع أهمية كتاب بوكاس من تتبعه الجيد للعلاقات العثمانية البيزنطية منذ عشرات السنين قبل فتح القسطنطينية ، وإفراده لعشرات الصفحات فى كتابه للحديث عن الأحوال الداخلية للعثمانيين حتى سقوط القسطنطينية . وهو ما يشئ بشراء خليفته الثقافية والتاريخية بالمقارنة مع نيقولو باربارو .

وبسبب الأصل والانتماء البيزنطى للمؤرخ بوكاس ، فقد امتلأ كتابه بعبارات الهجاء للعثمانيين ، وخاصة للسلطان محمد الفاتح الذى نعتة بالطاغية ، الوثئى ، الكافر ، الشيطان ، الثعبان ، نبوخذ نصر...

والحقيقة أن كتاب باربارو، شاهد العيان، يتفوق من الناحية التاريخية على ما كتبه بوكاس- من واقع ما استمع إليه- من فصول فى كتابه الهام، حتى وإن تتبع الأخير ما جرى للبيزنطيين والعثمانيين بعد سقوط المدينة حتى العام ١٤٦٢م.

وحتى يكتمل ادراكنا بأهمية المصدر التاريخى الفريد الذى خلفه لنا نيقولو باربارو ، يجب علينا مقارنته أيضاً بالمصادر التاريخية العثمانية المعاصرة للحصار العثمانى للقسطنطينية.

وتعتبر يوميات باربارو فى غاية الثراء من ناحية المعلومات التاريخية ، بالمقارنة مع المصدر التاريخى المعاصر الذى خلفه لنا المؤرخ العثمانى ابن عاشق باشا Asik Pasha oglu^(١) الذى ولد فى العام ١٤٠٠م. وكان معاصراً لأحداث الفتح العثمانى. وألف كتاباً ، ضمّنه أحداث سقوط القسطنطينية.

غير أن هناك سببين فى رأينا يقللان من اكتمال القيمة العلمية والتاريخية لما قام بكتابته . الأول أنه بدأ كتابة ذلك المصدر التاريخى الذى عرف باسم «تاريخ ابن عاشق باشا»، وهو فى السادسة والثمانين من عمره ، أى فى العام ١٤٨٦م، وبعد سقوط القسطنطينية بثلاث وثلاثين عاماً. الأمر الذى يشئ بعدم مصداقية ما ذكره بشكل كامل، نتيجة لما يشوب ذاكرة الإنسان من عوار فى ذلك العمر المتأخر.

والدليل على ذلك يأتى فى طيات السبب الثانى، وهو أن عاشق باشا لم يفرد لمسألة فتح القسطنطينية سوى بعض الصفحات القليلة داخل كتابه، الذى قام بكتابته بأسلوب عادى وبسيط من أجل إعلان شأن أبناء عثمان، ومخاطبة الوجدان الشعبى التركى.

وعلى الرغم من تميز المصدر التاريخي لابن عاشق باشا بالحديث عن الخلفية التاريخية لآل عثمان، وعلاقاتهم السابقة مع الإمبراطورية البيزنطية، وهو ما لم تتحدث عنه يوميات نيقولو باربارو، فإن كتاب الأخير يثبت دوماً موضوعيته، وتفوقه على ما جاء في كتاب ابن عاشق باشا فيما يختص بالحقائق التاريخية التي تفيض بها يومياته حول الحصار العثماني .

وهناك مصدر تاريخي عثماني يعتبر في غاية الأهمية في تناوله لمسألة سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين. ذلك الذي خلفه لنا المؤرخ العثماني طورسون بك Tursun Bey^(١)، الذي عمل سكرتيراً في الديوان العثماني، وهو ما ساعده على الاطلاع على كافة المراسلات، والجهود الدبلوماسية التي دارت بين العثمانيين والبيزنطيين . فضلاً عن حضور المجالس التي عقدها السلطان الفاتح مع مستشاريه ، من أجل مناقشة أمر اقتحام مدينة القسطنطينية. والحقيقة أن رواية طورسون بك عن الأحداث تكتسب أهميتها من كونه كان مشاركاً فيها، كاشتراكه في بناء قلعة الروم، ومشاركته أيضاً في حصار مدينة القسطنطينية برفقة السلطان الفاتح.

وظل طورسون بك متابعاً للأحداث، وملتصقاً بالسلطان العثماني، حتى سقوط المدينة . فكان ضمن الوفد الذي دخل القسطنطينية برفقة محمد الفاتح.

وتحدث طورسون بك بشكل مستفيض عن الأحداث التي واكبت الحصار العثماني للقسطنطينية ، وعلى الرغم من ذلك فقد كان يمكنه الحديث بشكل أكثر دقة وتفصيلاً عن تلك الأحداث ، لكنه لم يفعل ذلك لسببين في غاية الأهمية ، الأول أنه شرع في كتابة هذا المصدر التاريخي في العام ١٤٨٨م، حينما كان في الستين من عمره وبعد خمس وثلاثين عاماً سقوط القسطنطينية وهو ما جعله لا يتذكر باقي الأحداث التي قام بتسجيلها نيقولو باربارو أولاً بأول على ظهر سفينته . والسبب الثاني أن طورسون بك قام بتأليف كتابه في الأساس من أجل تمجيد ما قام به السلطان الفاتح من إنجازات حتى العام ١٤٨٨م، حيث قام بعد الانتهاء منه بتقديمه إلى السلطان العثماني بايزيد الثاني ١٤٨١-١٥١٢م.

ويمكن اعتبار رواية طورسون بك عن الفتح العثماني للقسطنطينية ١٤٥٣م، أدق رواية مفصلة تمت كتابتها بواسطة مؤرخ عثماني معاصر. كما امتلأ كتابه بالعديد من النظم،

والأبيات الشعرية ، والاستشهاد بالآيات القرآنية، وامتداح العثمانيين ومحمد الفاتح بشكل كبير. غير أن ما يحسب له أيضاً هو تناوله لما حدث بالقسطنطينية بعد سقوطها، وجهود السلطان الفاتح في تعميرها بعد الفتح .

وعلى الرغم من ذلك كله. فإن ما ذكره طورسون بك في كتابه فيما يتعلق بأحداث فتح القسطنطينية ، لا يرقى إلى يوميات مؤرخنا البندقي نيقولو باربارو ، الذي خلف لنا مصدراً تاريخياً في غاية الأهمية ، ويوميات صريحة متكاملة ، تعد أصدق تصوير للحصار العثماني للقسطنطينية.

... وهكذا ، فإن المصدر التاريخي الذي بين أيدينا الآن، يتميز بعدة مزايا هامة، أولاها أن كاتبه كان معاصراً وشاهداً على الأحداث بشكل كامل، وثانيها أنه كان يقوم بتدوين تلك الأحداث في نفس يوم حدوثها ، حتى لا يصيب ذاكرته عور، أو التباس، فضلاً عن تذكره للعديد من التفاصيل التي لم يستطع مصدر تاريخي آخر، سواء أكان بيزنطياً أو لاتينياً أو عثمانياً، جمعها بشكل واف ودقيق.

ويبدو لنا أن عدم امتهان نيقولو باربارو لمهنة المؤرخ الرسمي، قد ناء به عن محاولة تزيف الأحداث التاريخية. وعن مساحة المدح والاطراء، والقاء الاتهامات بغير حساب ، تلك الصفات التي تميز بها المؤرخون الرسميون في بلاط الحكام في العصور الوسطى. إن كنا نستنتي من ذلك مدحه لبنى جنسه ، واتهاماته لخصومهم الجنويه .

وبعبارة أخرى ، فإن الطبيب والجراح نيقولو باربارو ، لم يتم تكليفه بشكل رسمي من قبل حكومته، أو حتى من قائد الأسطول البندقي بوضع مثل تلك اليوميات، وإلا كانوا قد قاموا بتوجيه تعليماتهم إلى أحد الكتبة، أو الموثقين الموجودين على متن السفن، باعتبارهم يمتهنون الكتابه. وباعتبار أن للطبيب دوراً هاماً في اسعاف ومداواة جرحى الحرب الدائرة .

وهكذا يمكننا القول أن نيقولو باربارو قام بكتابة يومياته بقصد ألا تكون «تاريخاً رسمياً». وهو ما يكسبها مصداقية كبرى، وينفي عنه صفة الغرض، ويجعل منها مادة تاريخية خالصة للأجيال التالية من الباحثين، التي تبحث عن التاريخ الحقيقي للشعوب، والأحداث التاريخية الكبرى.

... على أية حال ، فقد أحدث فتح العثمانيين للقسطنطينية يوم الثلاثاء ٢٠ جمادى الأولى، ٨٥٧هـ - ٢٩ مايو ١٤٥٣م دويًا كبيراً فى عالم العصور الوسطى. فقد جاء سقوط القسطنطينية إيذاناً بما يمكن تسميته - تجاوزاً - نشوء نظام عالمى جديد. إذ نجح العثمانيون فى القضاء تماماً على إحدى أهم القوى المؤثرة فى العصور الوسطى لأكثر من إحدى عشر قرناً من الزمان. وهى الامبراطورية البيزنطية ، وبرزت على مسرح الأحداث قوة عسكرية جديدة ، وواعدة، أخذت فى تهديد باقى القوى الكبرى الموجودة فى أواخر العصور الوسطى، كالدول الأوربية المسيحية، ودولة المماليك فى مصر والشام.

كان لنجاح العثمانيين فى الاستيلاء على القسطنطينية آثاره العديدة على المعسكرين الإسلامى والمسيحى. إذ سطعت شمس العسكرية العثمانية ، التى أثبتت نجاحها فى انتصارات سابقة على البيزنطيين والصرب والمجريين ، لكن نجاح العثمانيين فى فتح القسطنطينية ارتفع بسمعة العسكرية العثمانية إلى عنان السماء، خاصة بعدما رواه المؤرخون المعاصرون- البيزنطيين واللاتين- عن الخطط الحربية الباهرة التى قام بتنفيذها السلطان محمد الفاتح ، كنقل السفن العثمانية «براً» وانزالها على نحو مباغت فى خليج القرن الذهبى. وكذلك تشييده للجسر الخشبى ما بين بيرى وأسوار القسطنطينية، وعن آلات الحصار الجديدة التى اعترف المؤرخون البيزنطيون بأهميتها الفائقة فى حصار القسطنطينية ، فضلاً عن تسجيلهم لشجاعة وبسالة الجنود العثمانيين.

وشجع هذا الانتصار العسكرى الباهر العثمانيين على استكمال تحقيق طموحاتهم العسكرية ، والالتفات نحو باقى أعداء الدولة العثمانية ، من أجل القضاء عليهم، والحصول على أراض وممتلكات جديدة ، فضلاً عن مواصلة نشر الإسلام فى وسط أوروبا. وهو ما تحقق بعد ذلك نتيجة الانتصارات العثمانية المتوالية ، التى أدت إلى وصول الجيوش العثمانية لحصار مدينة قسطنطينية مرتين ١٥٢٩م، ١٦٨٣م^(١).

وتمكن العثمانيون نتيجة لفتح القسطنطينية من السيطرة على ضفتى مضيق البوسفور، والربط بين الأراضى العثمانية فى آسيا الصغرى، والممتلكات العثمانية الجديدة فى القارة الأوربية . وهو ما أدى فى النهاية إلى تحسين وضعهم الاستراتيجى بشكل واضح ، وسيطروا بشكل كامل على طريق التجارة المؤدى إلى البحر الأسود.

١- يلماز أورتونا، تاريخ الدولة العثمانية ، ص ٢٧٢ ، ٢٧٩ .

وأدى ذلك كله إلى تنامي القوة البحرية العثمانية . حيث بدأ الاهتمام ببناء الأساطيل لمساعدة القوات البرية في مرحلة الفتوحات الجديدة، خاصة بعد أن لوحظ عدم كفاءة الأسطول العثماني إبان المعارك البحرية مع الأسطول البيزنطي، قبيل نجاحهم في اقتحام القسطنطينية ١٤٥٣م.

بدأ العثمانيون في تدشين مرحلة جديدة، والتحول من مرحلة الدولة إلى مرحلة الامبراطورية ، بعد أن أصبحت ممتلكاتهم تحتل رقعة واسعة من الأراضي الآسيوية والأوروبية، وبعد أن اتخذ السلطان محمد الفاتح من القسطنطينية عاصمة جديدة له، والتفكير في الانطلاق منها نحو باقي الممتلكات الخاصة ببعض الأسر البيزنطية، والجزر التابعة للمدن الإيطالية.

وعلى صعيد العالم الإسلامي، فقد عمت مشاعر الفرح نتيجة نجاح العثمانيين المسلمين في فتح القسطنطينية . وعلى الرغم من حالة التوجس التي اكتتفت العلاقات العثمانية- المملوكية ، فقد أعلن المماليك ابتهاجهم بهذا الحدث، الذي عدّوه علامة على انتصار الدين الإسلامي نفسه. وأرسل السلطان محمد الفاتح رسولا للسلطان المملوكي الأشرف إينال (٨٥٧-٨٦٤هـ / ١٤٥٣-١٤٦٠م) في شوال ٨٥٧هـ أكتوبر ١٤٥٣م، يهنئه فيها بجلوسه على دست الحكم في مصر، ويخبره بنجاحه في فتح القسطنطينية^(١). وكان رسول السلطان العثماني يدعى جلال الدين يوسف القابوني، ويرفقه أسيرين من كبار المسئولين البيزنطيين بالقسطنطينية^(٢).

١- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى) بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٢ ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة، ١٩٨٤م، ص ٣١٦ ؛ ابن اياس، صفحات لم تنشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٥١م، ص ١٥ ؛ ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف) حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، ج ١ ، تحقيق فهم شلتوت ، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص ٢٨٦ .

٢- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ج ١ ، ص ٢٨٦ ؛ عبد الرازق الطنطاوى، العلاقات المصرية العثمانية، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ٥٩ .

ويحدثنا المؤرخ البيزنطي ميخائيل دوكاس ، المعاصر لسقوط القسطنطينية ، عن توزيع العثمانيين للأسرى البيزنطيين المسيحيين، ويشبه ذلك بما حدث ليهود أورشليم إبان السبى البابلى فيذكر «... وكيف يمكن للسان أن يحصف كارثة سقوط القسطنطينية ووقوعها فى الأسر، وما عانتها من هجر العديد من السكان لها . الذين لم يرحلوا هذه المرة من أورشليم إلى بابل وبلاد آشور لكنهم رحلوا من القسطنطينية إلى الشام، ومصر وأرمينيا ، وبلاد فارس، والجزيرة العربية . وكذلك رحلوا إلى افريقيا ، وتفرقوا عبر ايطاليا وآسيا الصغرى وباقي الأقاليم الأخرى...» انظر : "Decline and Fall of Byzantium", p. 239

وتعبيراً عن فرح العالم الإسلامى بهذا الحدث الجلل، أمر السلطان اينال بتزيين شوارع القاهرة ، وكافة الحوانيت والأسواق لعدة أيام^(١).

وقام السلطان اينال بالرد على رسالة السلطان الفاتح وهديته بارسال مبعوثه الأمير يرشباى الاينالى المؤيدى مع رسالة تهنى السلطان العثمانى بنجاحه فى فتح القسطنطينية^(٢) «... هذا النصر الذى من الله تعالى به على المسلمين».

كان من الطبيعى أن تكون العلاقة الطيبة والودية موجودة بين السلطان العثمانى محمد الفاتح، والسلطان المملوكى الأشرف اينال ، لأنه لم يكن قد ظهرت فى الأفق بعد نذر احتمالات الصدام العثمانى- المملوكى، ولهذا فقد نظر المماليك إلى انتصارات الفاتح على القوى المسيحية الأوربيه بعين الارتياح أيضاً ، لأن ذلك يحول نظر العثمانيين بعيداً عن حدود دولة المماليك الجراكسة .

كما أرسل العديد من الحكام المسلمين ، كسلطان الهند الجنوبيه البهمنى^(٣)، وآخرون سفراء إلى القسطنطينية لتهنئة السلطان محمد الفاتح بنصره المجيد .

أما الآثار الناجمة عن فتح العثمانيين للقسطنطينية على صعيد الغرب المسيحى فيمكن رصدها غير أربعة محاور :

صدى سقوط القسطنطينية على البابوية والكاثوليكية، وعلى الغرب الأوربى، وعلى النشاط النجارى للأساطيل الأوربية ، وكذا على موقف المسيحية الارثوذكسية.

١- ابن تغرى بردى ، المصدر السابق، ج ١ ، ص ٢٨٦، ابن اياس ، بدائع الزهور ، ص ٢١٦ ، ابن اياس، صفحات لم تنشر ، ص ١٥ .

٢- ابن اياس ، صفحات لم تنشر ، ص ١٥ ، ابن اياس وبدائع الزهور، ج ٢ ، ص ٢١٦ ، : ابن تغرى بردى، حوادث الدهور ، ص ٢٩٠ ، وهو الوحيد الذى يذكر أن الأمير يرشباى المؤيدى توجه نحو القسطنطينية يوم الخميس ٢٠ ذى القعدة ٨٥٧هـ، وأن رسول محمد الفاتح تبعه فى السبت التالى ٢٢ ذى القعدة ٨٥٧هـ.

٣- يلماز أوزتونا، المرجع السابق، ص ١٤٢، وعن أسيرة البهمنى فى الهند الجنوبية ، انظر: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة ، ١٩٩٠م، ص ١٧٠-١٧٤ ، حيث يتحدث عن مملكة الدكن البهمية فى جنوب الهند ٧٤٨-٩٣٤ / ١٢٤٧-١٥٢٧م.

فقد دعا البابا نيقولا الخامس فى الثلاثين من سبتمبر ١٤٥٣م إلى ضرورة قيام حملة صليبية جديدة لاستعادة مدينة القسطنطينية من قبضة الأتراك العثمانيين^(١)، وأمر بإعادة فرض ضريبة العشر لتمويل تلك الحملة^(٢). ونظراً لعدم تحمس الدول الأوربية لهذه الفكرة، وخوفها من استئثار عداء العثمانيين، فلم تخرج هذه الدعوة إلى التنفيذ بشكل جدى .

وبعد وفاة نيقولا الخامس ، تولى البابا كالستوس الثالث Calixtus (١٤٥٥-١١٥٨م)^(٣) زمام الادره البابويه ، وأعاد فرض ضريبة العشر من أجل تمويل اسطول بحرى لاستعادة القسطنطينية ، لكن ذلك الأسطول لم ينجح سوى فى الحصول على بعض الجزر فى بحر ايجيه ١٤٥٧م ، وسرعان ما استطاع العثمانيون استردادها مرة أخرى.

واهتزت أوربا المسيحية بعد سقوط القسطنطينية فى أيدي السلطان محمد الفاتح، لأنها ظلت لأكثر من احدى عشر قرناً تعتبرها بمثابة الدرع الواقى، أو الحصن الشرقى الذى قام بحماية القارة الأوربية من أخطار الغزاة الآسيويين فى العصور الوسطى. فضلاً عن كونها حامية المسيحية الأوربية الشرقية.

١- Kelly , J.N.D., The Oxford Dictionary of Popes, p. 245 .

٢- جرى فرض «ضريبة العشر» من أجل تمويل حملات صليبية ، أو من أجل مساعدة الصليبيين فى بلاد الشام فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد، وأهمها تلك المعروفة باسم «عشر صلاح الدين» ٥٨٤هـ - ١١٨٨م تلك الضريبة التى قام بفرضها هنرى الثانى Henry II ملك انجلترا فى يناير ١١٨٨م ، بعد نجاح صلاح الدين الأيوبي فى استعادة مدينة بيت المقدس على أثر معركة حطين ٥٨٢هـ - ١١٨٧م. انظر:

حاتم الطحارى، الاقتصاد الصليبي فى بلاد الشام ، القاهرة ، ١٩٩٩م، ص ١٥٧ ، ١٨١ ؛ حسين عطية ، عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوربا ومملكة بيت المقدس الصليبية ، بحث مستخرج من كتاب : .راسات فى الحروب الصليبية ، الاسكندرية ، ٢٠٠٠م، ص ٢٧٧-٢٤٥ ، حيث قام بترجمة مرسوم عشر صلاح الدين ١١٨٨م. انظر ص ٢١٢-٢١٥ .

وهناك ترجمة انجليزية سابقة لمرسوم عشر صلاح الدين . انظر: Cave & Coulson , A source Book for Medieval Economic History , New York , 1965 , pp. 387-388 .

٣- ولد فى العام ١٢٧٨م درس وقام بتدريس القانون فى ليريدا Lerida قبل أن يصبح قاضياً شهيراً فى محكمة أراجون Aragone وسكرتيراً خاصاً للملك الفونسو الخامس Alfonso V . (١٤١٦-١٤٥٨م) قبل أن ينتخب - بشكل مفاجئ - على رأس كنيسة القديس بطرس فى روما انظر:

Kvitovoulos, Op. cit, pp. 119-121; Kelly , Op. cit, pp. 245-246.

وانظر أيضاً : Runciman , " The Fall of Constantinople", p. 167 حيث يذكر أن ذلك الأسطول تمكن من الاستيلاء على جزر ناكسوس Naxos ، ليسبوس Lesbos ، ساموتراس Samothrace ، قبل أن يقوم العثمانيون باسترجاعها من جديد.

وبعد نجاح العسكرية العثمانية فى اجتياح مدينة القسطنطينية الحصينة ١٤٥٣م، بدأت الجيوش الأوربية تدرك التكتيكات العثمانية الجديدة فى فن الحرب، مما أدى بها إلى دراسة فنون الحرب العثمانية ، وكيفية محاصرة واقتحام المدن، وأدى اعجابهم بالجنود الانكشارية إلى محاولة تكوين فرق عسكرية مشابهة لها. كما وجهت الجيوش الغربية أيضاً اهتمامها نحو ضرورة الاستفادة من الدرس العثمانى ، وتطوير المدافع لنورها الحاسم فى الحروب، ومتابعة تطوير مداها ، وقذائفها .

ولا يمكننا أن نغفل الأثر الإيجابى الذى أحدثه سقوط القسطنطينية على الفكر الغربى فى نهايات العصور الوسطى، وبدايات العصر الحديث. لأن التهديد المستمر من قبل العثمانيين للقسطنطينية، ثم النجاح فى اقتحامها فى النهاية ودفع بالكثير من رجال الفكر والعلم والثقافة فى جامعة القسطنطينية ومنتدياتها ، إلى الهرب باتجاه الغرب، وخاصة إلى ايطاليا^(١).

وحمل هؤلاء الأدياء والعلماء والفلاسفة معهم ذخائر الكتب، ومفاتيح العلم اليونانى، الأمر الذى ساهم فى إثراء الفكر الغربى ، وزاد من نزعة التنوير به، وساعد فى إعادة ربطه بروافد الحضارة اليونانية القديمة . باعتبار أن الامبراطورية البيزنطية كانت وريثة للحضارة الكلاسيكية ، الأمر الذى ساعد على انتشار وزيادة الرغبة فى تعلم اللغة اليونانية، للولوج إلى عالم الحضارة الكلاسيكية ، وأدى ذلك فى النهاية لأن تتبوأ ايطاليا مكانتها كوريثة للثقافة البيزنطية والفكر اليونانى، وإلى بزوغ فجر النهضة الأوربية الحديثة فوق الأراضى الايطالية.

أما عن آثار سقوط القسطنطينية على النشاط الاقتصادى، والتنافس التجارى بين المدن التجارية الايطالية. فقد أدركت مدن جنوا والبندقية ، قبيل فتح القسطنطينية مغزى تشييد السلطان الفاتح لقلعة الروم، مارس - أغسطس ١٤٥٢م ، حيث بدأ العثمانيون فى تحصيل ضريبة المرور من البوسفور إلى البحر الأسود والعكس. ولا بد أن ادراك مدن جنوا والبندقية للغرض الحقيقى لمحمد الفاتح فضلاً عن دفعها للضرائب^(٢)، كان سبباً كافياً لتقليل تجارتها مع البحر الأسود، واتجاهها نحو زيادة التجارة عبر دولة المماليك فى مصر والشام^(٣).

١- السيد متولى، «الدولة البيزنطية فى عالم القرن السادس عشر»، ص ١٥٥ .

٢- هايد، تاريخ التجارة، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

٣- نعيم زكى فهمى، طرق التجارة الدولية ومحطاتها أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٧٣، ص ٣٨ .

ويعد نجاح العثمانيين في الاستيلاء على القسطنطينية ، سعت جنوا والبندقية إلى كسب ود السلطان العثماني، والحصول على امتيازات تجارية في بيرأ والقسطنطينية ، العاصمة العثمانية الجديدة .

ونجح الجنويه أولاً في الحصول على اتفاقية تجارية مهمة من السلطان محمد الفاتح ١٤٥٢م^(١)، منحهم فيها نفس امتيازاتهم السابقة في بيرأ ، فضلاً عن حصول تجارهم على إعفاء ، وتحديد قيمة الجمارك بنفس قيمتها السابقة على سقوط القسطنطينية .

ونجحت البندقية بعد ذلك، في أبريل ١٤٥٤م^(٢) في الحصول على اتفاقية مشابهة من السلطان الفاتح ، على أن يدفعوا رسوماً جمركية تبلغ ٢٪ وأن يقوموا بمنح رعايا السلطان العثماني في البندقية والأراضي الخاضعة لها نفس الامتيازات التجارية التي حصلوا عليها .

١- انظر النص الأصلي اليوناني لهذه المعاهدة :

Miklosich & Müller , Acta et Diplomata Graeca Res Graecas Italasque Illustrantia, Wien, 1865, III, pp. 287-288 .

وهناك ترجمة انجليزية لهذه المعاهدة . انظر:

Jones (ed.) " The Siege of Constantinople , " pp 136-137 .

وهي تتفق مع النص الأصلي اليوناني من حيث تاريخ هذه المعاهدة، ويبدو أنها كانت في اليوم التالي لسقوط القسطنطينية مباشرة (٢٠ مايو) أو في الأسبوع الأول من شهر يونيه ١٤٥٢م، انظر: هايد، المرجع السابق، ص ١٧٠ .

بينما يظن البروفسير بابنجر Babinger أنه جرى توقيعها في اليوم الأول من شهر يونيه انظر: "Mehmed The Conqueror and His Time", p. 101 بينما يذكر كل من نعيم زكي ، والسيد متولى - خطأ - أنها كانت في الحادي عشر من مارس ١٤٥٤م. انظر: «طرق التجاره الدولية» ص ٤٣ ، «الدولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر» ص ١٥٣ .

والحقيقة أنه لا يوجد مبرر لتأخير عقد تلك المعاهدة، فقد كان جنوية غلطة أصدقاء للسلطان محمد الفاتح ، وهو ما جعل زاجانوس باشا يسرع بالنزول إلى بيرأ بعد اقتحام القسطنطينية مباشرة . وأن يوقع مع الجنوية تلك المعاهدة نياية عن السلطان الفاتح . ومن الطبيعي أن يتم توقيع هذه المعاهدة في الأيام التالية لفتح القسطنطينية.

٢- هايد، المرجع السابق، ج ٣، ص ١٧٧-١٧٨ : Babinger , op. cit, p. 110 .

وتوجد ترجمة عربية كاملة لنص المعاهدة بين محمد الفاتح والبنائقة ١٤٥٤م ، انظر. نعيم زكي ، المرجع السابق، ص ٤٣٧-٤٣٨ .

وأدركت جمهورية فلورنسا أنه لا بد لها من الحصول على موطئ قدم في العاصمة العثمانية الجديدة، ومنافسة جنوا، والبندقية، فتحتت الفرصة لاقامة علاقات تجارية قوية مع السلطان الفاتح^(١)، وأرسلت أسطولاً تجارياً إلى القرن الذهبي بعد سقوط القسطنطينية، كما استقبلت سفارة عثمانية تهدف إلى اقامة علاقة ودية معها^(٢)، خاصة بعد وقوف فلورنسا على الحياد، وعدم تقديمها يد المساعدة للقسطنطينية، والامبراطور البيزنطي كما فعل البنادقة والجنوية.

وأدى سقوط القسطنطينية في قبضة الأتراك العثمانيين إلى زيادة الأساطيل البحرية العثمانية في مياه البحر المتوسط، الأمر الذي أدى إلى خشية نول غرب أوربا، وخاصة البرتغال وأسبانيا على سفنها وتجاريتها، وهو ما دفعها إلى محاولة البحث بشكل جدي عن طرق ملاحية جديدة، دون المرور بالمياه التي تخضع للسيادة الإسلامية. وبدأت حركة الكشف الجغرافية التي قامت باكتشاف العالم الجديد. والطرق البحرية الجديدة، عبر المرور خلف أفريقيا الغربية والجنوبية.

كان السلطان محمد الفاتح يدرك مدى كراهية الشعب البيزنطي للاتين، ورفضهم لفكرة الاتحاد الكنسي كما جاءت في مجمع فلورنسا ١٤٣٩م، وكذلك رفضهم لما حدث من محاولة توحيد الكنائس التي جرت في كنيسة أيا صوفيا تحت الحصار العثماني في ديسمبر ١٤٥٢م. وهدف السلطان الفاتح إلى استقرار السكان البيزنطيين في المدينة، فأمر بالافراج عن البطريرك البيزنطي لكنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية، وأعاد تنصيبه بطريركاً تحت اسم جيناديوس Ginnadius في العام ١٤٥٤م^(٣)، مع منحه كافة الصلاحيات السابقة للبطاركة الأرثوذكس، كما كفل السلطان الفاتح حرية العبادة لجميع السكان المسيحيين.

١- هايد، المرجع السابق، ج٣، ص٢٠٢.

٢- السيد متولى، المرجع السابق، ص١٥٣.

٣- كان اسمه الحقيقي جورج كورتيسس سكولاريوس George Kourtesis Scholarios ولد في العام ١٤٠٥م، عمل سكرتيراً للامبراطور البيزنطي يوحنا الثامن باليولوجس John VII Palaeologos (١٤٢٥-١٤٤٨م)، وحضر مجمع فلورنسا ١٤٣٩م، وقام بالتوقيع على الوثيقة الخاصة بوحدة الكنائس. لكنه غير من موقفه بمجرد عودته للقسطنطينية، وبدأ يخطب ضد الاتحاد الكنسي. وفي العام ١٤٥٠م تحول إلى الرهبنة تحت اسم جيناديوس Ginnadius. اختاره السلطان محمد الفاتح بطريركاً بعد الفتح على كنيسة القسطنطينية الأرثوذكسية في العام ١٤٥٤م، مات في العام ١٤٧٢م، بعد أن ترك وراءه العديد من المؤلفات عن ذلك انظر:

ولاشك في أن ما قام به محمد الفاتح، قد أكد تكريس مبدأ الانفصال التام بين كنيسة القسطنطينية، وكنيسة روما إلى الأبد، بل أنه جعل السكان الارثوذكس ينظرون إليه باعتباره حامى الارثوذكسية الشرقية، بعد أن تمتعوا بحرية العبادة حسب مذهبهم، دون خوف من هاجس الاتحاد الكنسى.

وفيما بعد آلت الارثوذكسية إلى كنيسة موسكو فى روسيا. حيث رفضت الكنيسة الروسية فكرة وحدة الكنائس، وقرارات مجمع فلورنسا ١٤٣٩م. ورويداً رويداً بدأ الارثوذكس البيزنطيون فى التحول نحو الكنيسة الارثوذكسية فى روسيا المسيحية^(١)، وانتقل الثقل من استانبول التابعة للدولة العثمانية الإسلامية إلى موسكو.

... وعلى أية حال، فيبدو أن الآثار السياسية لسقوط القسطنطينية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، ما زالت تلقى بظلالها حتى الآن على العلاقات بين أوروبا المسيحية، وتركيا الحديثة (وريثة العثمانيين)، إذ لم تنس أوروبا ما فعله العثمانيون المسلمون بحصن المسيحية الشرقية، وهو ما انعكس إلى الآن على العلاقات بين الطرفين، ورفض الدول الأوربية انضمام تركيا إلى الاتحاد الأوربي، فضلاً عن بعض الهواجس والممارسات الأخرى.

ولقد اتبعت فى ترجمة هذا الكتاب منهجاً حاولت فيه أن أجمع بين دقة الترجمة والحرص على المعنى الأصلى، كما حاولت أن تكون هذه الترجمة نقلاً أميناً لأفكار نيقولو باربارو وعباراته. فيما عدا بعض الألفاظ التى استخدمتها للتعبير عن كراهيته العميقة للأتراك، فقد فضلت إيرادها فى الهامش بعيداً عن متن الكتاب.

Nicol, D, A biographical Dictionary of the Byzantine Empire, London, 1991, p. 42 ; =

Oxford Dictionary of Byzantium, vol. 2, p. 830.

١- أرسل بطريرك القسطنطينية فى العام ١٢٩٠م إلى أمير موسكو باسل الأول Basil I يخبره فيها أنه على الرغم من حالة الضعف والتردى التى تعيشها الامبراطورية البيزنطية، فإن امبراطور القسطنطينية هو الامبراطور الحقيقى، وأنه نائب الرب فى حماية المسيحية الارثوذكسية.

أما بعد أن سقطت القسطنطينية نتيجة للآثم الذى ارتكبه بعد موافقتها على الاتحاد الكنسى - كما اعتقد الارثوذكس الروس- فإن كنيسة موسكو تحت قيادة الأمير فلاديمير Vladimir أصبحت فى نظر المسيحيين الارثوذكس هى الكنيسة الوحيدة ذات العقيدة الصحيحة على وجه الأرض. انظر:

Runciman, Op. cit, pp. 177-178.

كما حافظت على أسلوب التكرار الذى استخدمه باربارو فى بعض صفحات الكتاب، وفى أسماء النبلاء البنادقة بالقسطنطينية ابان الحصار العثمانى ، تلك الأسماء التى فضلت ترجمتها حسب النطق الإيطالى الذى أورده المؤلف.

كما أتنى اعتمدت على العديد من المعاجم والقواميس المتخصصة من أجل ترجمة المصطلحات التقنية ، كأسماء السفن، وأجزائها ، والموازين والمكايل والمقاييس والعملات ، وغيرها ، وذلك من أجل تدارك النقص الذى شاب الترجمة الإنجليزية، وهو ما سبق أن صرح به المترجم فى مقدمة الكتاب.

اقتضى الأمر منى حتى أقوم بالدراسة والتعليق المناسبين على هذا المصدر التاريخى الهام، أن أقوم بترجمة جميع روايات المؤرخين المعاصرين لنيقولو باربارو ، وشهود العيان على الفتح العثمانى للقسطنطينية من أجل مقارنتها بيوميات باربارو ، وأهمها الروايات التى قام بترجمتها أيضاً البروفسير جونز Jones فى كتابه: الحصار العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م : سبع روايات معاصرة . والذى انتهيت من ترجمته للغة العربية . وآمل أن يرى النور خلال الشهور القليلة القادمة .

وغنى عن القول أن الذى دفعنى لترجمة هذا الكتاب هو أهميته القصوى للباحثين فى تاريخ العلاقات الإسلامية المسيحية فى العصور الوسطى، حيث يتناول يوميات شاهد عيان على فتح العثمانيين للقسطنطينية، وسقوط أشهر وأهم المدن الأوربية طوال العصر الوسيط. ذلك الحدث الذى جاء ايزاناً بطل صفحة تاريخية ، وبداية سطور صفحة تاريخية جديدة فى تاريخ أوربا المسيحية ، وكذا فى تاريخ الإسلام فى أوربا. فضلاً عن أنها الترجمة العربية الأولى – فيما أعلم- لأحد مصادر الفتح العثمانى للقسطنطينية ١٤٥٣م. وهو ما يضيف عليها أهمية بالغة.

ولابد أن أذكر هنا أنه من ضمن الأسباب التى جعلتنى أقدم على ترجمة مصادر فتح القسطنطينية إلى اللغة العربية ، ذلك الولع الشخصى الذى أصابنى تجاه مدينة القسطنطينية – استانبول الحالية- التى عشت بها فترة من الزمن ابان مرحلة الاعداد للحصول على درجة الدكتوراة. تلك المدينة التى ما أن يهم المرء بالمشى فى شوارعها العتيقة، حتى تدهمه رائحة التاريخ العثمانى والبيزنطى .

وفى النهاية لايسعنى إلا تقديم وافر الشكر لكل من مد لى يد المساعدة، الاخوة الأفاضل : الدكتور صلاح ضبيع بجامعة جنوب الوادى، الذى منحنى نسخة من هذا الكتاب لترجمته ،

والدكتور ابراهيم الصنافيرى بجامعة الأزهر ، على ترجمته الدقيقة للعديد من صفحات المصادر العثمانية ، التى استعنت بها فى الدراسة والتعليق، وكذلك الأب الدكتور وديع أبو الليف بدير الآباء الفرنسيسكان على ترجمته لصفحتين من اللغة الايطالية القديمة فى متن هذا الكتاب .

... ويعد ، فربما أكون قد وفّقت فى ترجمتى لهذا الكتاب حيناً ، وربما يكون قد جانبنى التوفيق فى أحيان أخرى ، غير أن هذا مقدار جهدى الذى أرجو أن يكون قد نجح فى اضافة كتاب ، أراه فى غاية الأهمية ، إلى المكتبة العربية الإسلامية .

والله الموفق والمستعان

دكتور

حاتم عبد الرحمن الطحاوى

الحسينية - خريف العام ٢٠٠٢م

نيقولو باربارو

يوميات حصار القسطنطينية ١٤٥٣م

منذ أن وجدت نفسى فى مدينة القسطنطينية ، سيئة الحظ ، قررت أن أقوم بكتابة التقرير التالى، حول الهجوم الذى قام به محمد بك Mahomet Bey^(١)، ابن مراد التركى^(٢)، والذى بمقتضاه تمت له السيادة والسيطرة عليها .

١- هو السلطان العثمانى محمد الثانى (١٤٥١-١٤٨١م) ، الذى لُقّب بالفاتح بعد نجاحه فى فتح القسطنطينية فى شهر مايو ١٤٥٣م. مسطراً الصفحة الأخيرة فى تاريخ الدولة البيزنطية التى امتدت لأكثر من احدى عشر قرناً من الزمان، عن محمد الفاتح وحياته انظر المصادر العثمانية التالية :

Asikpasaoglu, "Asikpasaoglu Tarihi", Hazirlayan, H. Nihal Atsiz, Ankara, 1985 , pp.

135-189 ; Tursun Bey , Tarih-i Ebül- Feth, Hazirlayan , Mertol Tulum, Istanbul, 1997,

وانظر كذلك المصادر البيزنطية التالية :

Kritovoulos , History of Mehmed The Conqueror, Trans. by , C.T. Riggs, Princeton , 1954 ; Theodore Spandounes, On the Origin of the Ottoman Emperors, Trans by , D.Nicol, Cambridge, 1997 , pp. 31-54 .

Doukas , " Historia Turco- Byzantina " Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks, Trans by . Harry J, Magoulis , Detroit , 1975 , pp. 184-325 ; Sphrantzes , G. The Fall of the Byzantine Empire, Achronicle by George Sphrantzes 1401-1477 , Trans . by M. Philippides , Amherst , 1980, pp. 12-147 .

وأهم المراجع الأجنبية التى تناولت تاريخ محمد الفاتح وفتح القسطنطينية :

Runciman, S, The Fall of Constantinople , 1453 , Cambridge, 1965; Babinger, F. Mehmed The Canqueror and his Time Trans. by R. Manheim, ed. W.C. Hiskman , Princeton, 1978 .

انظر كذلك أعمال البروفسير التركى خليل إنالجيک H. Inalcik

- The Ottoman Empire. The Classical Age 1300-1600, London , 1973 .

- The Policy of Mehmed II Toward The Greek Population of Istanbul and The Byzantine Buildings in The City , in , D.O.P 23-24 (1969-70) , pp. 231-49 , Mehmed The Conqueror (1432-1481) and his Time" in, S P, 35 , 1960 , pp. 408-427 .

٢- هو السلطان العثمانى مراد الثانى (١٤٢١-١٤٥١م) ابن السلطان محمد جلبى وأمينه خاتون . عن

حياته وأعماله انظر: Asikpasaoglu , Op. cit, pp. 93-135

Doukas , Op. cit, pp. 121-189 ; Sphrantzes, Op. cit, pp. 11-63 , Spandounes, T, Op. cit, pp. 25-31 .

وحتى يمكن فهم حقيقة الأحداث بشكل تام ، فسوف أتحدث أولاً عن كيفية بداية الحرب بين الأتراك والبيزنطيين . وبعدها سوف نتعرفون على جميع ما حدث من هجمات يوماً بعد يوم، وتعرفون ما حدث منذ البداية ، وحتى النهاية القاسية والوحشية، والغزو المفجع للمدينة .

أقام محمد بك التركي في شهر مارس ١٤٥٢م قلعة ضخمة تبعد مسافة ستة أميال عن القسطنطينية باتجاه مدخل البحر الأسود، كانت تحتوى على أربعة عشر برجاً ، جرت تغطية أكبر خمسة أبراج منها بأسقف مسطحة مكسوة بالرصاص ، وكانت جدرانها قوية ومنيعة للغاية^(١).

وعندما عقد السلطان نيته على بنائها، حضر من مدينة غاليبولى Gallipoli^(٢)

١- لعبت تلك القلعة التي سميت بالرومللى حصار (قلعة الروم) دوراً هاماً للغاية في حصار القسطنطينية، وفي سيطرة العثمانيين على مضيق البوسفور . لدرجة أن المصادر المعاصرة تسميها القلعة قاطعة الرقبة Cut of Throat . عن الأهمية الاستراتيجية للقلعة وكيفية بنائها، انظر المصادر التالية :

- Tursun Bey , Op. cit, pp. 40-45 ; Laonicus Chalco condylas, Op. cit, p. 42

- Asik Pasa Oglu Tarihi, Op cit, p. 137 Kritovoulos, p. 16 , 20 ; Doukas , Op. cit, p. 196, Idem, pp. 66-67 ; Riccherio , Op. cit, p. 118.

Sphrantzes , Op. cit , p. 69 ; Kritovoulos , Op. cit , pp. 15-16 ; Babinger, Op. cit, p. 82 ; Runciman , Op , cit , p. 56 , Schlumbergor , G, Le Siege la Praise et le Sac de Constantinople par les Turcs en 1453 , Paris , 1914 , pp. 24-25 ; Kielty , B. la chute de Constantinople, Paris , 1961 , pp. 5 , 77 , Nicol , D, The Last Centunes of Byzantium, 1261-1453 , London , 1972, pp. 396-97 .

٢- مدينة بيزنطية على بحر مرمرة. نجح العثمانيون في الاستيلاء عليها عام ١٢٥٤م ، قبل أن تعود مرة أخرى للسيادة البيزنطية ، ويقوم الإمبراطور أندرونيكوس الرابع Andronikos IV بإعادتها إلى العثمانيين ١٣٦٧م انظر O.D.B, vol , 2 , pp. 1094-5 وانظر كذلك عن سقوطها في يد العثمانيين :

Charanis , p. " On the Date of the occupation of Gallipoli by The Turks", in B.S, XVI , 1955 , pp. 113-117 .

ويرفقه ستة شوانى Galley^(١) مجهزة ، وثمانية عشر Fuste ، وستة عشر Parandaria^(٢) .

وعندما وصل إلى الساحل القريب من القسطنطينية ، أمر بتشبيدها بالقرب من القلعة القديمة، على مسافة ستة أميال من الساحل البيزنطى. وخلال شهر أغسطس ١٤٥٢م ، كان قد تم الانتهاء من بناء القلعة، من أجل هدف واضح ، هو الاستيلاء على القسطنطينية .

وكان الامبراطور (البيزنطى) الذى خشى بأس عدوه التركى، يقوم بارسال السفارات والهدايا إليه يومياً ، بينما كان يتم بناء القلعة فى نفس الوقت ، وفعل الامبراطور كل هذا نتيجة لخوفه وخشيته . وعندما تم الانتهاء من بناء القلعة فى أغسطس ١٤٥٢م ، قام السلطان باستبقاء سفيرين للامبراطور ، وأمر بضرب عنقيهما، وتشبت الحرب بين الأتراك والبيزنطيين منذ تلك الواقعة .

بدأ الأتراك فى محاصرة القسطنطينية بخمسين ألف رجل ، وقاموا بنصب معسكرهم فى مواجهة المدينة لمدة ثلاثة أيام، وبعدها عاد الأسطول التركى إلى غاليبولى، حيث وصلها فى السادس من شهر سبتمبر ١٤٥٢م، وكذلك فعلت القوات البرية المحاصره للمدينة .

تميزت تلك القلعة بمناعتها من ناحية البحر، وكانت محصنة للغاية بفضل العدد الكبير من المدافع الموجوده على الساحل وفوق الأسوار، كما كانت القلعة منيعة للغاية من ناحية البر (اليابسة) ، لكن ليس بنفس درجة القوة التى تمتعت بها باتجاه البحر.

١- الشينية Galley هى نوع من السفن يتميز بطوله وانخفاض سطحه ، وضيق مساحته ، وتعتمد على المجاديف بشكل كبير . وتقام عليها الأبراج والقلاع لعمليات القتال البحرى. انظر:

Lane , F, " Venetian Shipping during The Cemmercial Revolution, in , A. H. R, vol , XXXVIII, 1933 , p. 219 .

انظر كذلك درويش النخيلى، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية ، ١٩٧٤ ، ص ٨٣-٨٤ .
أحمد رمضان أحمد، تاريخ فن القتال البحرى فى البحر المتوسط فى العصر الوسيط، القاهرة، د.ت، ص ٤٥ .

٢- Fuste هى سفن طويلة ، أخف وأسرع من السفن ثنائية المجاديف ، وبها مجدفين على كل جانب بها، عند مقدمة الصارى وعند مؤخرة السفينة . أما Parandaria فهى سفينة يمكنها نقل شحنات ثقيلة الوزن تستخدم فى عمليات النقل . انظر:

Runciman , Op. cit, p. 75 .

وقامت القذيفة الأولى التي أطلقها مدفع القلعة باغراق سفينة انطونيو ريتزو^(١) Antonio Rizzo ، الذي كان قادماً من البحر الأسود^(٢)، بينما كانت تحمل سفينته المؤن الغذائية لمساعدة أهالي القسطنطينية .

حدث هذا في السادس والعشرين من نوفمبر ١٤٥٢م ، وقام ريان السفينة بالقاء نفسه في الماء ، وتم القاء القبض عليه ، وأُرسل إلى أدرنه Adrianople^(٣)، حيث القي به في السجن . ثم أمر السلطان بخوزقته على وتد (خازوق) طوال أربعة عشر يوماً ، بينما قام بضم ابن دمينجو دى مايسترى Domengo di Maistri كاتب الريان، إلى جناح حريمه Seraglia بالقصر السلطاني، وبعد ذلك أمر بإطلاق سراح بعض البحارة حتى يتمكنوا من الذهاب إلى القسطنطينية^(٤).

وقام بايل Bailo القسطنطينية- قبيل وفاة انطونيو ريتزو - بارسال فابروزي كورنر Fa-bruzzi Corner كرسول إلى الأتراك ، ليجعل السلطان يفكر ملياً في قراره ، لكن الرسول لم يستطع أن يقوم بأي شيء ، لأن الخان Khan^(٥) كان قد قام بقتل ريتزو عبر

١- ملاحظة هامشية : «وضع السلطان محمد تنظيمًا يقضى بأنه على السفن القادمة من البحر الأسود إلى المضائق أن تخفض أشرعتها ، وأن ترسل قارباً إلى الموظف التركي المسئول من أجل الحصول على تصريح بالمرور، وإلا فإن مصيرها الفرق وأن تخضع لضريبة المرور». (الترجمة الإنجليزية) .

وعن اغراق سفينة انطونيو ريتزو انظر المصادر التالية :

Doukas, Op. cit, p. 200 ; Phrantzes, Op. cit, p. 62 .

٢- ملاحظة هامشية لأنه لم يتم بطى أشرعته . (الترجمة الإنجليزية)

٣- أدرنه Adrianople ، مدينة بيزنطية في إقليم تراقيا Trace ، استولى عليها السلطان العثماني مراد الأول ١٢٧٧م، وظلت عاصمة للعثمانيين حتى سقوط القسطنطينية ، انظر: O.D B, vol , I, p. 23 .

٤- ملاحظة هامشية : لأنه قام بقتل نصف عددهم (الترجمة الإنجليزية)

٥- الخان : كلمة فارسية معناها السلطان . تعد من بقايا التراث الثقافي للمغول، حيث استخدمها مغول أسرة جنكيز خان ، كما كانت اللقب الرسمي لحكام كرميا Crimea من المغول، واستخدمها السلاطين العثمانيون فيما بعد كأحد القابهم . انظر: ادبي شير : معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٩٠م، ص ٥٨ . انظر أيضاً :

Bayerle , G, Pashas, Begg, And Effendis: A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire, Istanbul, 1997 , p. 75 .

الخازوق^(١). بعد ذلك عاد فابروزي كورنر إلى القسطنطينية برفقة سفينة كابرييل تريفيكسان Cabriel Trivixan. وتعد مسألة مقتل انطونيو ريتزو بداية نشوب الحرب بالتسبب لنا أهل البندقية، كما كانت قد نشبت سابقاً ضد البيزنطيين .

بدأ الأتراك في الاستعداد منذ شهر يناير (١٤٥٢م) من أجل الوصول إلى هنا ومهاجمة القسطنطينية ، وقاموا بتجهيز جيش برى ضخم، وكذا قوة بحرية كبيرة كل ذلك من أجل مهاجمة هذه المدينة الحزينة والبائسة . وبدأ الأتراك منذ شهر فبراير في ارسال مدفعهم باتجاه القسطنطينية برفقة عشرة آلاف رجل . وفي نفس الشهر - فبراير- قام بعض البيزنطيين بهجوم عسكري برفقة ثلاثة سفن Fuste على الأتراك ، وقاموا بتكبيدهم بعض الأضرار والخسائر ، من ذلك قيامهم بأسر العديد منهم ، وأخذهم من أجل القيام ببيعهم في القسطنطينية . ولهذا السبب تنامي الشعور بالعداء لدى الأتراك ضد البيزنطيين ، وأقسموا على الانتقام منهم.

وفي ذلك الوقت، وصل إلى القسطنطينية كابرييل تريفيكسان، نائب الريان، برفقة سفينتين خفيفتين ، يلزمه على متن أحدهما الفارس زكريا جريوني Zacaria Gioni . وكان حضرة حاكم Signoria البندقية قد أرسل تلك السفينتين لمرافقة السفن التجارية الثلاثة القادمة من تانا Tana^(٢)، من أجل مد يد المساعدة لمدينة القسطنطينية.

وبعد مرورة عدة أيام وصلت سفينة ملأى بالجنوية ومحملة بست وثلاثين ألف قنطار Cantara^(٣)

١- ملاحظة هامشية: أو أنه نوى أن يقوم بذلك. (الترجمة الإنجليزية) .

٢- هو نهر يسمى أيضاً Tanais أو Don يصب في بحر أزوف Azof كانت به مستعمرات تجارية بندقية في القرنين ١٥، ١٤ م. انظر :

. O. D. B, vol , 3 , p. 2009, W N. G. D, p. 338 .

انظر كذلك : Martin, ME , “ Venetian Tana in the Later Fourteenth and Early Fifteenth Centuries “, in Byz. F, 11 , 1987 , pp. 375-79 .

٣- القنطار Cantaro وحدة قياس استخدمها التجار الايطاليون في البحر المتوسط ، في العصور الوسطى. وهو يساوي ١٠٠ رطل ، ويتراوح ما بين ٧٥٠-١٠٠ lbs . انظر : De Roover, E.F, Glossary : of Medieval Terms of Businiss, Italian Series , 1200-1600 , Cambridge, Mass, 1934, p. 59 .

وعلى متنها كاردينال روسيا^(١)، الذى قام البابا بإرساله من أجل العمل على تحقيق عملية الاتحاد الكنسى، والذى حضر برفقته مائتى رجل، من بينهم رماة السهام، ورجال يجيدون التصويب بالبنادق من أجل مساعدة القسطنطينية.

وخلال نفس الشهر - فبراير- وصلت من كانديا Candia^(٢) ثمانى سفن محملة بالنبذ، من أجل توفير وسائل العيش لسكان المدينة.

١- هو الكاردينال ايزيدور Isidore، ولد فى مونمباسيا Monemvasia ١٢٨٥، ومات فى روما ١٤٦٢م، عمل كسفير للامبراطور يوحنا الثامن باليولوجس John VIII Palaiologos إلى مؤتمر بازل Basil ١٤٣٤م، وتذكر بعض المصادر أنه وصل إلى القسطنطينية فى ١٢ ديسمبر ١٤٥٢م لإقرار الاتحاد الكنسى بين الكنيسة الارثوذكسية بالقسطنطينية وكنيسة روما الكاثوليكية، وليس فى شهر فبراير من نفس العام كما يذكر نيقولاو باربارو، وسقط الكاردينال أسيراً فى يد العثمانيين لدى اقتحامهم القسطنطينية، غير أنه استطاع الهرب والعودة إلى الغرب، عن ذلك انظر:

O. D. B, vol, 2, pp. 1015-1016.

الذى يذكر أنه وصل القسطنطينية فى شهر نوفمبر ١٤٥٢م -203, 193, 180, pp. cit, Op. Doukas, 205.

حيث يذكر أن ايزيدور وصل القسطنطينية فى أكتوبر. 24, 142, 110, pp. cit, Op. Phrantzes,

Chalcocondylas, Op. cit, p. 49; Leonard of Chios, Op. cit, p. 27.

Babinger, Op. cit, pp. 79, 93, Runciman, Op. cit, pp. 83, 93, 141, 150.

Schubmberger, Op. cit, pp. 78, 141, Nicol, D. The Last Centuries of Byzantium, pp. 392-397.

Dereksen, D, The Crescent and the Cross, New York, 1964, pp. 160, 161, 173.

وعن دور الكاردينال ايزيدور فى محاولات الاتحاد الكنسى انظر:

- Ziegler, A. W, Isidore de kiev, Apotre de L'Union florentine "in Iré 13, 1936, pp.

393-410; Krajcar, J, "Metropolitan Isidor's Journéy to the Council of Florence, Some remarks" in, O.C.P, 38, 1972, pp. 367-87.

Gill, J, Personalities of the Council of Florence, New York, 1964, pp. 65-78.

٢- كانديا Candia هى أحد أسماء جزيرة كريت Crete بالبحر المتوسط، قام يونيفاس الثالث Boniface III كونت مونتفerrat Montferrat أحد قادة الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤م ببيعها للبندقية. مما =

وفى العاشر من شهر نوفمبر^(١)، وصلت سفيتتان كبيرتان من كافا Caffa^(٢) . وعندما كانتا ترفعان أشرعتهما فى مواجهة القلعة التركية ، بدأ الأتراك فى الصياح « اخفض أشرعتك أيها الريان ، من أجل سلامتك ! »، لكن السفن ظلت ترفع أشرعتها ، واستمر الأتراك فى الصياح « اخفض أشرعتك أيها الريان! » وعند ذلك قام باخفاض أشرعته إلى منتصف المسافة، فى محاولة لانقاذ نفسه، لكن الأتراك استمروا فى الصياح « اخفض الأشرعة إلى أسفل! » . وعندما رأى الأتراك أن الريان لم يقم بخفضها تماماً ، بدأوا فى اطلاق قذائف مدافعهم ، وكذلك العديد من البنادق، وأعداد كبرى من السهام ، وهكذا لهذا فقد نجحوا فى قتل العديد منهم.

وعندما شاهد الريان مقتل العديد من رجاله ، قرر تنكيس أشرعته تماماً، وانقاذ حياته. وأوقف الأتراك ، نتيجة لذلك ، اطلاق قذائفهم .

وحملت التيارات المائية السفن باتجاه القسطنطينية، وعندما ابتعدت عن مرمى القلعة ، ولم تعد قذائف الأتراك تستطيع الوصول إليها، فقام الريان باعادة فرد أشرعته ، وسار فى أمان وهكذا استطاع الريان جيروليمو موريكسينى Jeruolemo Morexini ، الابطار بسلام إلى القسطنطينية، وشعر كل شخص فى المدينة بالمواساة لدى وصول السفينتين ، وكان ذلك فى العاشر من شهر نوفمبر .

فى الثانى من ديسمبر ، وصلت سفينة قادمة من طرابيزون Trabizond^(٣) إلى مدخل البحر الأسود، وأبحرت قليلاً بداخله ، وبب بالقاء مراسيها بالقرب من القلعة الرنية ، وبعد

= ساعد على زيادة الازدهار التجارى والزراعى بالجزيرة ، كما أصبحت كريت تحت سيطرة البنادقة مركزاً هاماً لتجارة البندقية مع موانئ الصليبيين بالشام ، ودولة المماليك فى مصر والشام ، ومع امارتى ايدن Ayden ومنتشه Monteshe . انظر:

O. D. B, vol I, pp. 545-47 ; W. N.G. D, p. 214 ; 299 .

Zachariadou , E.A, Trade and Crusade : Venetians Crete and the Emirates of Monteshe and Ayden (1300-1415) , Venice , 1983 , p. XXXIII - IV .

١- أغفل باربارو هنا ذكر الأحداث من فبراير إلى نوفمبر ١٤٥٢م. انظر ما سبق ، ص ٥٠-٥١ .

٢- تسمى أيضاً Theodosia ، ميناء يقع فى أوكرانيا ، كان بها مستعمرة جنوبية تجارية فى القرن الثالث عشر، نجح العثمانيون فى الاستيلاء عليها ١٤٧٥م . انظر: W. N . G . D, p. 394 .

٣- ميناء على البحر الأسود. كان فى ذلك الوقت مقراً لامبراطورية طرابيزون البيزنطية التى تكونت بعد =

قيامها بالرسو، وصلت إليها ١٢ Fuste تركية من القلعة التي جرى بنائها حديثاً، واقتربت من السفينة كما لو كانت سفناً صديقه . كما استقبلهم أولئك الذين كانوا على متن السفينة كأصدقاء ، وقاموا بمنحهم هدية إلى ريان الـ Fuste . وعندما أمسك الريان بالهدية بين يديه، قام فجأة بالقائها في البحر بغضب شديد ، لأنه كان يعتقد أنه يستحق هدية أفضل منها، واستدار ليتوجه بسفنه إلى القلعة المشيده حديثاً ، لكي يجعل الموظف المسئول يصدر أمره بالقبض على هذه السفينة .

وبعد أن شاهد أولئك الذين كانوا على متن السفينة غضب الأتراك ، تصرفوا كالرجال المتبصرين بالعواقب ، فتسللوا خلف سفن الـ Fuste التركية ببطء ، وعندما وصلت الـ Fuste إلى القلعة، وغادرها الريان متوجهاً إلى الموظف المسئول لكي يطلب منه استبقاء السفينة، بدأ الرجال في التجديف بسرعة وبابتهاج باتجاه القسطنطينية وعندما بدأ رجالنا الذين كانوا على مقربة من القلعة في توجيه التحية لهم كأصدقاء، وقاموا بتشجيعهم في سرور، كما قاموا بالنفخ في الأبواق محدثين جلبة كبيرة. وعندما قاموا بتحيتهم للمرة الثالثة، كانوا قد ابتعدوا عن القلعة، ودفعت التيارات البحرية بهم نحو القسطنطينية .

قام المجدفون بعملهم بهمة وسرور، وكانوا يشعرون بالسعادة لأنهم خلفوا وراءهم المنطقة التي كانت توجد بها القلعة، التي كانت تمثل لهم خطراً داهماً ، ينبغي الهروب منه، وعند تلك النقطة ، كانت السفينة بكاملها جاهزة ومستعدة كما لو كانت سوف تشارك الآن في القتال.

حدث ذلك في الرابع من ديسمبر ، عندما وصلت إلى القسطنطينية، وكان ريانها يدعى جاكومو كوكو Giacomo Coco الكبير^(١).

= الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤ م، حتى نجح محمد الفاتح في اسقاطها ١٤٧٨م. انظر : O . D. B, vol , 3 , pp. 2112-13 .

وعن امبراطورية طرابيزون ودورها السياسي والتجاري انظر: Miller, W, Trebizond , The Last Greek Empire, London , 1926 .

: فايز اسكندر دراسة لاتفاقية تجارية بين امبراطورية طرابيزون والبندقية سنة ١٣٦٤م ، الاسكندرية ، ١٩٨٣ .

١- عن الدور الذي سيقوم به فيما بعد جاكومو كوكو ، انظر الصفحات القادمة ص١٣٣-١٣٩ .

وفي يوم الثالث عشر من شهر ديسمبر ١٤٥٢م ، تم انعقاد اجتماع الاتحاد الكنسي في كنيسة القديسة صوفيا St. Sophia ، مع احتفال مهيب من قبل رجال الدين ، وكان هناك أيضاً حضرة الموقر كاردينال روسيا ، الذي تم إرساله من قبل البابا ، كذلك كان هناك الإمبراطور الأجل برفقة جميع نبلائه ، وكافة سكان القسطنطينية . وشهد هذا اليوم الكثير من عمليات البكاء والنواح في المدينة . وكان في نيتنا نحن الفرنجة Franks أن يتم هذا الاجتماع حتى لا يحدث أى انشقاق آخر في الكنيسة ، وحتى نستطيع أن نقوم بتلاوة القداس Mass في كنائسهم الأرثوذكسية ، وأن يقوم البيزنطيون بتلاوة القداس في كنائسنا اللاتينية الكاثوليكية^(١).

وفي الثالث عشر من ديسمبر أيضاً ، جرت محاولة لاستبقاء السفن التجارية الكبيرة من أجل سلامة القسطنطينية ، وتمت هذه المحاولة في كنيسة القديسة صوفيا ، التي تواجد بداخلها الإمبراطور ، و كاردينال روسيا ، وأسقف ميتيلين Myulene^(٢) ، وكافة النبلاء التابعين

١- يذكر بوكاس أن اجتماع مجلس الاتحاد الكنسي تم يوم الثاني عشر من ديسمبر ١٤٥٢م ، بعد الاجتماع إلى خطبة الكاردينال ايزودور Isidor مبعوث البابا نيقولا الخامس Nicholas ، حيث وافق معظم الموجودين على الاتحاد الكنسي ، على أن تتم مناقشة البنود التفصيلية للاتحاد ، بواسطة لجنة مكونة من أصحاب المقامات الرفيعة بالكنيسة ، وذلك بعد رفع الحصار العثماني عن القسطنطينية . غير أن بوكاس يذكر أيضاً أن العديد من البيزنطيين كانوا يرفضون عملية الاتحاد الكنسي ، وأنهم كانوا يحاولون خداع الكاردينال ايزودور انظر: "Decline and Fall of Byzantium" pp. 75-77 وانظر أيضاً:

ويذكر أن الاجتماع عقد في ١٢ ديسمبر Kieley , Op. cit, p. 80 ; Runciman, Op. cit, p. 71

الذي يذكر أن البيزنطيين الذين حضروا الاجتماع Schlumberger , Op. cit, pp. 8-10

قبلوا فكرة الاتحاد الكنسي بشغافهم فقط ، خوفاً من الغزو العثماني للمدينة ، وارضاءً للبابا ومن أجل الحصول على نجدة من الغرب الأوربي ، لكن البيزنطيين في حقيقة الأمر كانوا يمقتون اللاتين.

٢- هو ليونارد الخيوسي Leonard of Chios ، أستاذ اللاهوت ، وكبير أساقفة مدينة ميتيلين ، كبرى مدن جزيرة ليسبوس Lesbos شمال شرقي بحر ايجه ، التحق ببعثة الكاردينال ايزودور في القسطنطينية لاقرار عملية الاتحاد الكنسي ، فوصل إلى المدينة في أكتوبر ١٤٥٢م ، ونجح في الهرب عند اقتحام العثمانيين للقسطنطينية ، حيث توجه إلى خيوس ، وهناك كتب تقريراً بما حدث للبابا نيقولا الخامس ، عن ذلك التقرير انظر Leonard of Chios, Op. cit, pp. 11-42

وعن ليونارد الخيوسي ودوره الديني والسياسي انظر: Belgrano, L.T, Documenti Riguardanti la Colonia Genovese di Pera (Genoa, 1888) pp. 233-57 .

للامبراطور ، وجميع التجار الموجودين بالقسطنطينية ، والجزء الأعظم سكان المدينة ، وصاح الجميع فى وقت واحد : «إذا ما قامت سفن البنادقة تلك بالرحيل ، مع السفن الموجودة فى الميناء ، فسوف نسقط فى أيدي الأتراك مباشرة».

وبينما استمر هذا الجدل ، توجه الامبراطور لتناول العشاء مع نبلائه ، وكذلك فعل الجميع. وخلال ذلك اليوم ، لم يحدث شئ آخر سوى المزيد من الجدل والمناقشات .

فى يوم الرابع عشر من شهر ديسمبر ، حضر لتناول الطعام على متن سفينة الريان البندقى، حضرة الموقر كاردينال روسيا ، وأسقف ميتيلين ، والبايل Bailo^(١) البندقى ، بالإضافة إلى العديد من نبلاء الامبراطور ، وجميع تجارنا البنادقة ، وكذلك كابريل تريفيكسان نائب الريان على السفينتين الخفيفتين ، كما تواجد أيضاً ربابنة السفن التجارية الثلاث ، وأشخاص عديدين آخرين .

١- البايل · Bailo هو لقب القنصل البندقى فى المستعمرات البندقية فى موانئ البحر المتوسط فى العصور الوسطى، وخاصة فى موانئ الشام تحت الاحتلال الصليبي ١٠٩٨-١٢٩١ م . وفى مدينة القسطنطينية ، بعد المنح والامتيازات التى قدمها الامبراطور الكسوريوس كومنينوس للبندقية ١٠٨٢ م . وبشكل عام كان القنصل البندقى Bailliff هو المسئول الأول عن الجالية البندقية بالقسطنطينية طوال عهد أسرة آل باليولوغس . وكان يجرى انتخابه بواسطة المجلس الكبير فى البندقية . لفترة لاتزيد على سنتين . وكان راتبه يبلغ ١٠٠ ليبره Librac شهرياً ، وكان له مساعديه لانجاز وظيفته المتمثلة فى ادارة الانشطة التجارية للتجار البنادقة فى القسطنطينية، وفى الحكم فى القضايا التى تنشأ بينهم، أو مع الاداره البيزنطية. وكذلك الاشراف على الكنائس الاربع التابعة للبندقية فى القسطنطينية .

عن البايل البندقى وبوره التجارى والقانونى فى الشام والقسطنطينية انظر .

حاتم الطحاوى ، الاقتصاد الصليبي فى بلاد الشام ، القاهرة ، ١٩٩٩ ، ص ١٠٦-١١٠ : بيزنطة والمدن الايطالية ١٠٨١-١٢٠٤م، القاهرة ، ١٩٩٨م، ص ٩٩-١٢٠ . وانظر أيضاً :

O. D. B, vol , I, p. 245 , Maltezou , ch , Ho Thesmos tou en konstantinoupoli Benetou bailou , Athens , 1970 .

وتجدر الملاحظة أن لقب البايل Baillis قد استخدم أيضاً خارج سياق التاريخ التجارى للبندقية فى العصور الوسطى، حيث كان موجوداً فى فرنسا على عهد الملك لويس التاسع ١٢٢٦-١٢٧٠م. للتعبير عن المندوبين الملكيين الذين يقوم الملك بتكليفهم بتنفيذ ما يريد من أعمال، انظر: نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط، ترجمة قاسم عبده قاسم، ج٢، ط٢، القاهرة، ١٩٨٦م، ص ٥٩٩ .

وعندما التأم شمل الجميع على متن سفينة الريان، تحدث الكاردينال أولاً «إذا ما بقيت تلك السفن الخمسة في مدينة القسطنطينية ، فانتنا لن نتعرض لخطر مجيء السفن التركية لمهاجمة مينائنا هذا الشتاء ، أو قيامها بأية هجمات علينا بأية طريقة أخرى».

وقيل نفس هذا الكلام من قبل أسقف ميتيلين ؛ ونبلاء الامبراطور . ويعد حديث مطول يتعلق بالابقاء على السفن لغرض الدفاع عن القسطنطينية ، تحدث الباييل قائلاً «أيها الريان ، أستطيع أن أذكر لك أنه لأجل محبة الرب، وشرف الدين المسيحي ، وشرف حضرة حاكم البندقية Signoria ^(١)، ينبغي عليك أن تظل هنا بالقسطنطينية تحت امرة الامبراطور ، كما أن بقاءك هنا سوف يشعر حاكم البندقية بالسعادة والغبطة».

وبعد أن تحدث الجميع ، أجاب الريان «أيها الأب المقدس ، وأنت ، سيدي الطيب، (أسقف ميتيلين)، وأنت سيدي الباييل ، وجميع من يستمعون الآن إلى حديثي، ألا تعرفون أن سيدي حاكم البندقية قد أمرني أنه بمجرد وصول السفينة من طرابيزون إلى هنا ، فلا يجب على أن أمكث أكثر من عشرة أيام ؟ كيف يمكنكم أن تتوقعوا مني أن أظل هنا؟ وكما ترون الآن ، انكم لا تريدون منحي تصريحاً بحمل السلع والبضائع إلى السفن ، سوف أبحر اليوم في طريقى مستخدماً الصابورة ballast ^(٢)، ومن أراد منكم أن يتوجه معي نحو البندقية فليأت معي» .

عندما استمع الباييل والتجار البنادقة إلى رد الريان، الذي كان مستعداً للابحار في الحال، توجهوا نحو الساحل ، ونادوا بعقد مجمع من أجل استبقاء السفن للدفاع عن القسطنطينية ، أولاً من أجل محبة الرب، ثم من أجل شرف الايمان والدين المسيحي.

ونتيجة لهذا المجمع ، فقد تم الابقاء على تلك السفن، كما سوف ترون من عملية

١- هو الدوج فرانثيسكو فوسكاري Francesco Foscari (١٤٢٣-١٤٥٧م). انظر قائمة أنواع البندقية:

Nicol , D, Byzantium and Venice . A study in diplomatic and Cultural relations , Cambridge, 1988, p. 425 .

٢- الصابورة : Ballast ، هي عبارة عن ثقل حديدي أو قضيب من الحديد يوضع على أرضية السفن الصغيرة من أجل تثبيتها فوق الماء ، وتوفير الاتزان عند مقدمة السفينة ومؤخرتها ، بينما تستخدم السفن الأكبر حجماً براميل أو صهاريج مليئة بالمياه لتحقيق الثبات والاتزان على صفحة الماء. عن ذلك انظر:

Kemp p, (ed.) The Oxford Companion to Ships & The Sea , Oxford, 1976 , pp. 55-56 .

وانظر أيضاً : A Comprehensive Maritime Dictionary , Alexandria , 1989 , p. 49 .

التصويت التي جرت^(١). لقد اجتمع المجلس في كنيسة القديس مرقص St. Marco في القسطنطينية^(٢) بدعوة من قبل النبيل ، والشخصية البارزة ، جيروليمو مينوتو Jeruolemo Minoto ، الذي قام بوج البندقية الجليل بتعيينه في وظيفة بايل على البنادقة في القسطنطينية^(٣).

والأسماء التالية هي أسماء النبلاء الذين حضروا اجتماع المجلس:

السيد فيليبو كونتاريني كامير لينجو .

السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو.

السيد فابروزي كورنر ابن السيد جوان.

١- ملاحظة هامشية . كان ذلك يوم الخميس ، الرابع عشر من ديسمبر ، ١٤٥٢م. (الترجمة الانجليزية).

٢- هو القديس مرقص ، مؤلف الانجيل الذي يتنسب إلى اسمه . كان ابناً لسيدة اسمها ماري (مريم) عاشت في القدس . ويقال أنه كان يعمل مفسراً لما يقوله القديس بطرس St. Peter ، توجه إلى مصر ويشتر بالمسيحية بها ، وكان أول أسقف لكنيسة الاسكندرية . مات في عهد الامبراطور تراجان Trajan (٩٨-١١٧م) قام تجار بنادقة بسرقة رفاقه عام ٨٢٩م ، وتوجهوا إلى وطنهم الأم ، حيث أسسوا بها كنيسة القديس مارك San Marco . ثم قام الامبراطور ثيودوسيوس الاول Theodosias I (٣٧٩-٣٩٥م) ببناء كنيسة القديس مارك بالقسطنطينية ثم أعاد الامبراطور رومانوس الاول Romanos I (٩١٩-٩٤٤م) مناسها من جديد . انظر: O.D.B, vol , 2 pp . 1299-1300 ; Attwater D, The Penguin Dictionary of Saints, New York 1983 , pp. 225-26 .

وانظر أيضاً : سمير فوزي ، القديس مرقص وتأسيس كنيسة الاسكندرية ، ترجمة نسيم مجلى ، القاهرة ، ١٩٩٩م.

٣- كان الباييل (القنصل) البندقي في القسطنطينية آنذاك يدعى جيروليمو مينوتو ، ولعب دوراً كبيراً في الدفاع عن المصالح التجارية للبندقية ، كما لعب دوراً هاماً في قيادة البنادقة ، والدفاع عن القسطنطينية ازاء المحاولات المتكررة التي قام بها الجيش العثماني من أجل اقتحامها ، وهو الأمر الذي لم يغفره له السلطان محمد الفاتح ، الذي أمر بضرب عتق الباييل البندقي جيروليمو مينوتو فور نجاحه في فتح القسطنطينية.

عن الدور الذي لعبه بايل البندقية ابان الحصار العثماني للقسطنطينية انظر الصفحات التالية ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٧ ، ١٠١ ، ١٠٢ ، ١١٤ ، ١٤٢ ، هامش (١) ، ١٤٤ .

Chalcocondylas , Op. cit , p. 52

وانظر كذلك المصادر والمراجع الآتية :

Dolfin , Op. cit , p. 129 .

هايد المرجع السابق ، ج ٢ ، ص ١٦٣ .

- السيد كاتارين كوتارينى ابن السيد جوان .
 السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليوناردو (الأول)
 السيد ميخائيل بولدو ابن السيد بينيدتو .
 السيد باتيستاجريتى ابن السيد هومويون .
 السيد دولفين دولفين ابن السيد دومينجو .
 السيد توماو موزينجو ابن السيد مارين .
 السيد الفيكس بيمبو ابن السيد بينيتن .
 السيد جوان فانير ريان السفينة القادمة من كانديا (كريت) .
 السيد نيقولو بالبي ابن السيد مارين .
 السيد بييرو ناننى ابن السيد جوان .
 السيد فرانثيسكو ميشيل ابن السيد
 السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو .
 السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينيتن .
 السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .
 السيد بييرو كوتارينى ابن السيد فرانثيسكو .
 السيد فرانثيسكو فانير ابن السيد برناردو .
 السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو^(١).

وجاء اقتراح البايلى بوصفه رئيساً للمجلس كما يلى:

عند مناقشة الاقتراح السابق الذى جرى تقديمه بواسطة رئيس المجلس، بايل البندقية، وبعد مناقشات مستفيضة بواسطة النبلاء ، وبعد وقت طويل، قام البايلى نفسه بتقديم اقتراحه على النحو التالى:

«نظراً لما تحتاجه هذه المدينة فى الحرب التى يخوضها البيزنطيون ضد الأتراك، فإنهم قد طلبوا، ورغبوا بصورة جديّة فى استبقاء تلك السفن التجارية الكبيرة، وكذلك السفينتين

١- ملاحظة هامشية : هكذا يصبح المجموع ٢١ رجلاً . (الترجمة الإنجليزية) .

الخفيفتين من أجل الدفاع عن تلك المدينة، ولهذا فإنهم لن يقوموا بالسماح لتلك السفن، ولا لبهارتها وما على متنها من سلع ويضائع بالرحيل، وأنهم يعتبرون هذا الأمر ذا أهمية قصوى. وبعد تصويت تم بالاجماع عبر سلطة هذا المجمع، تم انتخاب عضوين بالمجلس للاستعداد لذلك، وتم هذا في حضور السيد البابل، والذين تم انتخابهما عبر هذا التصويت هما:

السيد نيقولو جستنياني

السيد فابروزي كورنر

كانت القسطنطينية تشعر بحاجة ماسة لأي نوع أنواع المساعدة، فقد كان من المتوقع أن تتم مهاجمتها براً وبحراً بواسطة السلطان وجيوشه الأكثر عزمًا وقوة. كذلك فإن طلب الامبراطور الأجل، وحضرة الموقر المونسنيير Monsignor^(١) الكاردينال، والنجدة الكبرى التي سوف يتم اتخاذها لأجل هذه المدينة، وكذلك من أجل شرف الرب، وشرف سيد البندقية الشهير، ولأجل الايمان المسيحي الكامل، فإن القرار الذي تم اتخاذه بالاجماع، والخاص بفخامة البابل، هو انتخاب نيقولو جستنياني وفابروزي كورنر من أجل الدفاع عن هذه المدينة أما بالنسبة للتجار والسلع التي وجدت في القسطنطينية، فحيث أنه لم ترد تعليمات مضادة من سيدنا حاكم البندقية، فيجب أن يكون مفهوماً أنه إذا ما نشبت الحرب، واتخذت طريقاً مختلفاً، ولم يبق الأتراك بمهاجمة المدينة، سوف يكون بإمكان هذا المجمع أن يقوم باطلاق سراح السفن الثلاث الكبيرة، وكذا السفينتين الخفيفتين دون الرجوع إلى قرار المجمع الأول. وبالإضافة إلى ذلك فيجب على الامبراطور أن يقوم بدفع ٤٠٠ دوكات Ducats^(٢) شهرياً،

١- لقب سياده للمطارنة والبطاركة، كان يوجه قديماً للأمراء أيضاً، والمقصود بالمونسنيير هنا هو الكاردينال ايزوبر مبعوث البابا نيقولا الخامس.

٢- عرفت البندقيه نوعين من العملات، عملة فضيه عرفت بالجرسو Grosso، تم ضربها في عهد اللوج هنري داندولو Enricus Dandolus (١١٩٢-١٢٠٥م) والنوع الآخر الأكثر شهرة وأهمية هو الدوكات Ducat، الذي أمر السناتوالسندقي بضربه في أكتوبر ١٢٨٤م، على عهد اللوج جيوفاني داندولو Giovanni Dandolo (١٢٨٠-١٢٩٠م). وعلى حين استخدمت المعاملات التجارية في مصر، والشام المملوكية اسم بندقي وافرتي، استخدمت الأسواق الأوربية اسم الدوكات.

وكان الدوكات الذهبي السنقي يساوي اثنين من عملة بيزنطة منخفضة القيمة التي عرفت باسم الهيبربيرون hyperpyra في منتصف القرن الرابع عشر الميلادي. وقبل استيلاء العثمانيين على القسطنطينية بقرن كامل. انظر: Danduli, A, Chronica Per Extensum Descripta a a 461-1280 d.c. ACura di Ester Pastorello, Bologne, 1938, p. 370. =

وأن يقوم بتوفير الطعام للرجال على متن السفن الكبرى والسفن الخفيفة طوال فترة بقائها في الميناء. وبالنسبة إلى الربابنة ، وبالتحديد أحد ربابنة السفن السفن الثلاث الكبيرة ، وأحد ربابنى السفينتين الخفيفتين ، فقد أعلننا أنهما إذا أقاما بمعارضة هذا القرار فسوف يسقطان تحت طائلة عقوبة تبلغ ٣٠٠٠ دوكات عن كل منهما يدفعانها من ممتلكاتهما الشخصية، وهذه العقوبة سوف يتم تسديد نصفها بواسطة سيد Avogadoi البندقية، والنصف الآخر سوف يُدفع بواسطة قوميون البندقية، وجاءت نتيجة التصويت كما يلي.

٢١ صوتاً موافقاً

صوت واحد معارض^(١)

وهكذا قرر المجمع ضرورة بقاء السفن في القسطنطينية، مع امكانية رحيل الربابنة مقابل دفع غرامة تبلغ ٣٠٠٠ دوكات لأى منهم، أما التجار الذين كانوا يحاولون حماية أنفسهم، وحماية سلعهم وبضائعهم ، فقد تجمعوا وأخبروا الربابنة بأنهم لن يقوموا بالرحيل، وجاء بيانهم كالتالى :

= القلقشندى ، صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩١٣م، ص ٤٣٧ :

Robbert, L.B, "Venetian Money Market 1150-1229 ", in , S.V, XIII, 1971, p. 44.

Idem , " Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandolo" in SP, XLIX , 1974 , p. 51; Lane F.C, " The First Infidelities of The Venetian Lire", in, Miskimin & Herlihy & Udovitch (eds.) The Medieval City, Yale, 1977 , p. 45-47 ; Queller, " ANote on the Reorganization of the Venetian Comage by Doge Enrico Dandolo ", in, Medieval Diplomacy and The Fourth Crusade , London, 1980 , p. 169 .

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الايطالية، ص ١٥٢-١٥٥ : رأفت النبراوى ، اللوكات الذهبية البندقية ، «الدار» العدد ٤ ، السنة ١٧ ، رمضان ١٤١٢ هـ ، ص ٩١-١١٣ .

١- على الرغم من أن المؤرخ البيزنطى دوكاس Doukas، لم يذكر نتيجة التصويت بالتفصيل كما رواها بربارو ، فإنه ذكر أن الامبراطور قسطنطين الحادى عشر، والبنادقة المقيمين فى القسطنطينية لم يسمحوا لتلك السفن البندقية بالرحيل . وقاموا بالابقاء عليها للمساعدة فى الدفاع عن القسطنطينية . انظر: "Decline and Fall of Byzantium " , p. 211 ; Nicol, Op . cit , p. 396 .

= Leonard of Chios, in , Op. cit , p. 23 .

وانظر أيضاً

«بالنظر إلى ما نمر به الآن من وضع خطر، فإنه لأمر جدير بالثناء من قبل الرب، ولدى العالم كله ، وكذلك استجابة للطلب النافذ للإمبراطور الأجل ، فإننا يجب أن نقوم بحماية أنفسنا بأكثر الوسائل الممكنة أمنا وقانونية، ويشكل خاص بسبب الرجاء الذى قدمه الامبراطور الأجل فى كنيسة القديسه صوفيا Santa Sophia بالقسطنطينية وكذلك فخامة البابل، اللذان قاما بتبيان العديد من الأسباب، وراء هذا الرجاء ، ونظراً لأنه ليس هناك شك فى أن حاكم البندقية الأشهر، قد سمع عن الخطر الداهم، المحقق بمدينة القسطنطينية وبالإمبراطورية البيزنطية، وكما كان واضحاً فى ما سبق ، فقد وصلنا خلال وقت محدد إلى ذلك القرار ، الذى يقضى بأن تظل السفن الثلاث الكبيرة ، والسفینتين الخفيفتين من أجل حماية المدينة، وذلك حتى وقت معين ، وحتى ورود أية تعليمات من سيدنا حاكم البندقية.

وبالإضافة إلى ذلك ، فقد قرر التجار البقاء فى المدينة، لأن كافة رجالنا وسلعنا وبضائعنا تقع الآن داخل المدينة التى تم إغلاق أسوارها علينا ، وفرضت عليها حراسة قوية ، ونحن لانستطيع الرحيل وترك كافة بضائعنا وممتلكاتنا».

ونتيجة لهذا المطلب ، وهذا الالتزام الذى وضع بواسطة فخامة البابل ، فإننا نحن التجار سوف نحضر اليك يا الوفيكسى ديدو Aluvixe Diedo ربان السفن الثلاث الكبرى ، والأعلى مرتبة ، وأنت يا كابرييل تريفيكسان Cabriel Trevixane الربان الجدير بقيادة السفينتين الخفيفتين ، لكى نخبركم بكل ما انعقد عليه عزمنا.

ولم نحصل من الوفيكسى ديدو على تصريح مباشر. فيما عدا أنه مستعد لترك رجالنا وممتلكاتنا فى هذا البلد، وعندما تم تسلم رده النهائى ، قمنا بالانصراف ، ثم توجهنا برفقة

= أما هايد فيذكر ذلك أيضاً ، ويضيف أن تلك السفن البندقية قاتلت السفن التركية بنجاح ، واستطاعت انزال بعض بحارتها إلى اليابسة من أجل الدفاع عن الاسوار البحرية أيضاً . انظر: تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى ، ترجمة أحمد رضا ، مراجعة عز الدين فوده ، ج ٢ ، القاهرة ، ١٩٩٤ م ، ص ١٦٤-١٦٥ .

على أية حال يبدو أن بابارو قد أغفل - عمداً - اسم صاحب الصوت الذى عارض بقاء السفن بالقسطنطينية .

فخامة الباييل نحو كنيسة القديسة مريم Santa Maria^(١) بالقسطنطينية ودعونا لعقد مجمع الإثنى عشر Council of Twelve ، وبسبب الأهمية البالغة لهذه المسألة ، فقد حضر ٢٢ من النبلاء، وجرى التصويت بينهم، وقرروا أنه نظراً لحالة الطوارئ الموجوده بالمدينة ، فإن السفن الثلاث الكبيرة والسفينتين الخفيفتين يجب أن تبقى هنا عبر استخدام الوسائل القانونية طبقاً للقرار السابق . وتم ارسال نتيجة عملية التصويت اليكم فى الحال ، ليقوم كاتب الباييل بقراءتها فى الساعة الأولى من ليلة الرابع عشر من ديسمبر .

إذا ما رغب أحد الأعضاء الذين اشتركوا فى التصويت فى الحصول على نسخة منه، فسوف نحضر فى صباح اليوم التالى، الخامس عشر من ديسمبر ، برفقة فخامة الباييل وجميع التجار لتسليم نسخة من القرار السابق ، كذلك سوف نقوم - إذا ما طلب أحد الأعضاء - بارسال نسخة من الاجتماعين اللذين تما بتفويض من الباييل وسوف نعرف منكم الإجابة ، وفى هذا اليوم السادس عشر من ديسمبر ، سوف تقرررون ما إذا كنتم سترحلون حقاً، أم ستبقون بالمدينة .

١- قام الامبراطور البيزنطى الكسيوس كومنينوس Alexius Comnenus (١٠٨١-١١١٨م) بمنح التجار البنادقة امتيازات تجارية ضخمة بالقسطنطينية ١٠٨٢م، كان من بينها حقهم فى امتلاك حى بندقى يقع على خليج القرن الذهبى، وذلك مقابل حماية الامبراطورية البيزنطية من أعدائها النورمان. ومنذ ذلك الوقت وحتى العام ١٢٠٤م تدفق التجار البنادقة ، ثم تبعهم التجار البيازنة والجنوية، نحو أسواق القسطنطينية ، واحتكروا التجارة بها بشكل كامل، وقام البنادقة خلال النصف الأول من القرن الثانى عشر الميلادى ببناء عدة كنائس خاصة بهم بالقسطنطينية هى: كنيسة القديسه مريم ، وكنيسة القديس نيقولا ، وكنيسة القديس مارك ، بالإضافة إلى دير يرتبط بها. انظر:

Anna Comnena, The Alexiad , Trans by , Dawes , E , London . 1928 , p. 100 .

Danduli, Op . cit , p. 216 * Dölger , F , Regesten der Kaiserurkunden Des Öströmischen Reiches Von 565 - 1453 , Teil I, Munchen , 1925 , pp. 27-28 .

حاتم الطحاوى ، بيزنطة والمدن الايطالية ، ص٦٦-٦٩ وانظر كذلك .

Day, G, " Italian Churches in the Byzantine Empire to 1204" in, C H R , vol , LXX , 1984 , p. pp. 383-384 .

وانظر أيضاً ص٩٢، هامش (١) .

وفى هذا اليوم، وحسب طلبكم ، فإن نيقولو جستنيانى سيكون فى حضرتكم ، كما أنكم لم تجاوبوا على أسئلة أى شخص . ونحن نرى الآن أننا تأخرنا كثيراً ، لكننا قررنا ألا يطول تأخرنا ، وقمنا بوضع أنفسنا بين يدي الرب الرحيم، يسوع المسيح وأمه السيدة العذراء ، وفعل ذلك جميع الموقعين فى أسفل البيان، وقمنا جميعاً بالحضور إليكم بأقصى سرعة ممكنة ، مقدمين دائماً احترامنا وتبجيلنا إلى مكانتكم العالية، كرياضة للسفن، ونعلن أن أجسادنا وممتلكاتنا قد تم أخذها كضمان لأية ربح أو خسارة ، سوف تعود عليكم وعلى ممتلكاتكم فى هذا الأمر المتعلق برحيلكم ، وتركنا فى المدينة مع كامل ممتلكاتنا ، وبهذا الخصوص، ومع كامل الاحترام والتوقير ، نحن نقدم إليكم هذا البيان .

وجميع الأسماء التالية قامت بالتوقيع على البيان الذى تم ذكره سابقاً والذى طالب الرياضة بالبقاء فى القسطنطينية :

أنانيقولو جستنيانى ابن السيد برناردو أعلن اعتراضى (على رحيل السفن) ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا فابروزي كورنر ابن السيد جوان أعلن اعتراضى (على رحيل السفن)، كما هو مكتوب أعلاه . وينطبق هذا على وعلى زملائى .

أنا بومينيغو بالي ابن السيد نيقولو أعلن اعتراضى . وينطبق هذا على وعلى زملائى.

أنا كاتارين كوتاريثى ابن السيد جوان أعلن اعتراضى، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا نيقولا موزينيجو ابن السيد ليونارد الأول أعلن اعتراضى ، وينطبق هذا على زملائى.

أنا ميخائيل بوللو ابن السيد بينيتو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه ، وينطبق هذا على زملائى .

أنا توما موجينجو ابن السيد مارين اعترض كما هو مكتوب أعلاه، وينطبق هذا على زملائى .

أنا نيقولو بالي ابن السيد مارتين اعترض كما هو مكتوب أعلاه ، وينطبق هذا على زملائى.

أنا زكريا باريارو ابن السيد ماتيو اعترض كما هو مكتوب أعلاه ، وينطبق هذا على زملائى .

نحن الويز بيمبو وانطونيو بيمبو أبناء السيد بينيتن نعترض كما هو مكتوب أعلاه وينطبق هذا على زملائنا .

أنا دولفين دولفين ابن السيد دومينجو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه ، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائي .

أنا بيترو كونتارينى ابن السيد جاكومو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه ، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائي .

أنا بيترو تريفكسان ابن السيد جوان اعترض كما هو مكتوب أعلاه ، وكذلك الأمر بالنسبة لزملائي مهما حدث من ضرر .

أنا برتولاميو جورجى ابن السيد فرانسيسكو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز كونتارينى ابن السيد جاكومو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا مارين كونتارينى ابن السيد برتوجى اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا نيقولو موريكسينى ابن السيد جاكومو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز نافاير ابن السيد ميخائيل اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا مافيو دى بريواللى ابن السيد بيرو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا دوناو ترون ابن السيد بيرو اعترض ، كما هو مكتوب أعلاه .

أنا ببيرو جانتانى أعلن اعتراضى كما هو مكتوب أعلاه .

أنا لوكا دى روسى أعلن اعتراضى كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز فاكسول أعلن اعتراضى كما فعل الآخرون .

أنا جوان جون اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز ريدولفى أوافق على ما هو خير لكم .

أنا انطونيو دافنغو اعترض كما فعل الآخرون .

أنا جوان جوان اعترض كما هو مكتوب أعلاه بالنسبة للآخرين^(١).

أنا دومينجو جاريما الذي اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز ترالدينى اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

أنا الويز دى كانال ابن السيد برتولاميو اعترض كما هو مكتوب أعلاه .

بعد اتخاذ القرار بابقاء السفن فى القسطنطينية من أجل الدفاع عن المدينة، وبعد البيان السابق الذى تم توقيعه بواسطة عدد كبير من تجارنا ، حاولنا بكافة السبل والطرق اخبار حاكمنا الأكثر شهرة ، حاكم البندقية ، بأننا سوف نستبقى السفن بالمدينة، وعقدنا مجمع الاثنين عشر فى كنيسة السيدة مريم العذراء بالقسطنطينية ، حيث قررنا ضرورة ارسال جوان ديوسنايجى Zuan Diusnaigi إلى البندقية مع سفينته ، وأن يحمل معه رسائل من البابل ومن الوفيكسى ديسو ريان السفن القادمة من تانا ، وكابرييل تريثيكسان ريان السفينتين الخفيفتين، لخبار سيدنا الأكثر شهرة حاكم البندقية، بأننا سنبقى بالقسطنطينية.

وعقد المجمع يوم السابع عشر من ديسمبر ، وفيه تم الاجماع على ضرورة رحيل جوان ديوسنايجى نحو البندقية^(٢)، ثم اتباع ذلك بمجمع آخر فى التاسع عشر من ديسمبر . من أجل اقرار ارسال عدة رسائل إلى البندقية عبر الطرق البرية الممكنة ، وكذلك عبر طريق

١- جاء ذكر هذا النبيل البندقى مرتين فى قائمة الذين حضروا هذا الاجتماع ، ولم يوضح لنا نيقولو باربارو ولا البروفسير جوتز، ما إذا كانا شخصين مختلفين، أم أنهما شخص واحد. وهكذا يكون باربارو قد ذكره - سهواً - مرتين فى نفس القائمة .

٢- رحل ديوسنايجى Diusnaigi بالفعل إلى البندقية ، فى أوائل العام الجديد ١٤٥٢م، وقدم تقريره للوج البندقى فرانثيسكو فوسكارى . وإزاء الاخبار السيئة التى حواها تقريره حول اقتراب سقوط القسطنطينية فى أيدي العثمانيين ، عقد مجلس السناتو البندقى جلسة فى ١٩ فبراير ١٤٥٢م، تقرر فيها مد يد العون بشكل عاجل للقسطنطينية ، وارسال سفينتين كبيرتين على متن كل منهما ٤٠٠ مقاتل ، تبحران فى الثامن من أبريل ويرفقتها خمس عشرة شينية أخرى. وتم تدبير نفقات هذا الأسطول عن طريق فرض الضرائب على التجار الذين يعملون فى الأسواق البيزنطية، وفى موانئ البحر الأسود.

وبلغت التكلفة الاجمالية لنفقات الأسطول ١٦ ألفاً من الدوكات البندقية ، عن ذلك انظر:

جزيرة خيوس Chios^(١)، وذلك لاختبار سيدنا وحاكمنا ، الذى سبق ذكره ، بأننا باقين بالقسطنطينية.

وكذلك عقدنا فى يوم الثانى والعشرين من نفس الشهر - ديسمبر - مجلس الاثنى عشر من أجل اقرار ارسال خطابات للبندقية، عبر الأراضى التركية Turkey ولكى نخبر حاكمنا ببقائنا فى القسطنطينية.

وتمت كتابة ثلاث رسائل ، تضمنت كافة أخبارنا وأحوالنا ، وتم إرسالها على عجل إلى سيدنا حاكم البندقية ، حتى يستطيع أن يتعرف على أسباب بقاءنا بشكل عاجل ، وكنا فى غاية الحذر من أن تلك الرسائل الثلاث لايجب أن تكون مع شخص واحد يقوم بحملها إلى البندقية ، لأنها إذا ما سقطت فى أيدي الأتراك ، فسوف يطلعون منها على كافة خططنا ، وقام البايلى بكتابة الرسالة الأولى، بينما كتب الوفيكىسى ديدورىان السفن القادمة من تانا الرسالة الثانية ، وقام كابريل تريفيكسان ربان السفينتين الخفيفتين بكتابة الرسالة الأخيرة .

فى يوم السادس والعشرين من يناير ، توجه البايلى بصحبة ربانة السفن، وكافة التجار إلى حضرة الامبراطور الأجل ، حيث قدم البايلى مطلباً للامبراطور ، وذكر بأنه «يجب أن يسمح لنا بأن نقوم بشحن سلعنا وبضائعنا على متن السفن، وألا نتعرض للتفتيش عند بوابات مدينتك ، كما لو كنا فى بلاد المسلمين Moors^(٢) .

١- جزيرة بيزنطية شرقى بحر ايجه بالقرب من ساحل آسيا الصغرى. تم منحها لبلدوين من فلاندر Baldwin of Flander بعد نجاح الحملة الصليبية الرابعة فى الاستيلاء على القسطنطينية ١٢٠٤م . ألت العام ١٢٦١م إلى الجنوب بمقتضى معاهدة نيمفايون Nymphaion . ثم عادت إلى سلطة الادارة البيزنطية ثم عاد الجنوبية إلى احتلال خيوس ١٢٤٦م. ولم يستطع العثمانيون الاستيلاء عليها من جنوا سوى فى العام ١٥٥٦م . انظر : O D B, vol . I, pp 423-24 .

٢- استخدم الرومان كلمة Moors أو Mauri للتعبير عن سكان شمال أفريقيا، ما بين خليج سرت شرقاً، حتى المحيط الاطلنطى غرباً ، وهى الكلمة التى تعادل كلمة «البربر» والكتابات العربية الإسلامية وبعد الفتح الإسلامى لشمال أفريقيا فى القرنين السابع والثامن للميلاد، استمرت المصادر الأوربية فى العصور الوسطى فى الإشارة بكلمة Moors إلى سكان شمال أفريقيا المسلمين . انظر : O.D. B, vol , 2, p. 1318 .
وتدل اشارة باريارو هنا على ارتياد التجار البنادقة الموانئ والأسواق الإسلامية فى شمال أفريقيا ، وربما الاندلس أيضاً .

وإذا ما قمنا بحمل بضائعنا إلى سفنتنا سوف نفعل ذلك بحرية تامة ، وبواسطة الازن الذى حصلنا عليه من امبراطوريتكم ، عندما امتلكتنا القسطنطينية لمدة ستين عاماً^(١)، ثم قمنا باعادتها إليكم . لكن أرجو أن تقوموا بتنحية تلك الأحداث جانباً ، فنحن أولادكم الطيبين ، نسأل العفو من جلالتكم ، بأن تدعنا نقوم بتحميل سلعنا وممتلكاتنا على متن سفنتنا ، وإذا لم توافق جلالتكم على ذلك ، فإننا سوف نقوم بالرحيل ليلاً ، مستعينين باسم الرب ، بالسلع والبضائع التى سنعثر عليها على متن السفن ، ولا تصدق أبداً أننا أردنا البقاء فى بلادك كما لو كنا عبيداً».

عندما أدرك الامبراطور كلمات الربانة والبايل، وأنهم أرادوا وضع سلعهم وبضائعهم على متن السفينة، رغم كل الظروف الموجودة ، أمر بجمع باورناته للتشاور معهم، وبعد حديث طويل بينهم ، أخذ الامبراطور فى التهنيد بحسرة ، وأجاب البايل والربانة باحترام قائلاً «لقد فهمت الأمر تماماً . أيها البايل صاحب الشرف الرفيع، وأنتم أيها الربانة الشرفاء، قوموا فى الحال بوضع سلعكم وبضائعكم على متن السفن ، كما يمكنكم أيضاً الابحار عند حلول الظلام، ارحلوا تصحبكم عناية الرب، واتركونى وحيداً فى مواجهة جيش محمد بك Mahomet Bey التركى^(٢)، عدوى المخادع ، الذى نتوقع مجيئه يوماً بعد يوم، لأنه انتوى مهاجمة امبراطوريتى براً وبحراً وبكامل القوة المتوفرة لديه».

أجاب ربانة السفن «أيها الامبراطور الآجل ، إننا - وبكامل ارادتنا - نقسم لك بشرف شعب البندقية ، بأننا لن نبحر بسفنتنا من ميناء القسطنطينية ، إلا إذا تلقينا تعليمات بالرحيل من قبل سيدنا حاكم البندقية» .

وعند ذلك أجاب الامبراطور قائلاً «أنت ، يا ريان السفن الكبيرة، هل سلحك وبضائعك ليست آمنة فى مدينتى ، حتى تضعها على متن سفينتك ؟ حقاً لقد فهمت ما تخطط له ، من أجل الهرب ذات ليلة، وتركى حزيناً كاسف البال فى مواجهة ذلك التركى الكافر، عديم الايمان، عدوى الذى قام بسبى من قبل» .

١- اشارة إلى استيلاء اللاتين على القسطنطينية بعد أحداث الحملة الصليبية الرابعة ١٢٠٤-١٢٦١ م .

٢- المقصود به هنا هو السلطان محمد الفاتح ، ويمكننا أن نلاحظ أن المؤلف نيقولو باربارو يستخدم أكثر من اسم وأكثر من صيغة فى الاشارة إليه . فهو هنا محمد بك ، أو محمد بك ابن مراد التركى ، ص ٨١ أو السلطان كما فى ص ٨٢ ، أو الخان كما فى ص ٨٤ .

وفى النهاية رفض الامبراطور منح ترخيص بأن يجرى تحميل السلع والبضائع على متن السفن، إلا بعد أن يقسم ريان السفن الكبرى أولاً بأنه لن يرحل من الميناء دون الحصول على إذن من الامبراطور .

وهكذا أقسم الريان أنه لن يقوم بالرحيل بدون إذن أو تصريح من جلالته . وعند ذلك الحد، قام الامبراطور بالموافقة على تحميل التجار لسلعهم وبضائعهم على متن السفن ، وكذلك تفريغها عن طيب خاطر ، كما لو كنا فى وطننا الأم. واستغرقنا طوال اليوم فى عمليات الشحن التى جرى فيها شحن السلع والبضائع التى سوف يأتى ذكرها لاحقاً، والتى وصلت بالفعل إلى البندقية على متن تلك السفن فيما بعد ، بعد سقوط مدينة القسطنطينية :

الحرير	٨٢ بالة	الشمع	٤٣٨ بالة
النحاس الأحمر	٦١٤ بالة	الصبغة القرمزية	٣١ بالة
النيلة	٤ بالة	Lacquer ^(١)	٦ بالة
الزنجبيل	١١ بالة	الشيخ الخراسانى	١ بالة
خام الذهب	٣ بالة	المصطكة	٧ بالة
المجموع = ١١٩٧ بالة			

وفى يوم السادس والعشرين من يناير ، وصل إلى القسطنطينية جوان جستنان Zuan ، على رأس سفينة على حمولتها ١٢ ألف Zustignan الجنوى^(٢) ،

١- لم أعثر - خلال فترة البحث- على ترجمة دقيقة لهذه السلعة . وربما كانت «صمغ الك» Gomme Laque ، الذى كان يستعمل للصبغة ، ومعاجين التلميع. وكان صمغ الك موجوداً بشكل دائم فى قوائم التجارة فى العصور الوسطى انظر . هايد ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى، فى العصور الوسطى، ترجمة أحمد رضا محمد، ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٩٤م، ص ١٢٧-١٢٨ . وإذا كان ما توصلنا إليه صحيحاً، فلا بد أن صمغ الك Gomme Laque ما زال يستعمل فى صبغة وتلميع الأخشاب حتى الآن . وهو ما يطلق عليه المصريون المحدثون «الجملك».

٢- هو القائد العسكرى الحنوى الشهير ، جيوفانى جستنيانى Giovanni Guistiniani وصل إلى القسطنطينية على متن سفينتين حريتين كبيرتين ورافقته ٧٠٠ مقاتل اربعمائة منهم من جنوا ، والباقي من جزيرتى رودس وخيوس . رحب به الامبراطور قسطنطين الحادى عشر لدى وصوله . وقام بتعيينه قائداً للقوات البيزنطية البرية، وأصبح مسئولاً عن حماية وحراسة أسوار القسطنطينية، وخاصة الأسوار القريبة من القصر الامبراطورى، لأن جستنيانى لاحظ أن السلطان محمد الفاتح قام بنصب مدفعه مقابل تلك الأسوار =

Botte^(١)، وسفينة أخرى حمولتها ٨٠٠ Botte، برفقة ٧٠٠ رجل، وحضر جستنان للقسطنطينية لأنه أدرك مدى حاجة القسطنطينية إليه، وكذلك من أجل رفعة وسمو الدين المسيحي .

قام الامبراطور باستبقاء تلك السفن التابعة له من أجل الحماية والتأمين، وبعد عدة أيام قام بمنح جوان جستنان شينية طويلة، وقام بتعيينه قائداً على قواته البرية، ليبشر عمله

= وأصدر الامبراطور مرسوماً ذهبياً بمنح جستنياني جزيرة ليمنوس Lemnos إذا ما تم اجبار العثمانيين على الانسحاب من أمام أسوار القسطنطينية . وحسب شهادة المؤرخ البيزنطي دوكاس فإن جنود جستنياني من اللاتين حاربوا كالأبطال ، وقاموا بهجمات مفاجئة عند البوابات ، وواجهوا الأتراك في قتال متلاحم . كما أن جستنياني قام بمحاولات متكررة لترميم الأسوار التي أصابها مدفعية محمد الفاتح . ولم ينسحب من القتال إلا بعد اصابت بزخات من الرصاص خلف ذراعه، عند ذلك صاح بالامبراطور «إثبت مكانك بقوة ، بينما سأتوجه نحو سفيتي لأجد طبيباً يهتم بجرحي لأعود بسرعة»، لكنه لم يعد أبداً، الأمر الذي أدى إلى انسحاب قواته أيضاً، وإلى ضعف المقاومة إزاء العثمانيين. عن الدور الكبير الذي لعب جستنياني انظر المصادر المعاصرة التالية:

Doukas, Op. cit, pp. 211-12 , 217 -19 , 221-24 ; Kritovoulus . Op. cit , pp. 69-70 ;

Sphrantzes , Op. cit, p. 103 , 106 , 110 , 116 , 127 , 146 , 148 ; Chalcondylas , Op cit , p.

50 , Tedaldi , Op. cit, p. 7 ,

الذي تحدث عن النزاع بين جستنياني الميجانوك فوتاراس . Leonard of Chios , Op. cit, pp. 29-30 .

Lomellino , Op . cit, p. 132 , Riccherio, Op. cit, pp. 121-22 .

انظر أيضاً البروفسير رنسمان الذي يحدد وصول جستنياني للقسطنطينية بيوم ٢٩ يناير ١٤٥٢ م .

Runciman , Op. cit , pp. 83-84 , 129, 131 , 135 , 138-39 , 150 ; Babinger , Op. cit, pp. 79 . 86-87 , 90-93 .

Nicol , " The Last Centuries of Byzantium , pp. 407-408 ; Kielty , Op. cit, p. 126 .

انظر أيضاً . صلاح ضبيغ . العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية البيزنطية ١٢٦١-١٤٥٢ م ، ص ٢٩٢ : السيد محمد المتولى ، النولة البيزنطية في عالم القرن الخامس عشر ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٨م، ص ١٤١، ١٤٢ .

١- بوتّا Botte ، مقياس للزيوت كان يساوى طن واحد في السفينة التجارية في العصور الوسطى. انظر:

De Roover, Op. cit, pp. 50-51 .

فى مراقبة جيش محمد بك التركى، من فوق أسوار المدينة ، حيث كان من المتوقع أن يهاجم مدينة القسطنطينية التعسة، يوماً بعد يوم .

وفى ليلة السابع والعشرين من فبراير، أبحر بييرو دافانزو Piero Davanzo^(١) بسفينته من الميناء باتجاه البندقية ، وأبحرت فى تلك الليلة أيضاً ست سفن تابعة لكandia (كريت)، نحو الوطن الأم محملة ببالات الملابس ، واعتماداً على سرعة الرياح الشمالية والشرقية التى بلغت عشرة أميال فى الساعة ، قامت السفن السبع بالابحار فى سهولة ويسر.

وكان قد تم استبقاء تلك السفن السبع أيضاً بواسطة مجمع الاثنى عشر. مثلما حدث لسفننا ، وكان السبب الرئيسى وراء هروبهم هو خوفهم وفزعهم من الأتراك الذين اعتزموا مهاجمة المدينة، ذلك الهجوم الذى كان متوقعاً بشكل يومى.

وقام العديد من الأشخاص نوى الأهمية بالهرب على متن تلك السفن ، بحيث وصل ٧٠٠ شخص بأمان إلى مكان قريب من Tenedos^(٢) ، دون أن يلحظهم الأسطول التركى، الذى ما أن بدأ فى ملاحظتهم ، حتى كانوا قد نجحوا فى العبور من مضائق غاليبولى ، حيث تفرقت السفن عن بعضها البعض، فأتجهت السفن الست إلى كandia ، بينما اتجه بييرو دافانزو إلى البندقية ، وهكذا وصلت السفن السبع إلى موانئها بسلام.

وبينما كان الامبراطور يفكر ملياً فى تلك الأحداث، حضر الأتراك لمهاجمة مدينة القسطنطينية الباسية، ونظراً لتمييز أسوار المدينة بمناعتها وسمكها الذى يتراوح ما بين عشرة إلى اثنتى عشر قدماً ، أو أكثر من ذلك ، فيما عدا الأسوار القريبة من القصر، التى عرفت بضعفها الشديد، وكانت تقتقر إلى الشرفات العلوية المحصنة Barbicans وكذلك إلى وجود

١- يتفق بابنجر Babinger مع ما ذكره باربارو من هروب بييرو دافانزو بسفينته من خليج القرن الذهبى فى ٢٦ فبراير ١٤٥٣ م . برفقة ست سفن أخرى تابعة لجزيرة كريت (كandia)، كما يذكر أيضاً هروب ٧٠٠ شخص على متن تلك السفن السبع ، انظر:

Mehmed The Conqueror , p. 83 . Nicol , Op. cit , p. 396 .

٢- هذا هو الاسم القديم لها ، واسمها الحالى بوزجادا Bozcaada وهى جزيرة تركية تقع شمال شرقى بحر ايجيه ، تحكى الأسطورة القديمة أنها كانت قاعدة عبر من خلالها الملك الفارس اكسرخسن Xerxes إلى بلاد اليونان ، عن ذلك انظر . W.N.G.D. pp. 167 , 1195 .

خندق تحتها ، فقد اتخذ الامبراطور ترتيباته بالعناية بتحسيناتها ، حتى لايقوم الأتراك عند قدومهم باحداث خسائر كبيرة فى تلك الناحية.

ورغبة منه فى اتخاذ الاستعدادات اللازمة ، طلب الامبراطور من ريان السفن القادمة من تانا Tana مسانده عبر التحرك بسفنه نحو القصر ، وأن يجعل البحارة يقومون بحفر خندق حول القصر لحمايته ، يبلغ طوله مائة خطوة ، وعمقه ثمانية أقدام.

أجاب الريان على الإمبراطور قائلاً ، «سوف أقوم بتنفيذ ما تريد ، من أجل شرف الرب، وشرف الدين المسيحى، وطاعة لجلالتكم حيث تتعرضون لهجوم الأتراك ، ومن أجل أن نجعل مدينتك قوية وحصينة، ولهذا سوف أتخذ طريقى بسفنى فى صباح يوم الاثنين، وسوف أحضر إلى بوابة شينيغو Chinigo ، وهناك عندما ننزل إلى الشاطئ سوف يقوم كل شخص بدوره المرسوم له بشجاعة» .

وعندما جاء يوم الاثنين الرابع عشر من مارس ، اتخذ ريانا طريقه بسفنه ، وتوجه نحو المكان الذى أمر به الامبراطور، وقام بالقاء مراسى السفن به ، وبعد ذلك توجه كل شخص طواعية إلى الساحل ، واستخدم البعض الجواريف Spades ، بينما استخدم الآخرون المعاول Picks ، واستعمل بعضهم الصناديق لحمل التراب.

وقف الامبراطور برفقة نبلائه يراقبون هذا العمل الرائع ، وقام كل ريان بغرس العلم الذى يحمله فى نقطة معينة على الأرض ليكون بمثابة نقطة تجمع لرجاله . وفى نفس اليوم تم حفر خندق طويل للغاية ، وعمل الجميع بارادة قوية ، بفضل محبة الرب، وتلهفهم على ايقاف تقدم الأتراك ، ومنع هجماتهم من الوصول إلى الأسوار .

بحلول المساء ، قام الامبراطور بتوجيه الشكر والتقدير والامتنان للريان ، على المساندة والدعم الذى قام بهما تحت اسم حاكمنا ، سيد البندقية، وأمر الريان كابريل تريفيكسان ريان السفينتين الخفيفتين بالرحيل مع سفينته ، وحفر خندق عميق، مثلما فعل مع بحارته من أجل تحصين أسوار القصر. وأطاع كابريل الأمر، فاستمر فى أعمال الحفر حتى غروب الشمس ، وبعدها توجه إلى موقعه من أجل أن يقوم بالقاء مراسى سفنه ، وكان ذلك يوم الرابع عشر من شهر مارس ١٤٥٢م.

فى اليوم الأخير من شهر مارس، الموافق السبت عيد الفصح Easter ، أصدر الامبراطور الأجلّ أمراً لريان السفن القادمة من تانا Tana ، بالانتهاء من حفر الجزء المتبقى من الخندق،

حتى يصبح المكان محصناً تماماً. وأراد الإمبراطور أن يحضر بنفسه ، ومعه نبلائه، من أجل استعجال عملية حفر الخندق ، وقبيل الغروب بساعة وصل الريان إلى الميناء حيث رست السفن، ثم رحل عن الميناء فجر يوم السبت برفقة سفنه الثلاث الكبيرة ، وتوجه نحو Chinigo حيث مكان الحفر، حيث وجد بانتظاره الامبراطور ، وعدد كبير من نبلائه .

عندما قامت السفن بالرسو ، قدم الوفيكس ديبو نفسه للإمبراطور ، وبدأت أعمال الحفر، وشرع الجميع في ذلك . الربابنة ، عرفاء الملاحين والملاحين، كافة ضباط السفن، وكذلك رماة السهام ونواب الربابنة ، حيث قام الجميع بعمليات الحفر بإرادة قوية .

قام البعض بالحفر، والبعض الآخر بحمل التراب، وتم تنفيذ جزء كبير من العمل خلال ذلك اليوم لأن الجميع عملوا بفرح وهم مسرورين لما يقومون به . وكذلك لأن الإمبراطور كان يراقبهم ابان عملهم ، وكذلك فعل الريان ، وطوال الوقت الذي جرى خلاله العمل ، كان الإمبراطور قد أمر بتعيين جندي حراسه يتمركز فوق الأسوار لمراقبة الأتراك ، في حالة مهاجمتهم العاملين في حفر الخندق ، وبفضل رحمة الرب لم يحضر الأتراك قبل الانتهاء من حفره ، وعندما حل وقت الصلاة Compline^(١) في المساء ، كانت عملية الحفر قد انتهت، ورحلت السفن نحو موقعها السابق عند منطقة بيرا Pera^(٢).

١- Compline : هي الصلاة السابعة والأخيرة ، وتقام قبل النوم .

٢- بيرا Pera أو غلطة Galata هي مستعمرة تقع شمال القرن الذهبي في مواجهة القسطنطينية كانت بها جالية يهودية امتهنت التجارة حتى العام ١٢٠٢م عندما داهمها الصليبيون في الحملة الصليبية الرابعة ، استعادها الامبراطور ميخائيل الثامن باليولوغس ١٢٦١م ثم قام بمنحها إلى التجار الجنوبية ١٢٦٧م وأصبحت غلطة أو بيرا في عهد الجنوبية مركزاً عالمياً للتجارة . حتى استولى عليها العثمانيون ١٤٥٣م. وحافظ السلطان محمد الفاتح على امتيازات الجنوبية بها بعد مساعدتهم له في فتح القسطنطينية ، انظر : O.D.B. vol , 2 , pp. 815-16 .

هايد ، تاريخ التجارة ، ج ٢ ، ص ١٤٥-١٤٧ ، ١٦٨-١٧٢ .

انظر المعاهدة التي أبرمها الجنوبية في بيرا مع السلطان محمد الفاتح بعد سقوط القسطنطينية مباشرة.

Lomellino , in " The Siege of Constantinople", pp. 136-37 .

وانظر العمل الكلاسيكي الهام حول المستعمرة الجنوبية التجارية في غلطة (بيرا) :

Sauli , D. L. Della Colonia Dei Genovesi in Galata 2 . Tomo, Turin, 1831 .

وفى الثانى من أبريل ، أمر الإمبراطور الأكثر إجلالاً ، بارتولوميو سوليغو - Bartolemio So- ligo^(١) بأن يقوم بمد السلسلة Boom^(٢) عبر الميناء من القسطنطينية إلى بيراء. وبالفعل قام بارتولوميو بتنفيذ أمر الإمبراطور ، ومد السلسلة ، التى كانت تتكون من قطع ضخمة ومستديرة من الخشب، جرى ربطها جيداً بمسامير طويلة من الحديد. وحلقات حديدية سميكة، وامتد طرفها من داخل أسوار القسطنطينية وطرفها الثانى من داخل أسوار بيراء، من أجل تحقيق الأمان التام.

١- كان سوليغو مهندساً جنوبياً، ومسئولاً عن إغلاق سلسلة الميناء فى وجه الأسطول العثمانى ، حتى لا يستطيع الدخول إلى خليج القرن الذهبى. كما تسلم أيضاً قيادة الأسطول البيزنطى الذى جرى تكليفه بحراسة السلسلة والدفاع عنها. وهو الأسطول الذى تكون من عشر سفن خمس منها تابعه لجنوا، وثلاث سفن تابعة لجزيرة كريت، وسفینتين لكل من أنكونا والقسطنطينية، عن ذلك انظر:

Runciman, Op. cit, pp. 86-94 .

٢- استخدمت العديد من المدن البحرية فى العصور الوسطى سلسلة حديدية طويلة لحماية موانئها، من ذلك السلسلة الحديدية التى كانت بميناء دمياط، والتى استولى عليها جنود الحملة الصليبية الخامسة ١٢١٩م حتى يستطيعوا إخضاع المدينة . انظر : المقرئى ، المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١ ، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص ١٥ : محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، القاهرة ١٩٨٥م، ص ١٨٧ : وعن استيلاء الحملة الصليبية السابعة على ميناء دمياط ١٢٥٠م، انظر المقرئى، المصدر السابق، ص ٢٢٠ : جواتفيل ، القديس لويس حياته وحملاته على مصر والشام، ترجمة حسن حبشى ، القاهرة ، ١٩٦٨م، ص ٩٤-٩٦ .

وعلى الرغم من مناعة سلسلة القرن الذهبى ، فانها لم تستطع إيقاف تقدم سفن الحملة الصليبية الرابعة، حيث قامت بتحطيمها والاستيلاء على مدينة القسطنطينية ١٢٠٤م، انظر روبرت كلارى، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمة حسن حبشى، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٨١ «كانت ميناء القسطنطينية أمنة كل الأمن لوجود سلسلة حديدية ضخمة ، قد ثبت أحد طرفيها فى المدينة، والطرف الآخر عند برج جلطه بعد عبورها الميناء » وانظر أيضاً فلهارديان: فتح القسطنطينية ، ترجمة حسن حبشى ، جدة، ١٩٨٢م، ص ٩٧ «... اتفق رأى باروناتنا على أن يعسكروا عند الميناء أمام برج غلطة ، حيث تمتد سلسلة تسد ميناء القسطنطينية التى لا يمكن للمرء. دخولها إلا إذا اجتاز هذه السلسلة قسراً...».

ويذكر بوكاس أن البيزنطيين قاموا بفتح السلسلة فى يوم الثانى من أبريل ١٤٥٣م لاستقبال السفن الخمس التى وصلت لمساعدة القسطنطينية انظر. "Decline and Fall of Byzantium", p. 85 . واحتفظ العثمانيون بعد الفتح بهذه السلسلة، وهى موجودة الآن فى متحف طوب كابي Top Kapi .

عندما تم بسط السلسلة عبر الميناء، ثار سؤال حول وضع الترتيبات من أجل الدفاعات البرية، ولهذا توجه كافة نبلاء القسطنطينية للامبراطور، واحاطوه علماً بوجوب تعيين أربعة قادة عسكريين عند بوابات المدينة الأربعة، وأن يتمركز هؤلاء عند الجانب البري باتجاه اليايسة.

وبناء على ذلك أجاب الامبراطور الأجل برفق، أن القسطنطينية تخص البنادقة أكثر مما تخص البيزنطيين، ولأنه وضع ثقته في البنادقة بشكل كبير، فقد رغب في وضع البوابات الأربع للمدينة، مع مفاتيحها، تحت مسئوليتهم.

وبالفعل قام الامبراطور بتنفيذ ما خطط له، وتقلد أربعة نبلاء بنادقة هذه المهمة، بعد أن نادى النبلاء البنادقة بعقد مجمع الاثنى عشر، وتم فيه منح الأبواب الأربعة بواسطة المجمع إلى أربعة من نبلائنا.

تم منح مهمة حماية البوابة الأولى المعروفة باسم كريسكا Ciesca^(١) إلى كاتارين كونتارينى Catarn Contarni^(٢)، وحماية البوابة الثانية إلى فابروزي كورنر، وعهد بحماية البوابة الثالثة

١- هي نفس البوابة المعروفة باسم البوابة الذهبية Golden Gate.

٢- عن دور كاتارين كونتارينى في حراسة البوابة الذهبية. انظر:

Nicol, "Byzantium and Venice", pp. 400, 405.

الذى يذكر أيضاً سقوط كونتارينى أسيراً في يد العثمانيين بعد سقوط القسطنطينية وبرفقتة العديد من البنادقة مثل كابريل تريفيكسان Cabriele Trivixan، وزكريا جريونى Zaccaria Griom: انظر كذلك.

Bartusis, M, The Late Byzantine Army, Arms and Society, 1204-1453, philadelphia, 1992, p. 124.

وانظر أيضاً المصادر التاريخية التي ذكرت دور كاتارين كونتارينى وباقي النبلاء البنادقة في حراسة بوابات القسطنطينية:

Dolfin, Z, "Cronaca, FF. 313-322 (Selectas), pp. 125-130, ep. p. 129.

كما أشاد ليونارد الخيوسى ببسالة كونتارينى عند البوابة الذهبية. انظر:

Leonard of Chios, in, Jones (ed.), "The Siege of Constantinople 1453" pp. 11-41. esp. p. 27.

إلى نيقولو موزينجو ، وهى التى عرفت باسم Elpigi . أما البوابة الرابعة والأخيرة ، الموجودة بالقرب من قصر الامبراطور الأجل ، فقد عهد بها إلى دولفين دولفين Dolfin Dolfin^(١) .

وحصل هؤلاء النبلاء الأربعة على مفاتيح تلك البوابات وقاموا بحراستها بشكل جيد .

وبدأ القتال منذ ذلك الوقت فصاعداً ، وحضر السلطان وقام بنصب معسكره حول المدينة . وبهذا الخصوص ، فانتى أنوى أولاً أن أذكر كافة أسماء النبلاء البنادقة الذين كانوا فى مدينة القسطنطينية عندما بدأت الحرب ضد محمد بك ، من أجل الذكرى الأبدية ، وحتى يتم التعرف على جميع النبلاء الذين حضروا الحرب :

- ١- السيد جيروليمو مينوتو بايل القسطنطينية .
- ٢- السيد جورجى مينوتو ابن السيد جيروليمو .
- ٣- السيد بولو مينوتو ابن السيد جيروليمو^(٢) .
- ٤- السيد الفيكس ديبو قبطان السفينة القادمه من تانا .
- ٥- السيد ماركو ديبو ابن السيد الفيكس .
- ٦- السيد كابريل تريفيكسان نائب القبطان على السفينتين .
- ٧- السيد ماركو تريفيكسان ابن السيد جابريل .
- ٨- السيد زكريا جريونى ، الفارس الذى تم ذكره سابقاً .
- ٩- السيد سيلفسترو تريفيكسان ربان الشينية الكبيرة .
- ١٠- السيد جاكومو كوكو ربان الشينية الكبيرة .
- ١١- السيد جيروليمو موريكسينى ابن السيد برناردو ربان الشينية الكبيرة .

١- عن الدور الذى قام به كل من : دولفين دولفين ، وفابريوزى كورنر ونيقولو موزينجو فى حراسة باقى بوابات القسطنطينية . انظر :

Nicol, Op. cit , p. 400 .

٢- يبدو أنه ابن البابل البندقى جيروليمو مينوتو . ولم ترد عنه أية اشارة بالكتاب تفيد بذلك . على عكس أخيه جورجى مينوتو .

أخوان

[

۱۲- السيد كاتارين كوتارينى ابن السيد جوان.

۱۳- السيد مارتن كوتارينى ابن السيد برتوزى.

۱۴- السيد بيرو كوتارينى ابن السيد جاكامو

۱۵- السيد الويز كوتارينى ابن السيد جاكامو.

۱۶- السيد جابريل كوتارينى ابن السيد نيقولو

۱۷- السيد نيقولو موريكسينى ابن السيد جاكامو .

۱۸- السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو .

۱۹- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو .

۲۰- السيد دومينجو بالبي ابن السيد نيقولو .

۲۱- السيد نيقولو بالبي ابن السيد مارين .

۲۲- السيد برناردو بالبي ابن السيد دومينجو .

۲۳- السيد الويز بيمبو ابن السيد بينتن .

۲۴- السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينتن

۲۵- السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليوناردو الأول.

۲۶- السيد توما موزينجو ابن السيد مارين.

۲۷- السيد الويز نافاير ابن السيد ميخائيل.

۲۸- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ...

۲۹- السيد انطونيو دى كا دى بيكسارو ابن السيد بييرو.

۳۰- السيد بييرو ناننى ابن السيد جوان.

۳۱- السيد بييرو تريفيكسان ابن السيد جوان .

۳۲- السيد ادامو تريفيكسان ابن السيد ...

۳۳- السيد ميشيل بولدو ابن السيد بينيدتو

أخوان

[

- ٣٤- السيد باتيستا جرينى ابن السيد أومويون .
- ٣٥- السيد لوكا جريتي ابن السيد تريادان .
- ٣٦- السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو.
- ٣٧- السيد نيقولو باربارو ابن السيد ماركو^(١)
- ٣٨- السيد فرانثيسكو فانيير ابن السيد برناردو.
- ٣٩- السيد جوان فانيير ريان السفينه القادمه من كانديا (كريت) .
- ٤٠- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .
- ٤١- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو.
- ٤٢- السيد اليز دى بريولى ابن السيد بييرو.
- ٤٣- السيد انطونيو كويو ابن السيد جاكامو.
- ٤٤- السيد قابروزي كورنر ابن السيد جوان.
- ٤٥- السيد جيروليمو أبرامو ابن السيد أنطونيو .
- ٤٦- السيد ماركوا أبرامو الكريتي.
- ٤٧- السيد اليساندرو لولينى ابن السيد أنزولو
- ٤٨- السيد جوان لولينى ابن السيد انزولو.
- ٤٩- السيد نادال سينولو الكريتي .
- ٥٠- السيد بييرو بارباريجو الكريتي .
- ٥١- السيد دانيال فيتورى ابن السيد رينيه .
- ٥٢- السيد أندريا مالبيريرو ابن السيد ...

أخوان

أخوان

١- لم يغفل نيقولو باربارو ذكر اسمه ضمن البنادقة الموجودين بالقسطنطينية ابان الحصار العثماني للمدينة ١٤٥٢م . وهذه هي المرة الأولى التي يذكر المؤلف اسمه داخل يومياته . حيث سيشير إلى ذلك عدة مرات فى الصفحات الأخيرة من كتابه .

- ٥٣- السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو .
- ٥٤- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دونانو .
- ٥٥- السيد فرانثيسكو ميشيل ابن السيد
- ٥٦- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقولو .
- ٥٧- السيد فانتين جن ابن السيد انطونيو .
- ٥٨- السيد دونالد ترون ابن السيد بييرو .
- ٥٩- السيد زكريا دا موليني ابن السيد جوان .
- ٦٠- السيد ماركو داليزي ابن السيد فرانثيسكو .
- ٦١- السيد نيقولو بيزاني ابن السيد اندريا .
- ٦٢- السيد الويز دي كانال بن السيد بورت .
- ٦٣- السيد جيروليمو دي كانال ابن السيد بورت .
- ٦٤- السيد جاكامو تايا بييرا ابن السيد بييرو .
- ٦٥- السيد فيليبو كونتارينى ابن السيد
- ٦٦- السيد دولفين دولفين ابن السيد دومينجو .
- ٦٧- السيد بورتولو جورجى ابن السيد فرانثيسكو .

أخوان

وهنا تبدأ قصة حصار المدينة حيث تتابعت الاشتباكات بشكل يومى ، كما سوف أبين ذلك فيما يلى :

فى الخامس من شهر أبريل وبعد الفجر بساعة ، حضر محمد بك أمام القسطنطينية على رأس مائة وستين ألف رجل^(١)، وأقام معسكره على مسافة ميلين ونصف من أسوار المدينة.

١- يذكر نيقولو باربارو هنا أن عدد قوات محمد الفاتح بلغ مائة وستين ألف مقاتل قبل فتح القسطنطينية بشهرين تقريباً . لكنه يعود فيذكر أن الهجوم العثماني النهائي على المدينة (فجر التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٢م) كان بواسطة مائة وخمسين ألف مقاتل تحت قيادة السلطان محمد الفاتح. عن ذلك انظر ما يلى، ص ١٦٨ .

فى السادس من هذا الشهر ، تحرك الامبراطور التركى بنصف قواته إلى مسافة ميل واحد من أسوار المدينة . وفى السابع من نفس الشهر، تحرك مع جزء كبير من قواته لمسافة ربع ميل عن الأسوار وانتشر جنوده فى خط بطول أسوار المدينة ، التى بلغ طولها ستة أميال. من بوابة كريسكا Cresca إلى بوابة Chingino .

وشرع الأتراك منذ ذلك الوقت فى عمليات القتال ضد المدينة ، وبدأت استعداداتهم من أجل الهجوم، ولم ينجح ذلك العدو الوثئى فى تنفيذ خطته تجاهنا، ونتيجة لأمر الامبراطور الأجل ، توجه كل قائد من المسؤولين عن البوابات أو القلاع، أو القادة الآخرين ، كل إلى موقعه برفقة رجاله ، من أجل القيام بأعمال الحراسة، ومراقبة عدونا .

فى يوم السادس من أبريل ، اتخذ الامبراطور الأجل موقعه على الأسوار عند الجانب البرى القريب من البوابة المعروفة باسم Cressu ، التى كانت تعد أضعف من باقى البوابات الأخرى . وكان برفقة الامبراطور عدد ضخم من باروناته ، وفرسانه، من أجل تقديم الدعم والمساندة . وعلى الرغم من كل هذا، كان الامبراطور مسكوناً بالشك تجاه كافة ما يتعلق بعبوه التركى الغادر، الذى ينتظر نشوب المعركة معه، يوماً بعد يوم.

ومرة ثانية فى السادس من أبريل أيضاً، غادر قنصلنا البندقى جيروليمو مينوتو قصره ، وتوجه إلى قصر الامبراطور الذى كان قريباً من الأسوار، وحضر لمشاهدة التجهيزات التى جرى اتخاذها حول الأسوار ، وذلك لكى يتأكد من أنه لايمكن لأحد أن يقوم باقتحام

= والجدير بالذكر أن المصادر قد اختلفت بشكل واضح حول تعداد الجيش العثمانى المحاصر للقسطنطينية فعلى حين ذكر خالكوكونديليس Chalcocondylas أنه بلغ ٤٠٠ ألف رجل، ذكر بوكاس Doukas أنه أكثر من ٤٠٠ ألف رجل، بينما ذكر فرانتزس Sphrantzes أنه تألف من ٢٠٠ ألف مقاتل، انظر:

Chalcocondylas, Op. cit, p. 43 , Doukas , Op. cit, p. 83 , Idem , p. 212 ; Sphrantzes,

“The Fall of The Byzantine Empire”, p. 69

أما مؤرخ عصر محمد الفاتح فرانتز بابنجر Franz Babinger فيناقش أعداد الجيش العثمانى ، ويصفها بالمبالغة الكبيرة ، ويذكر أن أعداد المقاتلين العثمانيين كانت تزيد قليلاً عن ٨٠ ألف مقاتل فقط. بإضافة الرجال الذين لايشتركون فى القتال بشكل مباشر. ويذكر أن احكانيات البولة العثمانية آنذاك لم تكن تسمح بجمع ١٦٥ ألف مقاتل. (فى قراءة خاطئة لما ذكره نيقولو باربارو (١٦٠ ألف) علاوة على أن بابنجر قام بقراءة خاطئة للأعداد التى ذكرها بوكاس ٢٦٥ ألف مقاتل، وفرانتزس ٢٥٨ ألف مقاتل!! انظر: Babinger, Op. cit,p.84

القصر، الذي كان يحوى الآن العديد من تجارنا النبلاء، الذين قاموا بملازمة قنصلنا، وأمدّوه - والمدينة- بالدعم والمساندة .

كان القائد العسكرى الأعلى Megaduk^(١)، الرجل الأكثر أهمية فى القسطنطينية - بعد الامبراطور- يقوم بحراسة السواحل بالقرب من الميناء، وكان لديه مائة جواد. بشكل احتياطى قام بالاحتفاظ بهم من أجل استخدامهم فى ارسال المساعدة للمدينة ، كلما كان ذلك ضرورياً. وكان الرهبان يقومون أيضاً بأعمال الحراسة على مسافة ميل من الأسوار البحرية. وقام التركى دورجانو Dorgano^(٢)، الذى كان يعمل فى خدمة الامبراطور بالقسطنطينية، بحراسة

١- تم ابتداء هذا اللقب بعد العام ١٠٨٥م وكان يعنى قائد الأسطول. واستمر اللقب حتى العام ١٤٥٣م يضمن لصاحبه مكانة عليا فى الوظائف الرسمية. كما حمل هذا اللقب عدداً من الأجانب غير البيزنطيين. وكان يعنى هذا اللقب «القائد الأعلى للجيش» فى ابان الحصار ثم الفوز العثمانى للمدينة ، وكان نوتاراس Notaras هو القائد البيزنطى الذى حمل لقب Megadux آنذاك . انظر:

O. D. B. vol , 2 , p. 1330 ; Nicol, Op. cit , p. 439 .

كذلك استخدم هذا اللقب Mega doux للإشارة إلى منصب القائد العسكرى للأقاليم البيزنطية الغربية منذ بداية القرن الرابع عشر الميلادى . انظر:

وسام عبد العزيز فرج ، الألقاب والمناصب الحكومية فى بيزنطة بين الاستمرار والانقطاع. الكتاب السنوى الثالث ، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية، تحرير : أحمد عثمان ، القاهرة ، ١٩٨٨م، ص٢١٧ .

٢- كان اسمه الحقيقى أورخان Orhan ، وهو بن الأمير سليمان بن بايزيد ، ونتيجة للهزيمة المروعة التى حدثت للعثمانيين فى موقعة أنقره ١٤٠٢م على يد تيمور لنگ، وأسر السلطان بايزيد وموته فيما بعد ، اجتاحت الحرب الأهلية البيت العثمانى، وتنافس أبناء بايزيد محمد وموسى وسليمان على الحكم . ولعب الامبراطور البيزنطى مانويل الثانى باليولوغس Manuel II Palaologus (١٣٩١-١٤٢٥م) على وتر الحرب الأهلية العثمانية، وساند الأمير سليمان فى دعواه لكن هزيمة الأخير أمام أخيه موسى دفعت بابنه أورخان إلى اللجوء للبلاط البيزنطى، مع آخرين من أبناء وبنات البيت العثمانى. عن ذلك انظر:

ابن عربشاه ، عجائب المقدور فى نواب تيمور، تحقيق أحمد فايز الحمصى ، بيروت ، ١٩٨٦ ، ص٢٢٨-٢٢٦ .

القرمانى، أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ ، القاهرة، دت ، ص٣٠١-٣٠٢ ، اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار، ج ١ ، القاهرة ، ١٣١٢هـ ، ص٤٩٦-٤٩٧ .

=

أحد أحياء المدينة، القريبة من البحر، برفقة الأتراك الذين كانوا يعملون تحت امرته، وكان قد تمرد في وقت سابق على سيده.

وهكذا قامت كافة الشخصيات البارزة في القسطنطينية بحراسة المناطق الرئيسية بالمدينة، وكانت هناك حراسة قوية عند بوابة Chinigo بشكل خاص.

Barker , J , Manuel II Palaeologus , 1391 - 1425 , A Study in Later Byzantine States- =
manship , New Jersey , pp. 247-251 .

Doukas , Op. cit, pp. 95-100 ; Nicol, "The Last Centuries" , pp. 95-6 , 400 ; Wittek , p
De la defaite D'Ankara ala Prise de Constantinople, in , R.E.I, XII , 1938 , p. 17 . Hidden ,
A, The Ottoman Dynasty , New York , 1912 , p. 36 .

La Vallée, The Histoire de L'Empire Ottoman , 1855 , p. 158 . Derksen , D , The Cres-
cent and the Cross, New York, 1964 , p. 124 .

Pears, E, The Destruction of the Greek Empire and the Story of the Capture of Con-
stantinople by The Turks, New York, 1968 , p. 149

صلاح محمد ضبيح ، المرجع السابق، ص ٢٠٩-٢١٢ ، ٢٨٠ .

ويذكر لنا المؤرخ البيزنطي دوكاس Doukas أن أورخان هذا قد قتل أبان اقتحام العثمانيين للقسطنطينية، وذلك عندما قام باستبدال ملابسه بملابس أحد الرهبان، ثم قفز من أحد أبراج القسطنطينية إلى خارج المدينة، لكن بعض البحارة العثمانيين قاموا بأسره وحجزه مع الأسرى البيزنطيين في إحدى السفن العثمانية، وأراد أحد الأسرى البيزنطيين افتداء نفسه ، فاستدعى قبطان السفينة ، وأخبره بأمر أورخان Orhan ، وأمر القائد العسكري الأعلى الذي كان ضمن الأسرى. وبعد أن تعرف القبطان العثماني على أورخان، قام بقطع رأسه، والبقاء على حياة القائد العسكري الأعلى

انظر . "Decline and Fall of Byzantium" , pp. 232-233 . وانظر أيضاً :

Kritovoulos, "History of Mehmed. The Conqueror", pp. 74-75 .

حيث يذكر أن أورخان قفز من فوق السور فوات ، ثم قطع الجنود العثمانيون رأسه وقاموا بتقديمها إلى السلطان محمد الفاتح ، الذي كان متلهفاً على القبض عليه ، حياً أو ميتاً. انظر أيضاً.

Runciman , Op. cit , p. 150 .

وأمر الامبراطور فى نفس ذلك اليوم- السادس من أبريل- بأن تشارك السفن الثلاث القادمة من تانا، وكذلك السفينتان اللتان تميزتا بطولهما فى المعركة . واتخذت السفن طريقها من المنطقة التى كانت قد رست فيها، واتجهت نحو اليابسة أو المكان المسمى Chinigo . وبلغ عدد المقاتلين على متن السفن الخمس، ألف رجل، غادروا سفنهم وهم مسلحين بشكل كامل ، ومنظمين جيداً ، وتقدم كل ربان برفقة بحارته، ورفرفرت الرايات أمامهم ، وتقدم القادة العسكريين أمام الربابنة ، وقدموا أنفسهم برفقة رجالهم إلى حضرة الامبراطور الأجل ، وقاموا بالاستفسار منه عن الأوامر الموجهة اليهم.

أصدر الامبراطور أوامره بأن يتوجهوا للدوران حول أسوار المدينة، حتى يراهم أعداؤنا الأتراك الكفرة ، وهم منظمين بشكل جيد ، ويدركوا أن هناك عدداً كبيراً من الرجال بالمدينة . وبالفعل ، توجهوا للدوران حول أسوار المدينة، بطول السور الذى كان يعسكر جيش العدو على مسافة ستة أميال منه ، وبعد ذلك عاد الجميع إلى السفن، وتخلصوا من عتادهم الحربى، وعادت السفن إلى مرساها بالقرب من بيرى . وبعثت تلك القوات الكثير من مشاعر الارتياح والطمأنينة لسكان المدينة، كما تسببت فى إحداث بعض المفاجأة للعدو.

فى يوم التاسع من أبريل ، تمت مشاهدة الأتراك الوثنيين وهم يحضرون برفقة أسطولهم ، وجيشهم البرى، من أجل تحقيق هدفهم اللعين، وهو التدمير الكامل لمدينة القسطنطينية البائسة ، وبدأت الاستعدادات تتخذ مواقعها على جانب الميناء ، ولهذا السبب قمنا بوضع تسع من أضخم السفن بطول السلسلة التى امتدت عبر الميناء ، بحيث رصّت تلك السفن بطول السلسلة من القسطنطينية إلى بيرى، وكانت مسلحة ومنظمة بشكل جيد ، ومستعدة للدخول فى المعركة، بالإضافة إلى سفينة أخرى مجهزة كالأخريات، وكان بيان السفن وربابنتها كالتالى:

جورجى نوريا الجنوى بسفينة حمولتها Botte ٢٥٠٠

جوان جستنان بسفينة حمولتها Botte ١٢٠٠

سفينة تابعة لمدينة انكونا Ancona ، حمولتها Botte ١٠٠٠

سفينة تابعة لامبراطور القسطنطينية ، حمولتها Botte ١٠٠٠

سفينة زوان فانيير من كانديا Candia ، حمولتها Botte ٨٠٠

سفينة تابعة لنيلاماتى من كانديا ، حمولتها Botte ٨٠٠

جیرون كانديا بسفينة حمولتها Botte ٧٠٠

جاتالوكا الجنوى بسفينة حمولتها Botte ٨٠٠

سفينة أخرى من جنوا حمولتها Botte ٦٠٠

بالييجير الجنوى بسفينة حمولتها Botte ٧٠٠

وفى داخل الميناء ، خلف السلسلة ، كانت هناك سبع عشرة سفينة قوية ومجهزة والسفن الثلاثة القادمة من تانا ، بالإضافة إلى السفينتين الخفيفتين القادمتين من البندقية وخمس سفن تابعة للامبراطور، وكانت السفن الأخيرة غير مسلحة، كما كان هناك بعض السفن الفارقة وغير المسلحة ، وذلك لاستخدامها من أجل الحماية فى حالة اطلاق النيران أو قذائف المدافع .

فى يوم الحادى عشر من أبريل ، قام السلطان بنصب مدفعه بالقرب من الأسوار عند الجزء الأضعف منها، وبدأ أنه قد اقترب تماماً من تحقيق هدفه. وتم توزيع المدافع فى أربعة أماكن : ثلاثة مدافع تم نصبها بالقرب من قصر الامبراطور الأجل ، وثلاثة مدافع أخرى تم نصبها بالقرب من بوابة Pigi، ومدفعين عند باب Cressu، وأربعة مدافع أخرى عند بوابة القديس رومانوس St. Romano عند الجزء الأضعف من أسوار المدينة وكان أحد المدافع الأربعة التى تم نصبها عند البوابة الأخيرة ، يقوم بإطلاق قذائفه ، التى يبلغ وزن الواحدة منها حوالى ١٢٠٠ رطلاً ، ويبلغ محيطها ١٣ quarte^(١)، وتسبب تلك القذيفة خسائر فادحة لدى ارتطامها بالأرض . وكان المدفع الثانى يطلق قذيفة يبلغ وزنها ٨٠٠ رطلاً ، ومحيطها ٩ quarte وكان هذان المدفعان هما أكبر مدافع الخان التركى. وتألقت المدافع الأخرى من مقاسات مختلفة ، بحيث تتراوح أوزان قذائفها ما بين ٥٠٠-٢٠٠ رطل ، وما دون ذلك .

١- ال quatre حوالى ٦٩ بوصة مكعبة Cubic Inches حسب المقياس البريطانى للمواد الجافة والسائلة، كما يينغ أيضاً حوالى ٦٧ بوصة مكعبة حسب المقياس الأمريكى للمواد الجافة . انظر:

Webster's New Collegiate Dictionary, Massachusetts . p 1329 (Weights and Measures) .

والحقيقة أن استخدام العثمانيين للمدافع كان له الأثر الأكبر فى اسقاط أسوار القسطنطينية، وخاصة ذلك المدفع الضخم الذى صنعه المهندس المجرى اوربان Urban الذى كان يعمل لدى الامبراطور البيزنطى =

وصل الأسطول التركى إلى ميناء القسطنطينية فيما بين الساعة الثانية والثالثة من يوم الثانى عشر من أبريل، وتوجه ناحية ساحل الأناضول ، الذى كان فى قبضة الأتراك لأنهم إذا ما اتجهوا مباشرة نحو ساحل القسطنطينية، فسوف يواجهون صعوبة كبيرة من قبل أسطولنا المسيحى .

= قسطنطين الحادى عشر، ثم فر إلى العثمانيين حيث حصل على راتب يبلغ أربعة أضعاف ما كان يحصل عليه فى القسطنطينية . وطلب محمد الفاتح من أربان أن يصنع له مدفعاً ضخماً لامتثال له ، وفعلأ برّ أربان بوعده خلال ثلاثة أشهر . وأمر الفاتح باعداد تجربة لاطلاق هذا المدفع الجبار، وبالفعل أحدثت قذيفة المدفع انفجاراً هائلاً ، وسمع انفجارها على بعد عشرة اميال ، وسقطت على مسافة ميل من المدفع ، وأحدثت فجوة فى الأرض عمقها ستة أقدام ونتيجة لما كان يمكن أن تحدثه عملية اطلاق قذيفة المدفع من رعب وهلع للسكان فى مدينة أدرنة - حيث تمت تجربة المدفع العملاق - فان السلطان أمر المنادين بأن يخبروا الناس بأنه سيحدث انفجار هائل ، ربما يؤدى إلى انجهاض النساء الحوامل، أو افقاد البعض للنطق خوفاً وهلعاً . انظر: Doukas , Op. cit, pp. 200-201

وقام المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس بوصف المدفع العملاق بأنه كالحیوان الخرافى الضخم Monster عن المدافع العثمانية ، والمدفع العملاق انظر المصادر المعاصرة التالية:

Kritovoulus, Op. cit, pp. 43-47 ; 51-53 ; Chalcocandylas , Op. cit . pp. 44-45 .

لكنه يذكر أن المهندس أربان كان من إقليم داشيا Dacia برومانيا الحالية انظر أيضاً :

الذى ذكر أن مهندس المدفع كان من ألمانيا . Zorzi Dolfin, Op. cit , p. 127.

Riccherio, C, p. 119 ; Tedaldi, Op. cit , p. 3 ; Leonard of Chios, in , Op. cit pp. 17-18 , 20, 22 , Tursun Bey , op. cit, p. 47 ; Babinger , F , Op. cit , pp. 80-81 , 85-87-88, 89-91 .

انظر أيضاً : صلاح ضبيع ، المرجع السابق، ص ٢٥٧ وكذلك . Schlumberger, Op. cit, pp. 84-88 .

Runciman , Op. cit, p. 78 , 116 .

واللدالة على الآثار المدمرة التى الحقها المدفع العملاق بأسوار القسطنطينية ، قام أحد الباحثين المحدثين بتشبيهه بالنقبة الذرية انظر: . Kielty, Op. cit., p. 125

وانظر أيضاً صورة المدفع العملاق عند عبد الرحمن فبى: ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى كتاب بدائع الزهور ، بحث مستخرج من كتاب ابن اياس (دراسات وبحوث) ، اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة، ١٩٧٣ ، شكل (٨) .

وفى الساعة السابعة من نفس اليوم، وصل الأسطول التركى إلى المرسى المعروف باسم الأعمدة The Columns على مسافة ميلين من القسطنطينية فى اتجاه البحر الأسود، وقام الأسطول بالرسو فى تلك المنطقة ، وتصاعدت صيحات رجاله بطريقة عنيفة ، وتعالّت أصوات الدفوف والصنج ، وهكذا امتلأت قلوب رجالنا على متن السفن، وأولئك الموجودين فى المدينة بالرعب والفرع .

كان الأسطول التركى يتألف من ١٤٥ سفينة من أنواع ، الشينية Galley ^(١) ، Fuste ^(٢) Parandarie ^(٣) و bregantini ^(٤)، فكان به ١٢ سفينة (شينية) مجهزة، ومن سبعين إلى ثمانين سفينة طويلة من نوع Fuste ، ومن عشرين إلى خمس وعشرين سفينة من نوع Parandarie ، والسفن الباقية من نوع bregantini كذلك كان بالأسطول التركى سفينة ذات حمولة تبلغ ٢٠٠ botte ، حضرت من سينوبوليس Sinopolis ^(٥)، محملة بالأحجار من أجل قذائف المدافع ، وأيضاً بالحواجز والألواح الخشبية ، والنخائر اللازمة لامدادات جيشهم.

١- عن الشينيات Galleys ، انظر ما سبق، ص ٨٣، هامش (١) .

٢- عن الـ Fuste انظر ما سبق ، ص ٨٣ ، هامش (٢) .

٣- عن Parandarie . انظر ما سبق ، ص ٨٣ ، هامش (٢) .

٤- استخدم نيقولو باربارو الاسماء الإيطالية للتعريف بالسفن البحرية من ذلك bregantini للدلالة على سفينة بصاريين، انظر : خليفة محمد التليسى، قاموس ايطالى عربى، طرابلس، ١٩٨٢م، ص ١٢٨ ، انظر أيضاً : قاموس عربى ايطالى، ايطالى عربى، لندن ، ١٩٨٩، ص ١٢٤ .

و غالباً ما تعنى brigantini السفينة التى عرفت فى المصادر العربية باسم «الغراب» انظر:-

Dozy , R, Supplément Aux Dictionnaires Arabes, Tom, 2, Beyrouth, 1981 , pp. 204-205,

والغراب اسم من أسماء الشينى، حيث يذكر ذلك ابن ممتى. انظر كتاب قوانين الدواوين ، جمع وتحقيق عزيز سوريال عطية ، القاهرة ، ١٩٩١م، ص ٢٤٠ ، انظر أيضاً : درويش النخيلي، السفن الإسلامية على حروف المعجم، الاسكندرية، ١٩٧٤ ، ص ١٠٤-١١٤ . حيث يتحدث عن الغراب والشينى Galley.

٥- اعتقد أن المقصود بها هى مدينة Sinope ، الميناء الرئيسى والمركز التجارى الهام على البحر الأسود، كانت ميناءً بيزنطياً هاماً ارتبط بعلاقات تجارية مع كرميا Crimea . وذلك قبل أن يقوم الأتراك السلاجقة فى القرن الثالث عشر الاستيلاء عليها، ثم عادت لبيزنطة ، قبل أن يستولى عليها الأتراك السلاجقة ثم العثمانيين فى القرنين الرابع عشر الميلادى . انظر . O. D. B. vol 3, p. 1904 .

بعد أن قام الأسطول التركي بالرسو عند الأعمدة ، لم تحدث تطورات أخرى خلال باقى اليوم، وكان الرجال يتحركون يهدوء ، ولم نكن نحن المسيحيون نعرف ما يفعل عدونا، فرفعنا درجة استعدادنا القتالى ليلاً ونهاراً، كذلك الأمر بالنسبة للسفن، والسلسلة الممدودة فى البحر، منتظرين مجيئهم لمهاجمتنا ساعة بعد أخرى، بينما ظل أسطولهم رابضاً عند الأعمدة .

قمنا بوضع ترتيبات معينة لمنع أعدائنا من القيام بهجوم ليلى أو نهارى مفاجئ ، وقررنا ضرورة وجود رجلين ، يقفان بالتبادل على أسوار بيرا، لمراقبة شروع الأسطول التركى فى التحرك نحونا. وإذا ما رأى المراقبان سفينة واحدة من نوع Fusta أو شينية ، أو bregantino وهى تقوم بالتحرك ، أو أية اشارات أو دلائل على تحرك أى Fusta ، فيجب عليهم الحضور فى الحال، واخبار ربان السفن القادمة من تانا باعتباره المسئول عن الميناء.

وإذا ما وصلت الريان معلومات بتحرك أية سفينة ، كان عليه أن يقوم بالنفخ فى نفير المعركة فى الحال، وكان على كل شخص أن يتفقد أسلحته وأن يكون مستعداً لنشوب القتال . أما أولئك الذين كانوا على متن السفن خلف السلسلة فكان عليهم ضرورة التسليح جيداً. واتخذنا مواقعنا فى انتظار هجوم الأسطول التركى طوال اليوم.

وكما هو واضح تماماً ، فقد كنا نعانى من المتاعب يومياً، وشعرنا بخوف كبير، كما ذكرت سابقاً، ولم نكن لنتخلى عن أسلحتنا ليلاً أو نهاراً، حتى وإن لم يقم اسطولهم بالتحرك، وحتى إذا لم تقم سفينة واحدة به بالتحرك، والاتجاه نحو أناتاليا ^(١) Anatolia أو باتجاه البحر الأسود ، للذهاب نحو قلعتهم المشيدة حديثاً ^(٢).

وعلى الرغم من كل هذا، فلم يحضر أسطولهم لمهاجمتنا ، لكننا لم نقم بالتخلى عن أسلحتنا خشية هجومهم المباغت ليلاً أو نهاراً، وذلك خلال الفترة من الثانى عشر من أبريل، حتى التاسع والعشرين من مايو.

١- يقصد باريارو هنا سواحل الاناضول Anatolia. ولايعرف الباحث سبباً لترجمتها هكذا Anatolia ، علماً بأنها تكررت بالترجمة الصحيحة عدة مرات فى الكتاب انظر الصفحات (١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٦٧) وربما كانت خطأ مطبعياً. وتمتد سواحل مضبة الاناضول التركية فى شبه جزيرة آسيا الصغرى، إلى الشرق من خليج الاسكندرونه Iskanderun حتى البحر الاسود مكونة حوالى ثلاثة أخماس مساحة الاقاليم التركية انظر:

Webster's New Geographical Dictionary , p. 47 .

٢- يقصد باريارو قلعة الروملى حصار. (قاطعة الرقبة) .

جرت أحداث بسيطة سواء في البحر أو على البر في الفترة من الثاني عشر من أبريل ، حتى الثامن عشر من نفس الشهر، من ذلك سقوط القذائف المعتادة ليلاً ونهاراً، وبعض الاشتباكات التي قام بها الأتراك بشكل دائم مع الحراس الموجودين أعلى أسوار المدينة، حيث وصل الأتراك إلى أسفل الأسوار ، وهم يلتمسون القتال، ويشكل خاص جنودهم الانكشارية Janissaries^(١) الذين مثلوا جنود السلطان التركي نفسه، ولم يكن أحد منهم يهاب الموت، وكانوا مثل الأسود الضارية ، وإذا ما قتل واحد أو اثنين منهم، كان زملاؤه يحضرون في الحال، ويخطفون جثث قتلاهم ، ويحملونها على أكتافهم ، كما لو كانوا يحملون خنزيراً ، في روح عالية، ودون حذر، على الرغم من كونهم على مسافة قريبة من أسوار المدينة .

١- الانكشارية Janissaries هم مشاة الجيش النظامي العثماني، والطائفة الممتازة في الجيش الذي كان يعرف باسم القابيقولية (الجيش النظامي الذي يضم الخيالة والمشاة) . وقبل تأسيس الانكشارية ، أي قبل عصر مراد الأول، لم يكن للعثمانيين جيش نظامي. ودعت الحاجة إلى وجود جيش قوى منظم على غرار السلاجقة، فتقرر تأسيس هذا الجيش ، وتشكيل فرقة لتغذيته بالعناصر اللازمة التي عرفت باسم (عجمي أو جاغى) . وليس معروفاً على وجه التحديد تاريخ تأسيس هذا الجيش. وإن كان من المحقق أنه تأسس في النصف الثاني من القرن الرابع عشر الميلادي ، عقب فتح أدرنة . وترجع العديد من الروايات الكلاسيكية التي لا يمكن التأكد منها، وكذا الكثير من قوانين الانكشارية أن تأسيس هذا الجيش كان في العام ١٣٦٢م. انظر:

Midhat Sertoglu , Osmanli Tarih Lügati , 2. Baski , Istanbul, 1986 , p 365 .

وعن دور جنود الانكشارية في فتح القسطنطينية انظر المصادر الآتية :

ويصفهم بأنهم لابسى العمامات البيضاء الشجعان Tursun Bey , Op. cit, pp. 48-49 , 57 .

ويذكر أنهم كانوا يرتدون العمامات البيضاء. Chalcocondylas, Op. cit, pp. 43- 45 .

لكنه يخلط بين الانكشارية والعريان. Doukas, Op. cit, p. 128 ; Leonard of Chios, Op. cit , p. 15 .

وكان خمس الأسرى يؤخذ لخزينة الدولة، ويرسل الباقى إلى الانكشارية (عجمي أو جاغى) في غاليلولى، بعد تعليمهم اللغة التركية، ومبادئ الإسلام من خلال عملهم لدى القرويين الأتراك. وبعد الانتهاء من فتح القسطنطينية ١٤٥٣م، تأسست فرقة أخرى من الانكشارية في العاصمة الجديدة، لتستقبل أيضاً أسرى الحرب، والدوشرمة Devsime (أبناء النصارى)، وبعد تدريب أولئك المبتدئين لمدة ست أو سبع سنوات على الأقل، يؤخذ منهم عدد معين للانكشارية ولم يكن لطائفة الانكشارية حين تأسيسها علاقة بالطريقة البكتاشيه=

وقام رجالنا بتصويب بنادقهم تجاه الأتراك، وكذلك رميهم بالسهام ، فكانوا يسددون الطلقات على الجندي التركي الذى يقوم بنقل جثة رفيقه، مما كان يؤدي إلى سقوط كليهما صريعاً على الأرض . وعلى الرغم من هذا ، فكان الأتراك يحضرون ثانية ، ويقومون بنقل جثثهم بعيداً ، دون خوف من الموت، فقد كانوا يفضلون أن يتم قتل عشرة منهم عن معاناة العار الذى سيلحق بهم إذا ما تركوا جثة تركية واحدة عند الأسوار.

وفى الساعة الثانية من ليلة الثامن عشر من أبريل ، اتجه عدد كبير من الجنود الأتراك باتجاه الأسوار، واستمرت المناوشات بينهم وبين البيزنطيين حتى الساعة السادسة . وقتل العديد من الأتراك، الذين كانوا قد حضروا فى ظلمة الليل فى ذلك القتال، فلم يتوقع رجالنا هجومهم المفاجئ ، كما أننى لا أستطيع أن أصف الصيحات التى أطلقها الأتراك عند الأسوار، وكمية الصخب والجلبة التى قاموا بها، كل هذا ساهم فى الإحياء بضخامة عددهم ، بشكل أكبر من عددهم الحقيقى، وكانت صيحاتهم قوية، لدرجة أنها وصلت بعيداً حتى أناضوليا Anatolia، على مسافة ١٢ ميلاً عن معسكرهم .

وفى الوقت الذى انتشرت فيه الصيحات الصاخبة والضجة الهائلة للأتراك ، كان الامبراطور الحزين يندب حظه، مخافة أن يقوم الأتراك بهجومهم الكبير فى تلك الليلة، لأن المسيحيين لم يكونوا مستعدين للصمود والمقاومة أمامهم . وقد سبب له هذا الكثير من الحزن والأسى ، ولم يسمح الرب الخالد بحدوث صدمة كبرى، وعار مخز ذلك الوقت .

= لكنهم واعتباراً من القرن الخامس عشر الميلادى، اعتبروا أنفسهم من أتباع الحاج بكتاش، وتسموا بطائفة بكتاشيان . وكان هؤلاء الانكشارية يتمتعون بامتيازات خاصة ، فكانوا يحاكمون ويعاقبون على ما يقترفونه داخل الفرقة، ومن يستحق منهم الاعدام، كان يجرى اعدامه سراً . وحققت الانكشارية انتصارات عظيمة للدولة العثمانية . وتدهورت أحوال تلك الفرقة فى وقت متأخر، حتى قضى عليها السلطان محمود الثانى ١٨٢٦م فيما عرف باسم «الواقعة الخيرية» عن ذلك انظر:

Medhat Sertoglu , Op. cit, pp. 365-366

Goodwin, G, The Janissaries “, London, 1997 .

وانظر أيضاً:

"The Origins of The Janissary Corps", pp. 19-31 .

خاصة الفصل الاول :

وعند الساعة السادسة من الليل سيطر الهدوء على جبهة القتال، ولحق بالوثنيين عار كبير وخسارة فادحة، إذ قتل منهم ما يزيد على مائتي رجل، ويتوفيق وعناية من الرب. لم يُقتل أيّ من رجالنا أو حتى يصاب بجرح (١).

في الساعة الثالثة من يوم العشرين من أبريل . لاحت لنا أربع سفن وصلت إلى الدردنيل Dardanelles قادمة من غرب أوربا. واعتقد الجميع أن تلك السفن تخص مدينة جنوا ، وحضرت لتقديم المساعدة للقسطنطينية ، وذلك بموجب الأمر الذي كان الامبراطور الأجل قد أصدره للجنوية، بأن كل سفينة تحضر من جنوا لمساعدة القسطنطينية ، سوف تنال اعفاءً تاماً من أية ضرائب يتوجب دفعها للامبراطور، بصرف النظر عن أنواع السلع والبضائع الموجودة على متنها .

كانت تلك السفن الأربع قد أبحرت بمساعدة الرياح الجنوبية ، لتصل إلى موقع قريب من القسطنطينية ، تلك المدينة التي تشعر الآن بالهم والقلق طبقاً لمشيئة الرب، فقد توقفت الريح فجأة ، بينما كانت السفن قد اقتربت للغاية من القسطنطينية ، حيث وجدت نفسها في حالة سكون تام . وبينما كانت السفن لا تراوح مكانها بسبب انعدام الرياح، فقد تحرك أسطول محمد بك التركي، عدو الدين المسيحي، بنشاط كبير من موقعه عند الأعمدة ، وأبحر مع صيحات رجاله وصحبهم . وأخذوا في التجديف بأقصى سرعة باتجاه تلك السفن الأربع . وكانوا كالرجال المتهلفين على غزو أعدائهم .

إلا أن صلواتهم إلى محمد لم تكن (٢) كافية ، لتجلب لهم النصر ، بينما استمع ربنا الخالد إلى صلواتنا ، نحن المسيحيين، فانتصرنا في تلك المعركة ، كما ستعرفون فيما يلي .

١- من الواضح أن هناك مبالغة كبرى من قبل باربارو في تقدير أعداد القتلى الأتراك ، كذلك في ذكره لعدم مقتل أو حتى إصابة أي جندي بيزنطي أو لاتيني .

٢- ذكر ليونارد الخيوسي وصول تلك السفن الأربع من جزيرة خيوس Chios ، كما ذكر أنها تألفت من ثلاث سفن جنوية تحمل الأسلحة والامدادات الغذائية ، بالإضافة إلى سفينة تخص الامبراطور البيزنطي ، قدمت من صقلية Sicily محملة بالقمح . انظر: Leonard of Chios , Op. cit , p. 21

وانظر كذلك Doukas , Op. cit, p. 85 . أما المؤرخ العثماني طورسن بك فيذكر وصول سفينتين تتسمان بالضخامة ، كل منهما تشبه سفينة نوح في الاتساع حسب قوله ، تحملان الأسلحة والامدادات العسكرية والغذائية لأهل القسطنطينية انظر: Tursun Bey , Op. cit . cit , p. 53

٣- الترجمة الحرفية هنا هي (.. ولم تكن صلواتهم إلى محمد هم Thier Mahmet كافية ...)، ويخطئ باربارو هنا في فهمه للإسلام والمسلمين ، فلم تكن صلوات العثمانيين تتجه إلى الرسول محمد -صلعم- =

بينما كانت السفن الأوربية تفرد أشرعتها، وتقف في سكون تام. نتيجة لتوقف الرياح ، بدأ الأسطول التركي في التحرك باتجاهها، وفي همة شديدة ، قام قائد الأسطول التركي بمهاجمة مؤخرة Stern سفينة إمبراطور القسطنطينية . بينما قامت باقى سفن الأسطول ، بكل ما يمكنها من قوة ، بمهاجمة تلك السفن الأربعة . ونظراً لأن سفينة قائد الأسطول التركي لم تحرك كبشها Ram من مؤخرة سفينة الامبراطور؛ فقد استمرت بالضغط بقوة ، وكذلك فعلت باقى سفن الأسطول التركي، وتم حصار السفن الأربع كل منها بخمس سفن ، بخلاف وجود ثلاثين Fuste وحوالى أربعين Parandarie وهكذا كان الدردنيل مغطى بالسفن المسلحة ، وأمكن رؤية المياه بصعوبة شديدة بسبب كثرة سفن الأتراك (١).

استمرت المعركة ما بين ساعتين إلى ثلاث ساعات ، وفي بداية الأمر ، لم يستطع أى من الطرفين تحقيق النصر، لكن سفننا الأربعة المسيحية حازت فى النهاية على الشرف الكبير، لأنها تفوقت على ١٤٥ سفينة تركية ، ونجت من هجومها . بعد أن حاربت بأسلوب فرضه وقوفها ساكنة بسبب انقطاع الرياح ، ثم توجهت للرسو بالقرب من مدينة القسطنطينية (٢).

شعر رجالنا على الأسطول بالخوف الشديد خشية مهاجمتهم ليلاً ، فقد كانت الليلة ظلماء، واتخذنا خطوات لمساعدة تلك السفن . فتم ارسال كابرييل تريفيكسان ، قائد السفينتين الخفيفتين ، برفقة سفينة زكريا جريونى الفارس، وأبحرا خارج سلسلة ميناء القسطنطينية بنشاط كبير، وقاما باطلاق أصوات الأبواق فضلاً عن الصيحات العالية للبحارة لترك انطباع لدى أعدائنا بكثرة أعدادهم، وأنهم على متن سفن متعددة ، أكثر مما هم عليه فى الواقع .

= لكنها اتجهت إلى الله . ونظراً لمكانة النبی عيسى فى أذهان المسيحيين الكاثوليك الذين يعبر باربارو عن أفكارهم، من حيث كونه نبياً والهاً فى نفس الوقت . فقد اختلط عليه الأمر، وتصور أن النبی محمد- صلعم- يحتل نفس المكانة المزوجة فى الدين الإسلامى، وهو الأمر غير الصحيح .

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة «... بسبب كثرة سفن تلك الكلاب الشريرة» .

٢- تناول المؤرخ البيزنطى المعاصر كريتوفوليس Kritovoulus هذه المعركة بالتفصيل الشديد . انظر "History of Mehmed The Conqueror", pp. 53-55 .

انظر كذلك رواية المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس Doukas لهذه المعركة بالتفصيل أيضاً، الذى قدر عدد السفن العثمانية بثلاثمائة سفينة، والسفن المسيحية بخمس سفن ، وهو ما لا يتسق مع المنطق. انظر:

"Byzantine History", p. 84 ; Nicol , " The Last Centuries of Byzantium p. 403 .

كان فى كل سفينة يوقين أو ثلاثة ، ولهذا السبب بدا أن عدد السفن يبلغ عشرين سفينة على الأقل . وعندما سمع الأتراك تلك الضجة ، وذلك الصخب، أصابهم الفزع ، وقامت بعدها سفيتينا بقطر السفن الأربعة بأمان إلى داخل ميناء القسطنطينية^(١).

أما الأسطول التركى، فقد ظل فى مكانه عند الأعمدة ، لأن الأتراك اعتقدوا أن جميع سفننا سوف تبحر لمواجهةهم .

فى اليوم التالى ، الواحد والعشرين من أبريل ، انتقل السلطان التركى من موقعة القريب من أسوار القسطنطينية ، وامتطى صهوة جواده ، ويرفقه عشرة آلاف من فرسانه ، وحضر إلى مكان الأعمدة، حيث يرسو أسطوله ، لكى يبحث عن السبب الذى جعل قائده البحرى لا يتمكن ، رغم سفنه العديدة، من أسر السفن الأربعة^(٢).

عندما وصل السلطان التركى تجاه الأسطول، أمر بضرورة احضار القائد البحرى إلى الساحل ، لكى يمثل أمامه، وكان السلطان التركى الكافر يمتلئ غضباً على قائده البحرى، فبادره قائلاً ، «يا من خنت دين محمد، وقمت بخيانتى أيضاً ، أنا، سيدك، لماذا لم تتمكن من أسر تلك السفن الأربعة المسيحية ، وتحت قيادتك كل تلك السفن، ألم تكن تستطيع أن تفعل ذلك بسهولة ، ويهدوء تام ؟ إذا لم تستطع القيام بأسرهم، فكيف تتوقع أن تقوم بأسر الأسطول الراسى فى ميناء القسطنطينية ؟».

١- تذكر بعض المصادر المعاصرة أن محمد الفاتح كان يراقب المعركة عن كثب، وعندما أدرك فشل الأسطول التركى فى أسر السفن المسيحية الأربع ، ونجاحها فى دخول ميناء القسطنطينية ، تميز غيظاً لذلك واندفع على صهوة جواده داخل مياه البحر يبغي الاشتراك فى المعركة ، وأنه كان يسب ويلعن ، ويمزق رداءه وهو فى حالة من الغيظ والغضب الشديد. عن ذلك انظر:

Krituvoulus, Op. cit, p 54; Daukas, Op. cit, p. 84; Leonard of Chios, Op. cit, pp. 21-22 .

٢- التمس المؤرخ العثمانى المعاصر طورسون بك Tursum Bey العذر لقائد الأسطول العثمانى بلطه أو علو سليمان بك Balta - öglu Süleyman Beg ، حيث ذكر فى كتابه «.. ماذا يفصل شخص واحد ولو كان أسداً أمام بلد كامل ، لم يتيسر النصر .. وفتح الكفار باب الميناء (فى إشارة إلى سلسلة الميناء) وادخلوهم انظر. Tarih- i Ebul - Feth", p. 53 ,

كما يذكر أن تلك الهزيمة سببت توتراً وقلقاً للعثمانيين، لكنه يستدرك معتمداً على آيات القرآن الكريم «وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم» (سورة البقرة- آية ٢١٦) .

أجابه القائد البحرى قائلاً ، «سيدى، انظر بعينيك ، ثم بعدها سوف يمكنك أن تصدق بقلبك بأن ذلك قد حدث ، لاتتدفع فى غضبك الشديد تجاهى، لقد رأيت بعينيك أنه قتل على سفينتى فقط ١٥٠ من المسلمين^(١)، إيان القتال ضد المسيحيين ، كما أنك تعرف ، ولا بد أن الجميع قد شاهدوا اننى استخدمت كبش Ram سفينتى ، وغرستها فى مؤخرة سفينة الامبراطور ، ولم أدعها ترحل ، وحاربت بشجاعة طوال الوقت ، وإن ما حدث كان واضحاً للعيان ، وقتل العديد من رجالى على متن السفن الأخرى، الـ Fuste والـ Parandane وغرقت سفن Bregantini . وفيما يتعلق بى، فقد حاولت قدر استطاعتي ، ولذلك - سيدى- فأننى أتوسل إليك، أن تغفر لى، والأتحنق علىّ .

وكان السلطان يبدو كرجل تملكته الأفكار الشريرة ، فأظهر نية سيئة تجاه قائده البحرى، وقال له فى هدوء وبدون انفعال «أيها الخائن، سوف أقوم بقطع رأسك بنفسى» . وتمكن القائد البحرى فى النهاية، عبر استخدامه لكلمات وعبارات مناسبة من اقناع سيده بالابقاء على حياته، وتمكن من الافلات من نوبة الغضب الشديد التى اجتاحت سيده.

لكن السلطان التركى قام باقالاته من قيادة الأسطول البحرى. وبعد ذلك تقدم ابن الرجل الذى كان قائداً للأسطول (التركى) فى زمن بييرو لوريدان Piero Loredan ، عندما تمت هزيمة والد السلطان الحالى^(٢). لشغل منصب قائد الأسطول ، وقال للسلطان «سيدى ، إذا ما قمت بتسليمى قيادة أسطولك البحرى ، من أجل مهاجمة المسيحيين، فأننى أعدك الآن أن أقدم لك كامل الأسطول المسيحى مستسلماً بين يديك، وأن أقوم بالانتقام لوالدى . وإذا لم أستطع تحقيق ما وعدتك به ، فأننى أقول - وبلا مقدمات- أنه يمكنك أن تأمر بقطع رأسى».

استحسن السلطان التركى كلماته ، وقام بتعيينه قائداً عاماً على الأسطول، ومنحه عصا القيادة فى يده ، وقدم له سلطات واسعة كما لو كانت للسلطان نفسه، فى عمليات تعيين واستبعاد قادة السفن.

ويمكننا الآن أن نترك ما جرى من أحداث فى البحر، ونتحول لما جرى عند أسوار المدينة، فطوال ذلك اليوم، الواحد والعشرين من أبريل، كانت القذائف تتساقط كالعادة عند أسوار بوابة القديس رومانوس . كدرجة أن البرج قد انهار على الأرض ، على بعد ياردات من السور نتيجة لعنف القذائف.

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة «.. قتل على سفينتى فقط ١٥٠ رجلاً من أتباع محمد - صلعم- ...» .

٢- يقصد انتصار البنادقة على أسطول السلطان مراد الثانى .

جرى ذلك فى الوقت الذى شعر فيه كافة سكان المدينة، والذين على متن الأسطول بالخوف، والفرع ، خشية قيام الأتراك بالهجوم الكبير والنهاى فى ذلك اليوم .

وكان هناك اعتقاد عام بأنه سوف يمكن رؤية العمام Turbans التركية، داخل أسوار المدينة خلال وقت قصير . لكن ربنا الرحيم، يسوع المسيح، الممتلى شفقة وعطفاً علينا . أراد أن يؤخر النهاية ، من أجل أن تتحقق النبوة ، التى جاءت من قبل، قسطنطين ، ابن القديسة هيلينا ، عندما كان امبراطوراً على القسطنطينية (١).

١- الواقع أن الكتابات اللاتينية امتلات منذ عدة قرون بالإشارة إلى نبوءات تتحدث عن سقوط القسطنطينية فى أيدي أعدائها ، سواء أكانوا من اللاتين القادمين من الغرب، أو الأتراك القادمين من الشرق، من ذلك ما ذكره المؤرخون اللاتين . روبرت كلارى ، وفلها رويون بعد نجاح الحملة الصليبية الرابعة فى الاستيلاء على القسطنطينية ١٢٠٤م، حيث ذكرا وجود عمودين بالقسطنطينية عاش الرهبان والنسك فى قلايات أعلامها، ونقش على جدرانها صور وتهاويل، ونبوءة بكل ما سيجرى للقسطنطينية من أحداث ، وكان استيلاء اللاتين على المدينة مدوناً عليهما ، وكذلك السفن التى استخدموها كانت مرسومة أيضاً عليهما . بالإضافة إلى سطور مكتوبة تذكر «أن قوماً قصار الشعر بأسيايف حديدية ، سيأتون من الغرب لغزو القسطنطينية». انظر: روبرت كلارى «فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين»، ص ١٣١-١٣٢ ، فلها رويون «فتح القسطنطينية» ص ١٤٧-١٤٨ .

أما نيقولو باربارو فيشير هنا إلى ما يزعم أنها النبوءة الأولى حول سقوط القسطنطينية والتى قال بها الامبراطور قسطنطين العظيم Constantine The Great (٣٠٦-٣٣٧)م مؤسس القسطنطينية وابن القديسة هيلينا Helena ، والتى ذكرها باربارو فيما بعد بالتفصيل ، حيث أشار إلى أن الامبراطور قسطنطين كان على صهوة جواده، وسير بالقرب من العمود الكائن بالقرب من كنيسة أيا صوفيا، وأشار بيده شرقاً باتجاه الأناضول Anatolia حيث تقع الأراضى التركية قائلاً «أن الشخص الذى سيقضى على ، سوف يأتى من هذا الاتجاه» . انظر ما يلى ص ١٦٧ .

كذلك أشار باربارو أيضاً إلى نبوءة قديمة تذكر أنه عندما يحدث القمر علامة فى السماء، ويحتجب بينما تكون السماء صافية تماماً ، ثم يبدأ حجم القمر فى الازدياد حتى يكون دائرة كاملة . فإن ذلك يعنى أن القسطنطينية سوف تسقط آنذاك. انظر ما يلى ص ١٤٩، ١٥٩-١٦٠ .

كما يذكر ليونارد الخيوسى Leonard of Chios نبوءات قديمة حول سقوط القسطنطينية مثل ما ذكره موروسينى Tomaso Morosini كبير الأساقفة اللاتين فى القسطنطينية (١٢٠٤-١٢١١م) من أن الجنس الذى يحمل الحراب سوف يتقدم إلى مواجهة القسطنطينية، ويستولى على مينائها الشهير ، حيث تتم ابادة الجنس البيزنطى .

كذلك يشير ليونارد الخيوسى إلى نبوءة الكاهن والعراف Oracle الذى كان موجوداً فى منطقة Eryth-raea ببلاد اليونان حول سقوط القسطنطينية ، كما لجأ ليونارد أيضاً إلى نبوءة الأب يواقيم Joachim حول سقوط القسطنطينية عندما كتب «.. وأسفاه عليك ، تلك المدينة المشيدة فوق تلال سبع، صاحبة الأيدي المبتورة، محرومة من المساعدة» انظر: Leonard of Chios , 1453 “ , p. 15 .

كان قد جرى تدمير جزء كبير من السور بفضل قذائف المدافع، واعتبر كل شخص نفسه مفقوداً ، وساد اعتقاد أنه خلال بضعة أيام، سوف يسقط هذا الجزء من السور مثل ذلك الذى سقط سابقاً .

وفى الحقيقة ، فإنه يمكننى ابلاغكم بأنه إذا ما هاجم الأتراك الأسوار بعشرة آلاف رجل فقط ذلك اليوم ، كانوا سينجحون - بدون شك- فى دخول المدينة ، والاستيلاء عليها ، وكنا سنفقدنا بسهولة ويسر.

لكن وكما يحدث عادة فى كل منطقة من العالم ، فإن هناك رجالاً يواسل، مليئين بالشجاعة، كان بعضهم موجوداً فى القسطنطينية ذلك الوقت ، هم النبلاء البنادقة الذين كانت روحهم المعنوية مرتفعة للغاية عن المدافعين البيزنطيين ، فقاموا باجراء ترميمات قوية للأسوار التى جرى تدميرها، وتم ذلك عبر استخدام البراميل المليئة بالصخور والرمال ، وخلف الأسوار كان هناك قناة عريضة ، تمت تغطيتها بفروع أشجار الكروم، والأغصان التى تم غمرها بالمياه لتكتسب صلابة من أجل أن تكون قوية كجزء من السور تماماً . ولم تعد هناك حاجة فى تلك المنطقة بعد ذلك للخوف المبالغ فيه من الأتراك.

= وفى تصوّرى أن ليونارد الخيوسى كان يقصد الأب يواقيم من فيورى Joachim of Fiore (١١٤٥-١٢٠٢م) ، الذى كان من الرهبان السسترشان ، وترجع شهرته البالغة إلى قدرته على التنبؤ الملهم . وكان يعكف لساعات طويلة على قراءة كتابات يوحنا - سفر الرؤيا والانجيل الرابع- واعتقد يواقيم أنه نفذ إلى الحقائق السرية المخبوءة وراء الكتابات المقدسة. عن الاب يواقيم انظر: موريس كين ، حضارة أوروبا فى العصور الوسطى ، ترجمة قاسم عبده قاسم، القاهرة ، ٢٠٠٠م، ص١٤٦-١٤٧ .

كذلك تعرض المؤرخ البيزنطى المعاصر دوكاس Doukas لمسألة النبوءات الخاصة بسقوط القسطنطينية فى أيدي الأتراك، فذكر أنه أبان اقتحام العثمانيين للمدينة ، وبعد أن أصبح «العدو الآن داخل أسوار القسطنطينية، ويقوم بقتل البيزنطيين» التجأ كافة سكان القسطنطينية إلى كنيسة أياصوفيا . ويتساءل دوكاس عن السبب الذى جعلهم يفرون باتجاه الكنيسة ، فيذكر أنهم سمعوا منذ وقت بعيد من الكهنة والعرافين المزعمين أن القسطنطينية سوف تسقط، فى أيدي الأتراك العثمانيين بعد أن يقوم جنودهم باقتحامها، وأن الجنود البيزنطيين سوف يتهاونون تحت ضربات سيوفهم . لكن دوكاس يذكر- ربما فى محاولة يائسة لتغيير الأمر الواقع- أن البيزنطيين الهاربين عندما يصلون إلى عمود قسطنطين العظيم ويجعلوه خلفهم، فإن ملاكاً سوف يهبط من السماء، شاهراً سيفه ليخلص الامبراطورية البيزنطية ، ثم يقوم بتقديمه إلى أحد الرجال الفقراء والبسطاء قائلاً له «تناول هذا السيف، واثار لشعب الرب». وبهذا سوف يتمكن البيزنطيون من هزيمة الأتراك وطردهم خارج القسطنطينية، ودفعهم إلى بلاد فارس ، حيث المكان المسمى Monodendnon .

انظر : "Decline and Fall of Byzantium", pp. 226

لم يتوقف أولئك الأتراك الأشرار ، طوال ساعات النهار والليل، عن قذف بوابة القديس رومانوس بكامل قوتهم ، فى نفس المنطقة التى تم اجراء الترميمات والاصلاحات بها، وتركزت ضرباتهم عليها بواسطة قذائف مدفعهم الضخم، الذى كان محيط قذيفته يبلغ ١٥ راحة يد Palme^(١)، وكذلك من مدافعهم الأخرى، وأيضاً من العدد الضخم من البنادق، والسهام التى لاحصر لها . وكذلك البنادق اليدوية التى استمرت فى اطلاق نيرانها على أولئك الذين قاموا بأعمال الاصلاح والترميم .

وكانت الأرض غير واضحة تماماً ، ومغطاة بالأتراك ، وبشكل خاص بالانكشارية ، الذين كانوا أشرس الجنود الأتراك، وكذلك امتلأ الميدان بأعداد كبيرة من عبيد السلطان، الذين ميزتهم عماماتهم البيضاء ، بينما كان الأتراك العاديون يرتدون العمام الحمراء، وتمت دعوتهم بالعزبان Axapi^(٢). وفى ذلك اليوم، لم تجر أية أحداث فى المناطق الأخرى.

١- يذكر ليو الخيوسى أن محيط الحجر / القذيفة التى يطلقها هذا المدفع تبلغ ١١ راحة يد . انظر :

Leonard of Chios, op. cit , p. 17 .

٢- لعبت الجنود المعروفة بالعزبان Axapi ، Azabs دوراً هاماً فى فتح القسطنطينية تحت قيادة السلطان

محمد الفاتح ، وكان أفرادها يرتدون العمام الحمراء ، انظر : Tursun Bey , Op. cit , pp. 49-50 .

حيث يذكر أن سهام العزبان كانت «تمزق الصدر وتخرق القلب وتأخذ الروح» . ولاتجدى الدروع أو الخوذات فى الوقاية منها . وكان أفرادها يشبهون «القلعة الحمراء» ، وكان العزبان يؤلفون ميمنة وميسرة الجيش العثمانى، انظر كذلك Chalcocondylas , Op. cit , p. 45 .

حيث يصفهم بأنهم أصحاب العمامات الحمراء ، ومع أنه لم يذكرهم بالاسم، لكنه فرق بينهم وبين الانكشارية حيث ذكر «... قام الانكشارية، وباقي أفراد الجيش العثمانى ، وهم يرتدون أغطية الرأس البيضاء، والحمراء، بأعداد الملاجى والمخابىء...»

أنظر أيضاً : Midhat Sertoglu; Osmanlı Tarih Lügati, 2 . Baskı , Istanbul . 1986 , p. 26 .

الذى يذكر أن العزب: تعنى الرجل غير المتزوج أو الذى لم يتزوج بعد، وقد أطلق هذا الاسم على الجند الذين كانوا فى خدمة الأسطول العثمانى فى إمارات الأناضول . كما أطلق على طائفة المشاة (البيادة) من جنود الولايات عند العثمانيين . وقد ظلت هذه الطائفة تستخدم حتى النصف الأول من القرن السادس عشر، وبالإضافة هؤلاء كانت هناك طائفة أخرى من العزب تستخدم فى حراسة القلاع مع قرنائهم الذين كانوا يخدمون فى =

فى الثانى والعشرين من أبريل ، أعمل السلطان فكره، ورأى أنه - على الرغم من كل ماجرى- فلم يسبب أية خسائر تذكر فى الأسوار البرية، مع أنه قد حاول إحداث ذلك بكل قوته، ولهذا فإن الوثنى الشرير، قام بوضع خطة تقضى بأن يرسل جزءاً من أسطوله البحرى، الذى كان راسياً عند الأعمدة، إلى داخل ميناء القسطنطينية ، ومن أجل تحقيق هدفه الشرير، وحتى يمكنكم معرفة كيف قام بتنفيذ خطته^(١) ، سوف أقوم بقصها عليكم كالتالى^(٢).

نظراً لأن السلطان قد انتوى الاستيلاء على القسطنطينية بشكل نهائى ، فقد كان يحتاج إلى أن ينفذ أسطوله إلى داخل الميناء، وبينما كان الأسطول راسياً عند الأعمدة على مسافة ميلين من المدينة ، أمر السلطان بضرورة حضور جميع البحارة إلى الساحل .

وكان التل الواقع أعلى مدينة بيرا واضحاً ، ويبدأ من الساحل ، وكانت المسافة ما بين الأعمدة حيث يربض الأسطول والميناء تبلغ ثلاثة أميال. ثم قام الأتراك بتسوية الطريق وتمهيده، ووضعوا به عدداً ضخماً من البكرات Rollers التى جرى تشحيمها جيداً بالدهون والشحوم ، حتى يمكنها أن تقوم بسحب بعض السفن إلى الميناء .

وبدأ الأتراك فى جر وسحب سفن الـ Fusta الصغيرة ، بوضعها على البكرات، وقاموا بسحبها فى وقت قصير جداً إلى حوض الميناء Basin فى بيرا. وعندما رأى الأتراك أن الخطة قد جرى تنفيذها بشكل جيد ، أقدموا على سحب العديد من السفن التى كانت تحوى من خمسة عشر مقعداً إلى عشرين أو اثنين وعشرين مقعداً للمجدفين.

= الترسانة العثمانية ، وكانت هذه الطائفة من المشاة العزب الذين يسكنون القلاع، وكان الخيالة منهم يعرفون باسم فارسن (Farisön) ، وكان قسم من هذه الطائفة من نوى الرواتب والقسم الآخر من أصحاب التيمار، ويمكن لذوى الرواتب الترقى إلى أصحاب التيمار إذ استحقوا ذلك . وكان عزب البحرية ، وهم قسم من العاملين فى الترسانة ، يتولون المهام الرئيسية فى الأسطول العثمانى، وهؤلاء من الترك وليسوا من الدوشيرمة (أبناء النصارى) .

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة «كيف قام هذا الكلب بتنفيذ خطته».

١- ملاحظة هامشية قام شخص مسيحي بإسداء هذه النصيحة إليه. (الترجمة الإنجليزية)

ويعتبر باربارو هو المصدر التاريخى الوحيد الذى يذكر هذا ، دون أن يحدد شخصية ذلك المسيحي، مما يجعلنا نعتبرها محاولة منه لتجريد محمد الفاتح من شرف ابداع هذه الفكرة العبقرية، ومن مجد ذلك الانجاز التاريخى .

لم يكن لأحد أن يعتقد بأن في إمكان الأتراك^(١)، أن يقوموا بجر وسحب السفن عبر التل . حيث قاموا بعد ذلك بجر وسحب ٧٢ Fuste إلى حوض السفن في القرن الذهبي، وبالتالي جعلوا لأنفسهم حضوراً قوياً هناك ، علاوة على كونهم مسلحين جيداً ، ومنظمين تماماً^(٢).

يمكنكم أن تكونوا واثقين أنه عندما شاهد رجالنا على متن الأسطول ، تلك السفن التركية شعروا بفزع كبير ، خشية أن تتسلل في احد الليالي لمهاجمة أسطولنا ، بالإضافة إلى خوفهم

١- الترجمة الحرفية لهذه الجملة هي «... في إمكان أولئك الكلاب».

٢- يذكر المؤرخ التركي المعاصر طورسون بك، أن السلطان محمد الفاتح لم يستطع الدخول بسفنه من سلسلة الميناء، فأمر بسحب وجر السفن العثمانية برأ خلف غلظه ، وانزالها إلى القرن الذهبي في عملية عسكرية رائعة ، بواسطة العديد من المهندسين والملاحين ، وعبر فرد أشرعة السفن، حيث سارت السفن على البر وكأنها تمخر عباب البحر. ويستخدم طورسون بك ملاغته بشكل كبير فيذكر عن السفن أنهم «... ربما طيروها» «وسخر لكم الفلك لتجرى في البحر بأمره» (سورة ابراهيم، آية ٢٢) انظر : Tursun Beg , Op. cit, p. 52 .

كما تناولت كافة المصادر البيزنطية واللاتينية المعاصرة، تلك الخطه العسكرية العبقرية ، التي قام بتنفيذها محمد الفاتح وأظهرت اعجاباً ودهشة كبيرة بها انظر:

Kritovoulus, Op. cit , pp 55-58 , Doukas, Op. cit, pp. 85-86 .

حيث يشبه خطة محمد الفاتح بخطة الملك الفارسي اكسرخسس Xerxes ، الذي عبر اليوسفور Hel-lespont لغزو اليونان قبل أن يقوموا بهزيمته في العام ٤٨٠ ق م عن الملك اكسرخسس وحربه مع اليونان. انظر : حسين بيرنيا ، مشير الدولة، تاريخ ايران القديم من البدايه حتى نهاية العصر الساساني ، ترجمة : محمد نور الدين عبد المذم، السباعي محمد السباعي ، مراجعة وتقديم يحيى الخشاب ، الطبعة الثالثة، القاهرة ، ١٩٩٥ ، ص ١١١-١١٦ . وانظر أيضاً : Hignett, C. Xerxes's invation of Greece , Oxford . 1963

وانظر أيضاً : Chalecocondylas , Op cit , p. 46 ; Leonard of Chios, Op. cit , p. 21 .

Runciman , Op cit , pp. 105 106 ; Nicol , "Byzantium and Venice", p. 401 , Idem , "The Last Centuries of Byzantium " p. 404 ; Babinger , Op. cit , pp. 88-89

الذي يذكر أنه تم سحب وجر عدد من السفن صغيرة الحجم أولاً كتجربة لسحب وجر باقى السفن وانظر كذلك . Miccingen, V, Byzantine Constantinople, London , 1899, pp 212 . 214, 244-246; Op. cit , p. 68 .

وعن ذلك : انظر أيضاً . صلاح ضبييع ، المرجع السابق، ص ٢٨٥ : السيد محمد المتولي، المرجع السابق، ص ١٣٩-١٤٠؛ اسماعيل سرهنتك ، تاريخ الدولة العثمانية مراجعة حسن الدين، بيروت ، د.ت، ص ٤١ حيث يذكر أن محمد الفاتح أمر بتقل السفن من المكان المسمى ضوبله باغجه حتى المكان المسمى قاسم باشا .

من الأسطول التركى الراسى عند الأعمدة ، وذلك لأن أسطولنا كان داخل السلسلة والأسطول التركى كان موجوداً داخل السلسلة وخارجها أيضاً .

وهكذا يمكن ادراك حجم الخطر الممكن حدوثه ، كذلك كنّا نخشى من عملية اطلاق القذائف فى حالة تمكنهم من احراق سفننا التى كانت موجودة عند السلسلة، وتم اجبار رجالنا على متن الأسطول على عدم التخلّى عن أسلحتهم ليلاً ونهاراً، وكانوا فى حالة هلع كبيرة من وجود الأتراك.

وبالنسبة لنا، فقد قررنا استخدام سفينة خفيفة عند بيرى ، كموقع حراسة متقدم، لمراقبة الأسطول التركى، إذا ما قام بالتحرك من مرساه عند الأعمدة .

وعندما شاهدت تلك السفينة تحرك الأسطول التركى، قدمت على الفور لاجبار الوفيكس ديبو ، الربان المسئول عن السفن . وفى الحال توجه كل رجل مسلح إلى مكانه وتكرر هذا عدة مرات ، إلا أن الأتراك كانوا يخشون من الحضور حتى السلسلة ، وشعروا أنه من المجازفة الشروع فى القتال ضد العديد من سفننا الموجودة هناك .

لقد فكر الأتراك فقط فى المبادرة بهجوم ليلى، لكن ربنا الخالد، الذى أسبغ عطفه علينا نحن المسيحيين ، لم يشأ أن يحدث لنا أمر سيئ فى ذلك الوقت ، وحث المسيحيين على التمسك بالشجاعة ، وعلى ضرورة مهاجمتهم ، وسوف ترون فيما بعد كيف قمنا بمهاجمة الكفرة ، على الرغم من أن هجومنا لم ينته إلى النتيجة التى تمنيناها.

فى يوم الثالث والعشرين من أبريل ، تسارعت وتيرة الأحداث خاصة بالنسبة للسفن التركية التى تم سحبها عبر التلال إلى ميناء القسطنطينية ، وهكذا فقد عقدنا ذلك اليوم مجمع الاثنى عشرة فى كنيسة القديسة مريم بالقسطنطينية ، من أجل الشروع فى انجاز مهمة احراق السفن التركية الموجودة فى حوض السفن فى بيرى.

تم اجراء التصويت ، وتمت الموافقة على ضرورة القيام بمحاولة لتحقيق ذلك. ومع ذلك فيجب أن يكون مفهوماً أنه قد حدث جدال ومناقشات مستفيضة حول أفضل السبل للقيام بهذه المهمة . وأدلى كل عضو فى المجمع برأيه فى ذلك.

أراد البعض أن نقوم بتحريك جميع سفننا من الميناء عند الفجر، والقيام بهجوم كبير ومباغت على أسطولهم ، دون أن يصاحبه اطلاق للقذائف عليهم^(١)، بينما طلب البعض الآخر

١- المقصود هنا أن لايشعر الأتراك ببداية ذلك الهجوم.

ضرورة وجود قوة برية تكون مهمتها الهجوم على الخيام التركية التي يقوم الجنود داخلها بحراسة سفن الأسطول . وضرورة استخدام سفينتين خفيفتين فقط لانجاز هذه المهمة.

وقام جامو كوكو Giacomo Coco ريان سفينة طرابيزون Trabizon بالادلاء برأيه أيضاً ، حيث وافق الجميع على القيام بمحاولة اشعال النيران بالسفن التركية .

وانتهت تلك المحاولة إلى حدوث فاجعة رهيبة، كما لا بد وأنكم قد سمعتم بذلك.

فى يوم الرابع والعشرين من أبريل ، قاد جاكومو كوكو ، ريان السفينة القادمة من طرابيزون^(١)، سفينتين تبلغ حمولة كل منها ٥٠٠ Botte ، وقام بتحزيمهما بعدة أجولة وأكياس من القطن والصوف ، وهكذا كان من المستحيل اصابتها بقذائف البنادق، مهما كانت ثقيلة، وكان من الصعب إحداث أضرار بهما.

لم يكن فى وسع السفينتين مهاجمة الأسطول التركى، دون تلقى المساعدة من الشينيات Galleys وسفن ال Fuste ، فتم اعداد شينيتين خفيفتين ، وقامت كل شينية كبيرة بتسليح السفينة التابعة للامبراطور ذات الاربعة عشر مقعداً للمجدفين، وقامت كل سفينة أيضاً بتسليح أحد قواربها الكبيرة .

عندما أصبحت جميع السفن مستعدة لمحاولة إشعال النيران فى سفن الأعداء ، صدر الأمر بأنه يجب أن يكون الرجال والسفن فى وضع الاستعداد فى أول ساعات الليل، حيث تقرر منتصف الليل موعداً للهجوم.

١- عن نور جاكومو كوكو فى محاولة اشعال النيران بسفن الاسطول العثمانى فى خليج القرن الذهبى انظر أيضاً:

Leonard of Chios , Op. cit , p. 24 ; Babinger , Op. cit, p. 89 ; Runciman , Op. cit, pp. 106-108 , Nicol Op. cit , pp. 396, 401-02 .

Schlumberger , Op. cit , pp. 172 - 177 ; Kielty Op,cit, pp. 115-119 .

Pears , E, " The Ottoman Turks to The Fall of Constantinople" in, C.M.H. 1 , (4) , 1927 , pp. 699-700 ; Menzies , S History of the Ottoman Empire in Europe, London, 1977 , p 85.

Kinross, I, The Ottoman Centuries , The Rise and Fall of The Turkish Empire, London , 1977 , p. 103 .

وكان جاكومو كوكو مواطناً بندقياً عمل رباناً للسفينة البندقية القادمة من طرابيزون، ولم يكن مجرد «بحار مغامر من طرابيزون يعرف باسم كوكو» كما ذكر السيد المتولى، انظر: «الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر الميلادى»، ص ١٤٠ .

وحضر الجميع عند منتصف الليل إلى متن سفينة الوفيكس دييلو ، قائد الميناء ، وجرت مناقشة حول القيام بهذه المحاولة أو أرجائها لوقت آخر . وأيدت الأغلبية محاولة القيام بالهجوم ، وإطلاق القذائف والنيران على السفن التركية . وبالفعل بدأت الاستعدادات الأولى للهجوم في منتصف الليل .

في تلك الأثناء حضر جنوية بيررا ، أعداء الدين المسيحي^(١) ، واستمعوا إلى خطبتنا الرامية إلى إشعال النيران في السفن التركية . وفي الحال قام بودستا Podesta^(٢) ، بيررا بارسال اثنين من مواطنيه كسفراء للسلطان ، الذي كان موجوداً أمام أسوار القسطنطينية عند بوابة القديس رومانوس .

١- يأتي وصف باربارو البندقي للجنوية بأنهم أعداء الدين المسيحي متسقاً مع موقف البندقية تجاه منافستها الدائمة جنوا ، حيث استمر التنافس البندقي- الجنوي حول أسواق القسطنطينية والامتيازات التجارية بها لعدة قرون ، بدأت منذ الربع الأخير من القرن الثاني عشر الميلادي ، عن ذلك انظر :
حاتم الطحاوي ، بيزنطة والمدن الإيطالية (العلاقات التجارية) ١١٨١-١٢٠٤م ، القاهرة ، ١٩٩٩م .

واستمر هذا التنافس في القرن الأخير للدولة البيزنطية ، واستمرت حالة التوجس المتبادلة بين الطرفين ، علاوة على العلاقات الطيبة التي كانت قائمة بالفعل بين الجنوية والعثمانيين ، كل ذلك جعل باربارو البندقي يتهم الجنوية بأنهم أعداء للمسيحية ، لأنهم فضّلوا مصالحهم الشخصية ، وأخبروا محمد الفاتح بنتيجة ذلك الاجتماع الذي دعى إلى حرق السفن العثمانية .

الحقيقة أن موقف الجنوية في بيررا كان يهدف إلى اقناع كلا الطرفين : البيزنطي والعثماني ، أنهم معه ، وذلك من أجل الدفاع عن مصالحهم الاقتصادية في مستعمرة بيررا ، وهو الأمر الذي تأكد فيما بعد نتيجة للمعاملة الطيبة التي عاملهم بها السلطان محمد الفاتح بعد نجاحه في فتح القسطنطينية ، حتى أنه عقد معهم معاهدة تجارية بعدها مباشرة ، تعهد فيها بعدم الاستيلاء على منازلهم أو ممتلكاتهم ، وسفنهم ، كما منحهم حق بيع سلعهم وبضائعهم دون دفع أية ضرائب ، إذ لم يدفعوا فقط سوى ضريبة الرأس . كما صرح محمد الفاتح للجنوية باستخدام قوانينهم وأعرافهم الخاصة ، وكنائسهم ، دون أن يقوموا بدق الأجراس بها ، كما تعهد لهم بعدم تحويل كنائسهم إلى مساجد ، مقابل عدم قيامهم ببناء كنائس جديدة ، بالإضافة إلى بعض الشروط والمنح والامتيازات الأخرى . عن معاهدة محمد الفاتح مع الجنوية بعد فتح القسطنطينية مباشرة . انظر : Miklosich & Müller , Op. cit, pp. 287-288 , Jones (ed.) Op. cit , pp. 136-137 .

٢- كان اليودستا هو لقب الموظف الجنوي المسئول عن رعاية الجاليات الجنوية في مستعمرات جنوا في البحر المتوسط والبحر الأسود . وبرز هذا اللقب منذ الأحياء التجارية الجنوية في الموانئ الصليبية في الشام =

وخلال المناقشات التي اشترك فيها الجنوية على متن سفينة القائد ، فإن أولئك التافهين والحقيرين قالوا «سيدى القائد، لايجب عليك القيام بهذه المحاولة الليلة، لكن إذا ما انتظرت ليلة أخرى، يمكننا تقديم المساعدة لك، من أجل احراق السفن التركية بشكل أفضل».

عندما استمع القائد البحرى لهذا الغرض بتقديم العون والمساندة ، كان على استعداد تام للانتظار ليلة أخرى، وكان الجنوية يدركون أنهم قد عقدوا معاهدة مع الأتراك، فقاموا بفتح أحد بوابات بير، وأرسلوا من خلالها رجلاً إلى الأتراك.

كان ذلك الرسول الجنوى الذى حضر إلى خيمة السلطان يدعى فايوزو Faiuzo^(١)، وقام بإبلاغ السلطان بكل ما حدث فى الليلة السابقة.

= فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر للميلاد. كذلك تواجد هذا اللقب فى الحى الجنوى بالقسطنطينية منذ منح الامبراطور مانويل كومنينوس الجنوية أولى امتيازاتهم بالقسطنطينية عام ١١٥٥م. عن ذلك انظر : Sauli, D. L, Della Colonia Dei Genovesi in Galata, Tomo Secundo , Torino , 1831 , pp. 181-182 . Doc . 1 . وانظر أيضاً

حاتم الطحاوى «الرجع السابق ، ص ٧٥ : «الاقتصاد الصليبي فى بلاد الشام»، ص ١٠٥ . وهناك مصدر فى غاية الأهمية عن الفتح العثمانى للقسطنطينية عبارة عن رساله أرسلها البودستا الجنوى الأخير فى القسطنطينية لوميلينو إلى أخيه يخبره فيها بأحداث سقوط المدينة . انظر Jones, Op. cit, pp. 132-135

١- ذكر نيقولو باربارو فى الأسطر السابقة أن بودستا الجنوى فى بير قام بإرسال اثنين من مواطنيه للسلطان محمد الفاتح . ثم عاد وذكر أن البودستا - بعد أن علم بخطة البنادقة حول اشغال النيران بسفن الأسطول العثمانى- قام مرة أخرى بإرسال رسول جنوى إلى خيمة السلطان ليخبره بتفاصيل الخطة. ويتفرد باربارو من دون كافة المصادر اللاتينية والبيزنطية والعثمانية بذكر اسم الرسول الجنوى فايوزو Faiuzo . ويمكننا هنا أن نعلن دهشتنا حول معرفته باسم ذلك الرسول الجنوى، ازاء صمت باقى المصادر المعاصرة عن اسمه خاصة وأن البودستا الجنوى لوميلينو ، الذى سلم مقاتيح بير لمحمد الفاتح . كتب أنه ، خشية منه على سقوط بير مع القسطنطينية ، فقد قرر أن يتخذ خطوات من أجل تأمين عدم سقوطها وأرسل سفراء للسلطان محمد الفاتح مع العديد من الهدايا الثمينة ، لتذكيره بالعلاقات الطيبة بين الجنوية والعثمانيين ، ويطلب تجديد المعاهدات والمواثيق بينهما، لكنه لم يذكر أى اسم من أسماء المبعوثين الجنوية ، عن ذلك راجع:

Jones, Op. cit, pp. 132-135 , esp. p. 133 .

بل إن البودستا الجنوى ذكر أيضاً أنه قام بنفسه بزيارة السلطان محمد الفاتح ، من أجل انتقاد المستعمرة الجنوية فى بير . وانظر أيضاً . - Runciman , Op. cit , 142 , 162 -3 , 196, 221 .

وفى ذلك الوقت كان البنادقة قد أعدوا أنفسهم للتوجه واشعال النيران فى سفن الأسطول التركى، فى حوض بيررا .

عندما استمع السلطان إلى حديث الرسول الجنوى، وجه إليه الشكر الوافر، وأمر باعادته على وجه السرعة. وبمجرد رحيل الرسول ، قام السلطان بارسال عدد كبير من الرجال، مسلحين ببنادقهم إلى أسطوله فى حوض بيررا ، وبالإضافة إلى ذلك أمر بنصب مدفعين على مقربة من الشاطئ ، ومدفعين اضافيين على الجانب الآخر من حوض السفن فى بيررا، وجرت عملية حماية منطقة حوض السفن جيداً بواسطة الحواجز والسياج ، التى لم يكن يصيبها الضرر نتيجة القذائف أو السهام القصيرة القوية Botts . وهكذا قام الأتراك بتأمين دفاعاتهم. وهكذا قام جنوية بيررا ؛ المتمردين على الدين المسيحى، بارتكاب تلك الخيانة.

وانتظرنا من الرابع والعشرين حتى الثامن والعشرين من شهر أبريل من أجل القيام بتلك المحاولة ، التى أعتقد أن ارادة الرب قد تدخلت ، وأرادت لها أن تحدث بهذه الطريقة من أجل معاقبة بعض الخطاة والأثمين الذين لاقوا مصيرهم.

وسوف ترون -فى السطور التالية- الكارثة الرهيبة التى حدثت، متذكّرين بأننا نحن البنادقة لم نكن نعلم شيئاً عن خيانة الجنوية الأشرار .

فى يوم الثامن والعشرين من أبريل، وتحت اسم سيدنا يسوع المسيح ، قررنا القيام بمحاولتنا لحرق سفن الأتراك الوثنيين . وقبيل الفجر بساعتين ، وباسم الروح القدس، غادرت السفينتان الميناء ، وكانت جوانبهما تحظى بالحماية عبر أجولة وأكياس القطن والصوف ، وخرجت لمرافقتهم سفينتا كابريل تريفيكسان، وذكريا جريونى الفارس، وكانت كلتاهما مسلحة تماماً كالسفينتين السابقتين، وكانت هناك ثلاث سفن من نوع Fusta من ذات الأربعة وعشرين مقعداً للمجدفين، تحت قيادة ثلاث ربابنة من سفن رومانيا Romania^(١) وبحارتهن .

١- استخدم اسم رومانيا Romania منذ القرن الرابع الميلادى للإشارة إلى الامبراطورية الرومانية فى مواجهة عالم القبائل الجرمانية والبرابرة، ومنذ العام ١٠٨٠م استخدم المؤرخون الغربيون الكلمة كمقابل للامبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) بعد زوال الشطر الغربى والامبراطورية الرومانية، وفى العام ١٢٠٤م تم اطلاق اسم رومانيا على المملكة اللاتينية بالقسطنطينية. وبعد أن استعاد ميخائيل الثامن باليولوغس القسطنطينية وحتى نهاية الامبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى، أخذت الوثائق البيزنطية ، فى عدم الإشارة إلى هذا اللقب إلا فى حالات نادرة . انظر:

وكانت أسماء الربابنة كالتالى: سلفسترو تريفيكسان Silvestro Trivixano، جيروليمو موريكسنى Jeruolemo Morexini، وجاكومو كوكو Jacomo Coco، بالإضافة إلى ذلك قام بعض الربابنة بتسليح عدد من سفن Bregantini بكميات من القار والقطران والأغصان اليابسة والبارود، حتى يتمكنوا من وضعها فى النيران، والقائها على السفن التركية .

وصدر الأمر بضرورة سير السفن إلى الامام، حتى تستطيع تجنب قذائف المدفع، لكن جاكومو كوكو، ربان سفينة طرابيزون، قاد سفينته بشجاعة، وقاده قدره المشئوم، وأراد أن يقوم بالضربة الأولى ضد سفن الأتراك، ليحرز الشرف والمجد فى هذا العالم.

وبدأت سفنتنا فى الاقتراب ببطء من الحوض الذى رست فيه سفن الأتراك. ولم تستطع الإبحار بسرعة أكبر بسبب وجود أربعين مجدفاً فى كل جانب من جوانب السفينة، الأمر الذى جعلها لاتستطيع الإبحار بسرعة أكبر كما تفعل الشينية.

وكان جاكومو كوكو، ربان سفينة طرابيزون، مثل الرجل التواق إلى احراز الشرف فى هذا العالم، فلم ينتظر أن تبادر السفن بالهجوم، وأراد أن ينال سبق توجيه الضربة الأولى ضد السفن التركية، ولهذا فقد أخذ فى التجديف بسرعة قصوى بحيث تقدم كافة السفن الأخرى، وعندما اقترب من مرمى نيران الأتراك، قاموا باطلاق قذائف أحد مدافعهم، وسقطت القذيفة بالقرب من مؤخرة السفينة، دون أن تسبب أية خسائر. فقاموا باطلاق قذيفة ثانية سقطت على أرضية سفينته، وتدحرجت يمينا داخلها، وعندها لم تستطع السفينة أن تظل طافية على الماء لمدة نستطيع من خلالها أن ننتهى من قراءة الصلاة الربانية Paternosters عشر مرات^(١)، وغاصت مباشرة نحو القاع، بالرجال الذين كانوا على متنها.

O.D.B, vol ,3, p. 1805 .

ويظهر من استخدام باربارو للكلمة، أنها ما زالت تستخدم فى أدبيات المصادر اللاتينية عند الحديث عن الإمبراطورية البيزنطية فى منتصف القرن الخامس عشر الميلادى.

١- يذكر قاموس الكتاب المقدس أنها الصلاة التى قام الرب بتعليمها لتلاميذه، ولذلك سميت بالربانية، وهى صلاة الصلوات، وملخص الديانة المسيحية، وتحتوى على الدعاء والطلبات والتمجيد انظر: بطرس عبدالله، جون الكساندر طومسون، ابراهيم مطر، قاموس الكتاب المقدس. الطبعة الثانية عشرة، ١٩٩٩م، ص٥٥١-٥٥٢ .

وما يقصده نيقولو باربارو هنا أن قذيفة المدفع العثمانى عاجلت سفينة جاكومو كوكو، التى لم تستطع أن تطفوا طويلاً فوق الماء .

وعندما شاهدنا جميعاً السفينة وهي تغرق ، امتلأنا بالأسى والأسف على رجالها ، لكننا لم نكن لنستطيع مساعدتهم بأية طريقة.

وكان الرجال نوى المكانة والشهرة ، والأكثر جدارة على متن السفينة الغارقة هم : جاكومو كوكو الريان ، انطونيو من كورفو، اندريا دارودو ، مارين جبلينى وكيل الريان، بولو كاتانيو وكيل الريان ، اندريا دل اكوا وكيل الريان، اندريا ستيكو وكيل الريان ، بالإضافة إلى رماة الاقواس الآتى أسمائهم: جوان مارانجون ، جوان دى شيراتو جوان ابن نيكولو دا كاتارو ، نيقولو داندرو ، نيقولو جولياس ، ليو فوكسون ، رينالدو من فيرارا ، ترويلو دى جريزى ، جورجى داترو بآبارو جرادينيچو ، ستيفانو دى ساردايا، بخلاف ٧٢ من المجدفين . غاص جميع هؤلاء مع السفينة، وغرقوا جميعاً ، لعل الرب يشملهم برحمته (١).

فى الوقت الذى اندفعت فيه السفينة باتجاه القاع لتلقى مصيرها المحتوم، فإن أولئك الذين كانوا على متن السفن الخفيفة لم يدركوا بعد أنهم قد أصبحوا الآن بلا حماية ، فواصلوا تقدمهم معتقدين أن تلك السفينة تتبعهم فى الخلف، وأن الأمور تسير بشكل جيد، لأنهم لم يشاهدوها وهي تغرق ، إذ لم يكن باستطاعتهم رؤية ذلك بسبب وجود الدخان الكثيف للغاية الذى انبعث من المدفع ومن البنادق، مما جعل من المستحيل عليهم رؤية أى شئ. وامتلاً الجو بالصيحات الصادرة عن الجانبين، وهكذا فانهم - فيما بعد- لم يصدقوا ما حدث.

أثناء اندفاع سفينة كابريل تريفيكسان إلى الامام ، قام الأتراك (٢)، بإطلاق قذائف مدفيعهما عليها، فأصابَت السفينة بحيث قامت بشطرها إلى نصفين وبسبب انخفاض أرضية السفينة، فقد أصيب اثنين من رجالها، الذين قاموا فى الحال بسد الثقوب التى أحدثتها القذائف عبر استخدام عباءاتهم. ولهذا السبب ظلت السفينة تطفو فوق سطح الماء، على الرغم من غمرها بالمياه حتى منتصفها ، وقام رجالها بالتجديف بكل ما استطاعوا من قوة ، حتى نجحوا فى النهاية فى الوصول إلى مرسى السفن فى الميناء .

١- عن تلك المعركة البحرية انظر أيضاً : Leonard of Chios , Op. cit , p. 24 .

٢- الترجمة الحرفية حسب كلمات المؤلف «قام الأتراك الكلاب.....» ورأينا التصرف فى الجملة على هذا

عندما شاهدت باقى السفن ما جرى من أمور سيئة ، قررت العودة والرسو فى مكانها الذى انطلقت منه . ولم تنجح خططنا المتعلقة بأعدائنا الكفرة .

وهكذا أحرز الأتراك النصر، وانخرطنا، نحن المسيحيون، فى البكاء والنحيب ، بمرارة وأسى ، وأسفنا بشدة على الرجال سيئ الحظ ، الذين غرقوا ، عسى الرب أن يشملهم جميعاً برحمته .

واستمر نحيبنا وعانينا من الرعب والفرع ، خشية تحقيق الأتراك النصر النهائى بواسطة أسطوهم، لأننا أدركنا أنهم إذا ما قاموا بشن المعركة فى ذلك اليوم ، فسوف نسقط جميعاً دون شك فى قبضتهم ، سواء كنا فى البحر أم على البر ، لأن الخوف كان قد تمكن من اصابة قواتنا بالشلل ، لكن ربنا الخالد، أراد أن يرجى سقوط المدينة.

والآن لنرى كيف تصرف الأتراك الكفرة. لقد توجهوا بسفنهم الاثنين والسبعين باتجاه سفينتيننا التى جرى تحزيمهما بالأجولة والاكياس المليئة بالصوف ، وكانت السفينتان قد اقت مراسيها قريباً من السفن التركية، وقاموا بذلك لأنهم توقعوا مساعدتنا نحن المسيحيون، لكن كان من المستحيل تماماً مد يد المساعدة إليهم، لأننا كنا سوف نتعرض للأسر بشكل فوري من قبل السفن التركية .

وعندما لاحظ الأتراك أن الحظ يبتسم لهم، قاموا بوضع الخطط اللازمة ، واندفعوا بجميع سفنهم لمهاجمة السفينتين بضراوة بالغة ، ونشبت معركة عنيفة ورهيبة ، وكان صخب وضجيج أصوات الأتراك^(١). يبدو كإنه الجحيم الحقيقى، وانطلقت القذائف والسهام التى لا حصر لها ، وتكررت عملية اطلاق القذائف من المدافع والبنادق .

استمرت تلك المعركة لأكثر من ساعة ونصف الساعة ، ولم يستطع أى من الطرفين حسمها، حيث عادت سفننا إلى مكان رسوها ، وعادت السفن التركية الاثنين والسبعين إلى حوضها . ولم يحدث شئ آخر فى هذا اليوم سواء فى البحر أو فى البر، فيما عدا حدوث احتفالات كبرى فى المعسكر التركى ، لأنهم نجحوا فى اغراق سفينة جاكومو كوكو.

١- الترجمة الحرفية هى « ... أصوات أولئك الكلاب».

حدث كل هذا نتيجة لخيانة الجنوية ، أعداء الدين المسيحي، فقد قاموا بخيانة المسيحيين من أجل أن يظهروا أنفسهم كأصدقاء للسلطان التركي^(١).

ونتيجة لفرق جاكومو كوكو ، ريان السفينة القادمة من طرابيزون، كان لابد من تعيين ريان جديد لسفينته . وهكذا قام الوثيكس ديدو القائد العام على السفن، بتعيين دولفين دولفين^(٢) رياناً وقائداً لسفينة طرابيزون خلفاً لجاكومو كوكو ، عسى الرب أن يشمل الأخير برحمته .

وكان دولفين دولفين معيناً من قبل لحراسة إحدى بوابات المدينة ، المعروفة باسم بوابة القصر، وكان يتصف بشجاعته ، ويقظته ، فقام بترك مكانه هناك، وتوجه إلى موقعه الجديد على متن السفينة ، بينما تم تعيين جوان لوريدان Zuan Loredan مكانه لحراسة بوابة القصر.

وفي الأيام الأخيرة لشهر أبريل لم يحدث شيء يذكر في البحر أو على البر، سوى بعض المناوشات العسكرية المتكررة، واطلاق المدفع لقذائفه تجاه الأسوار، تلك القذائف التي لم تكن لتتوقف طوال النهار والليل.

حدثت هجمات مستمرة على الأسوار من ناحية البر، وضعت المدينة في حالة خطر دائم، وكُنّا بالداخل نقوم بأعمال الترميمات على نحو جيد، عبر استخدام البراميل والدعامات

١- انظر ما سبق ص ١٣٥-١٣٧ ، بالإضافة إلى الهوامش ١ ، ٢ ، ٣ .

والحقيقة أن الجنوية كانوا قد اتخذوا قرارهم بمساعدة الطرفين من أجل مصلحتهم الذاتية ومن أجل الحفاظ على ممتلكاتهم وامتيازاتهم التجارية في منطقة غلطة (بيرا) كما عقدوا معاهدة مع السلطان محمد الفاتح لحماية مصالحهم وامتيازاتهم . عن النص اليوناني الأصلي للمعاهدة. انظر:

Miklosich & Muller , Acta et Diplomata Graeca, vol , 3 , pp. 287-88 .

٢- ذكر باربارو من قبل أن دولفين دولفين كان مسئولاً عن حراسة البوابة الرابعة للقسطنطينية وهي البوابة القريبة من قصر بلاخرناى Blachernai ، عن ذلك انظر ما سبق، ص ١١٠ وانظر أيضاً السطور التالية لباربارو . بالإضافة إلى:

Nicol, " Byzantium and Venice " , pp. 400 , 402 , 405 .

الخشبية ، والرمال، كلما احتاج الأمر إلى ذلك. وهكذا كانت الترميمات قوية كما الأسوار الحقيقية، ولم تستطع قذائف المدفع أن تحدث أضراراً بها .

فى اليومين الأولين من شهر مايو (١٤٥٢م) لم تحدث أية تحركات فى البحر أو على البر، فيما عدا استمرار القذائف والمناوشات الخفيفة، والصراخ العالى، والأصوات المزعجة طبقاً لعادة الأتراك . وعانت مدينة القسطنطينية من النقص الحاد فى الامدادات الغذائية وبشكل خاص الخبز ، والنبيد، وغيرها من السلع والمواد الضرورية للبقاء على قيد الحياة.

فى الثالث من مايو، تم وضع خطه لنصب مدفعين كبيرين عند أحد البوابات البحرية بالقرب من المدفع المجاور للأسطول ، وكان ذلك المدفع هو الذى قام باغراق سفينة جاكومو كوكو ، وهكذا قامت مدافعنا باطلاق القذائف على السفن التركية ، وتسبب ذلك فى حدوث حالة من القلق والخطورة لديهم .

وبعد أن شاهد الأتراك مدافعنا وهى تقوم باغراق سفنهم، وتقتل العديد من رجالهم، قرروا أن يقوموا باسكات مدافعنا حتى لا تلحق أية خسائر اضافية بهم . فقاموا بنصب ثلاث مدافع كبرى، إلى جوار بعضها البعض ، قريباً من سفنهم ، واستمرت تلك المدافع فى اطلاق قذائفها طوال النهار والليل ، وسببت لنا الكثير من الخسائر والأضرار، وذلك بسبب قربها من بعضها البعض ، مما زاد من حجم تأثير قذائفها.

وهكذا استمرت المدافع على الجانبين فى اطلاق قذائفها لمدة عشرة أيام كاملة، لم يتوقف فيها أحد الطرفين عن اطلاق قذائفه . وكان مدافعنا موجودين داخل الأسوار ، وجرت حمايتهما بشكل جيد عبر متاريس مرتجلة Breastwarks يبلغ ارتفاعها مقدار ارتفاع الصدر، وبلغت المسافة التى أمكن للقذيفة الوصول إليها نصف الميل..

وأثناء هذه المعركة العنيفة، قال الامبراطور الميجل لقادة بحريتنا «أيا ربابنة ونبلاء البندقية، لقد رأيتم بجلاء كيف أن سيدكم حاكم البندقية، لم يقم حتى الآن بإرسال أسطول بحرى من أجل مساعدتى، ومد يد العون لمدينتى التعسة، ولهذا فانتى أرى أنه من الضرورى^(١) أن أقوم

١- الحقيقة أن الترجمة الإنجليزية للنص الأصيل قد أغفلت ترجمة العديد من المصطلحات الفنية مثل أسماء السفن والموازين والمقاييس والعملات، وهو ما اعترف به المترجم ج. ر جونز فى مقدمة الترجمة الإنجليزية انظر: Introduction, P.5 وحاولت الترجمة العربية- منذ البداية- تحديد وترجمة أسماء السفن =

بارسال Gripo باتجاه نجروبونت Negropont^(١)، لملاقاة أسطولكم البندقى».

و بمجرد حلول يوم الثالث من مايو ، كانت سفينة الـ bregantino مجهزة ومزودة باثنتى عشر رجلاً للابحار عبر الدردنيل، بالقرب من الأرخبيل ، وهناك سوف تستطلع تلك السفينة ما إذا كانت هناك أية اشارة تدل على وصول أسطولنا . وإذا ما عثروا عليه، فإنهم سوف يقومون باخبار قائده جاكومو لوريدان Giacomo Loredan^(٢) بضرورة الاسراع بالتوجه نحو القسطنطينية ، لأن المدينة ما زالت صامدة وقوية بفضل المسيحيين الموجودين بها، كذلك ضرورة الاسراع بالحضور بشجاعة ، ودون خشية الأسطول التركى.

= التى أشار إليها نيقولو باربارو فى لغتها الأصلية، وعلى هذا فقد توصل الباحث من قبل إلى معانى السفن المسماة galley، Fusta، Parandaria، brigantino انظر: ما سبق ، ص ٨٢ ، هامش (٢،١) ، وأيضا انظر ص ١٢٠ ، هامش (٤) وبالبحث عن تأصيل للسفينة المسماة gripo، والتى أمر الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر بارسالها لملاقاة الأسطول البندقى المنتظر قدومه ، يجد الباحث نفسه أمام ثلاث احتمالات تدل على أن هذا الاسم مأخوذ عن أسماء السفن الإسلامية، الاحتمال الأول أن تكون gripo هى السفينة المسماة «الغراب»، وهى السفينة الفارغة من الشحن انظر : درويش النخيلي، المرجع السابق، ص ٢٢ . والاحتمال الثانى أن تكون gripo هى السفينة المسماة «الجريبية» ، وهى نوع من سفن القتال النهري، استخدمها المسلمون فى العراق فى منتصف القرن الثالث الهجرى / التاسع الميلادى ، انظر . الطبرى، تاريخ الرسل والملوك ، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، ج ٩ ، ط ٤ ، القاهرة، ١٩٧٩م، ص ٤٢١. وانظر أيضا : النخيلي، المرجع السابق ، ص ٢٣ . والاحتمال الثالث أن تكون gripo هى السفينة المسماة «الغراب»، الذى هو اسم من أسماء الشينى أو هو نوع منه . عن ذلك انظر. ابن ممتى، قوانين الدواوين ، ص ٣٤٠ . النخيلي ، المرجع السابق، ص ١٠٤-١١٢ .

ويرجع الباحث الاحتمال الأخير : «وذلك لأن المؤلف نيقولو باربارو يذكر فى السطر التالى مباشرة أنه جرى تجهيز سفينة bregantino للخروج فى هذه الموقعة . وسبق أن أثبتنا أن تلك السفينة تعنى السفينة المعروفة باسم الغراب. انظر ما سبق ، ص ١٢٠ هامش (٤)

١- نجروبونت هى الاسم الايطالى لايوبيا Euboea. استولت عليها البندقية وجعلت منها قاعدة لعملياتها العسكرية والتجارية فى بحر ايجيه منذ أوائل القرن الثالث عشر للعيلاد . ومنذ العام ١٢٣٢م فصاعداً بدأ الأتراك فى مهاجمة المناطق المحيطة بنجروبونت، ونجح العثمانيون فى الاستيلاء عليها فى العام ١٤٧٠م انظر:

O. D B, Vol , 2 , pp. 1448 - 49 .

٢- أرسل البابا البندقى جيروليمو مينوتو إلى البندقية فى ٢٦ يناير (١٤٥٣م) رسالة يناشد فيها ضرورة=

وأبحرت الـ bregantino خارج سلسلة الميناء فى منتصف ليلة الثالث من مايو، وقام جميع ركبائها بارتداء زى الأتراك ، كما قاموا برفع راية السلطان التركى. وتحت اسم الرب، رحلوا بحرية وسلام ، ودون أية صعوبة ، حيث توجهوا إلى مقربة من الأرخبيل، ولم يستطيعوا مشاهدة أسطولنا هناك أو فى أى مكان آخر .

وعندما رأى البحارة على متن الـ gripo أنه ليست هناك أية إشارة تدل على وجود أسطولنا، قال أحدهم للآخرين «اخوتى، لقد لمستم بوضوح أن الهجوم التركى النهائى على القسطنطينية هو أمر متوقع فى أية لحظة ، وأن المدينة سوف تسقط ويجرى احتلالها بواسطة الأتراك الوثنيين، لأننا رحلنا عنها وهى تعاني من نقص فى الرجال الشجعان. وهذا يا اخوانى ، يجعلنى أقول أنه يجب علينا إذن أن نتوجه بسرعة إلى أية أراض مسيحية. لأننى أدرك جيداً أن الأتراك قد استولوا على المدينة، خلال الوقت الذى رحلنا فيه عنها» وأجابته رفاقه قائلين «أيها الأخ، لقد أرسلنا الامبراطور من أجل عمل محدد ، وهو ما جئنا من أجله. وهكذا، فنحن نتمنى العوده للقسطنطينية سواء سقطت فى يد الأتراك، أم ما زالت مع المسيحيين، وسواء أكنّا متوجهين نحو الموت أم إلى الحياة . دعنا نتخذ طريقنا نحوها». وبالفعل ، عادوا إلى القسطنطينية بأمن وسلام ، حيث وجدوا المدينة ما زالت تحت سيطرة الإمبراطور .

عندما وصلوا إلى المدينة. قدموا تقريراً للامبراطور، ذكروا فيه أنهم لم يجدوا الأسطول البندقى . وعندما أدرك الامبراطور ذلك، بدأ فى البكاء والتحيب بمرارة وأسى ، لأن البنادقة لم يقوموا بإرسال المساعدة له، وقرر الامبراطور حينذاك أن يضع نفسه رهن مشيئة ربنا يسوع المسيح الأكثر شفقة ورحمة، والقديسة مريم العذراء، والقديس قسطنطين المدافع عن المدينة، لكي يقوموا بحراستها، وذلك لأن «العالم المسيحى كله لم يرغب فى مساعدتى ضد أولئك الأتراك الكفار، أعداء الأمة المسيحية».

≡ إرسال أسطول بحرى بندقى للدفاع عن القسطنطينية ، ووصلت الأخبار إلى السناتو البندقى فى ١٩ فبراير حول الوضع السيئ فى القسطنطينية . وحدث تأخير لحوالى الشهرين ، فرضت فيها البندقية الضرائب على التجار البنادقة وجمعت حوالى ١٦٠٠ بوكات من أجل تجهيز سفينتين حربيّتين كبيرتين تحمل كل منهما ٤٠٠ مقاتل، حدث هذا التأخير فى الوقت الذى كان الامبراطور البيزنطى قسطنطين الحادى عشر ينتظر فيه الأسطول البندقى على أحر من الجمر ، وخاصة عندما علم بأن قيادة هذا الأسطول قد آلت إلى الربان البحرى الشهير جاكومو لوريدان. لكن هذا الأسطول وصل إلى القسطنطينية بعد نجاح محمد الفاتح فى إسقاط المدينة بالفعل. انظر: Nicol, Op. cit , pp. 397-9 , 402-406 ; Run ciman Op, cit, pp. 81 , 113- 114, 161 .

فى الخامس مايو قام الأتراك الأشرار بنصب مدفع ضخـم على قمة التل الذى يقع أعلى بيرـا Pera، وبدأوا- من خلاله- فى إطلاق القذائف على أسطولنا الموجود قرب السلسلة، واستمروا لعدة أيام فى إطلاق القذائف، وكانت الأحجار التى يقوم المدفع بقذفها يبلغ وزن الواحدة منها مائتى رطل، وتكفلت القذيفة الثالثة التى أطلقها المدفع الضخم، بإرسال سفينة جنوية تبلغ حمولتها ثلاثمائة botte نحو القاع .

وكان على متن السفينة سلع مختلفة كالحرير، والشمع، وبضائع أخرى تبلغ قيمتها اثنتى عشر ألف دوكات بندقى. ولقد اندفعت السفينة بسرعة نحو قاع البحر، حتى أن رأس الصارى Masthead، وجسم السفينة hull قد اختفيا تماماً، كما غرق عدد من الرجال الذين كانوا على متنها.

عندما شاهد الأتراك هذه السفينة وهى تغرق نتيجة للقذيفة الثالثة فقط من مدفعهم، شعروا بالثقة الكاملة فى أنفسهم، واعتقدوا أنهم خلال عدة أيام سوف يقومون باغراق جميع سفن الأسطول المسيحى بواسطة قذائف المدفع الضخم.

وعندما اتضح لنا حجم الخسائر والأضرار التى سببها المدفع لسفنتنا، قررنا أن نقوم بحلّ سلسلة الميناء، حتى نستطيع تحريك السفن، التى تحركت فعلاً إلى مكان قريب من أسوار بيرـا، حتى تبتعد عن مرمى قذائف المدفع. وقامت بذلك عشر سفن بالإضافة إلى الشوانى التابعة لنا، تحت وابل من قذائف الأتراك، مما تسبب فى حدوث أضرار جسيمة، وخشى كثير من الرجال على حياتهم، لأن كل قذيفة تسببت فى قتل وجرح بعض الرجال على متن سفنتنا. وعلى سبيل المثال، قتلت بعض القذائف حوالى أربعة رجال، وبعضها قتلت رجلين، وكان من الصعوبة بمكان أن تقشل مجرد قذيفة واحدة فى ايجاد ضحية لها، بسبب اندفاعها القوى باتجاه السفن والشينيات. واستمرت تلك القذائف لعدة أيام متوالية، مما سبب الكثير من الأضرار .

وقام الأتراك - بعد ذلك- بنقل المدفع الضخم إلى مكان آخر، حيث نصبوا المدافع فى مكان مواجه لجزء من أسوار القسطنطينية عرف باسم Chinigo، وهناك استمروا، فى إطلاق القذائف الثقيله، لكن - ومع خالص الشكر للرب- لم تسبب أية خسائر.

وبعد ذلك قام السلطان بنقل المدافع من هذا المكان، ونصبهم إلى جوار مدافع أخرى من أجل مواصلة عملية دك أسوار المدينة بوابل من القذائف .

فى يوم السادس من مايو، لم يحدث شئ يستحق الذكر سواء فى النهار، أو خلال الليلة السابقة ، فيما عدا عمليات القذف المستمر لأسوار المدينة ، والصيحات الصاخبة المعتادة، وأصوات الصنج من أجل إصابة سكان المدينة بالرعب .

فى الساعة الرابعة من ليلة السابع من مايو، تسلل حوالى ثلاثين ألف تركى ، إلى أسفل أسوار القسطنطينية ، وكان بحوزتهم العديد من الكباش (المدكات) Rams بنية اقتحام المدينة غدراً ، لأننا لم نتوقع حدوث مثل هذا الهجوم، لكن الرب الخالد قام بمساعدتنا ، وأمد رجالنا بالقوة ، فنجحوا بشجاعة فى رد الأتراك على أعقابهم ، وأذاقوهم العذاب، بعد أن أصابوهم بخساره فادحة ، وقاموا بقتل العديد منهم . وفى الحقيقة لقد تم قتل عدد ضخم من الأتراك .

وبينما نحن على متن السفن فى تلك الليلة، سمعنا صراخاً همجياً ، قام به أولئك الكفرة الملاعين ، الذين كانوا يحيطون بأسوار المدينة المسكينة، وقد سُمع هذا الصراخ بالقرب من ساحل الأناضول Anatolia على مسافة اثنتى عشر ميلاً من المعسكر التركى .

عندما سمعنا ذلك الصراخ ، كنا متاكدين تماماً بأنهم الآن يحاولون القيام بالهجوم النهائى الشامل، مستخدمين أصوات الصنج والدفوف التابعة لهم، وكان الصوت المنبعث منهم ومن آلاتهم لا يمكن تصوّره أو تصديق حدوثه، الا للذين كانوا هناك بالفعل وسمعوه .

وكما ذكرت سابقاً، بسبب كوننا على متن السفن ، فقد اعتقدنا أنهم توجهوا للقيام بالهجوم فى تلك الليلة ، وفى الحال قمنا لحمل أسلحتنا ، وتوجهنا جميعاً بشجاعة نحو مواقعنا، سواء على متن السفن أو على الشينيات، واستمر القتال البرى حتى الساعة السابعة من الليل . ولم يستغرق أكثر من ثلاث ساعات ، لكن الأسطول التركى لم يظهر أية رغبة فى التحرك ، لأنهم كانوا يشعرون بالخوف من اسطولنا الذى كان يربض عند السلسلة مستعداً لمواجهةهم .

وهكذا، فلم يحدث شئ فى البحر ذلك اليوم، وكذلك لم تحدث أية تطورات جديدة على البر بقية الليل.

وبمجرد انسحاب الأتراك من المكان الذى دارت فيه المعركة ، بعد أن أدركوا أنهم لن يتمكنوا من احراز النصر، قاموا بتبنى خطة جديدة ، وتوجهوا نحو بوابة القصر بصيحاتهم القوية ، وقاموا باطلاق القذائف عليها، ونجحوا فى اشعال النار بها . وبمجرد اشتعال البوابة، أخذ رجالنا فى الجرى باتجاهها، حيث قاموا بهزيمة الأتراك، وردهم على أعقابهم. وقاموا باغلاق تلك البوابة .

وفى نفس هذا اليوم أيضاً - السابع من مايو- عادت السفن إلى مكانها عند السلسلة، وكانت قد تركت مكانها السابق للحماية من قذائف المدفع، حيث توجهت بمحاذاة ساحل بيررا. وقامت السفن بحراسة السلسلة ، كما كانت تفعل ذلك من قبل .

فى يوم الثامن من مايو ، قمنا بعقد مجلس الاثنى عشر، وتم أخذ التصويت بأن تنزل إلى أراضي القسطنطينية ، كافة السلع والبضائع التى كانت على متن السفينتين القادمتين من تانا، وكذلك من أجل إغراق تلك السفن الثلاث فى ترسانة الامبراطور.

وعندما تم اجراء التصويت لتفريغ حمولة السفن، وتم البدء فى ذلك بالفعل ، قام البحارة بالوثوب - بشكل مفاجئ- شاهرين سيوفهم نحو الفتحات الموجودة فى جوانب السفن Pons^(١) من أجل تحميل وتفريغ السلع والبضائع ، صائحين «دعونا نرى ذلك الرجل الذى سوف يستطيع أن يأخذ السلع والبضائع من تلك السفن ' ونحن نعرف ، أنه حيثما تكون ممتلكاتنا ، تكون أوطاننا أيضاً. ونعرف أيضاً أنه حالما نقوم بتفريغ تلك السفن ثم اغراقها فى الترسانة الامبراطورية ، فإن البيزنطيين سوف يقومون فى الحال باستبقائنا بالقوة فى مدينتهم كى نصبح عبيداً لهم . بينما نحن نمتلك الآن حرية الرحيل أو البقاء».

و«هكذا فإنه من الأفضل التوقف عن تفريغ السفن، وأن نضع أنفسنا تحت رحمة الرب، الذى سيقوم بحسم هذا الأمر ، ولأن كافة الأمور تسير بمشيئته ، حيث يقوم بفعل كل ما يراه مناسباً، ولأننا نعرف أنه لا يوجد مسيحى واحد وجد نفسه فى هذه المدينة التعسة ، سوف يتمكن من الاقلاط من غضب أولئك الكفرة الملاحين ، وأتينا جميعاً سوف نلقى نهايتنا بالسيف التركى، ولهذا ، فقد قررنا ، نحن الذين على متن السفن، أن نموت هنا على متنها، لأنها بمثابة وطننا ، ولن نموت على البر».

كان احتجاج البحارة مؤثراً للغاية، وهكذا شعر ربابنة تلك السفن بثقة شديدة ، وبقوا على متن سفنهم بالقرب من الحاجز المكون من الأوتاد الخشبية Palisade عند بيررا، برفقة البحارة.

١- Ports هى الفتحات الموجودة فى جنب السفينة من أجل تحميل السلع والبضائع . وغالباً ما تكون فى الجانب الأيسر للسفينة . انظر :

“A Comprehensive Maritime Dictionary “, p. 397 .

“The Oxford Companion to Ships & The Sea” , p. 660 .

وطوال هذا اليوم، لم يتوقف الأتراك عن إطلاق قذائفهم على أسوار المدينة عند بوابة القديس رومانو بواسطة مدفعهم الضخم ، وياقى المدافع الأخرى.

فى يوم التاسع من مايو ، عقدنا مجلس الاثنى عشر، وتم أخذ التصويت على ضرورة توجه كابرييل تريفيكسان ، قائد السفينتين برأ عبر أسوار القسطنطينية برفقة أربعين رجلاً من رجاله ، وأن يقوم بتجريد السفينتين من السلاح ، وأن يتركهما تحت مسئولية الوفيكس ديبو ، قائد السفن القادمة من تانا .

وأطاع تريفيكسان الأوامر الصادرة إليه من المجمع ، وقام باخلاء سفينته من السلاح ، وتوجه برأ برفقة أربعمئة رجل من الذين كانوا على متن السفن، التى ظلت كما ذكرت منذ قليل، تحت مسئولية الوفيكس ديبو.

فى اليوم العاشر من مايو ، عقدنا مجلس الاثنى عشرة، مستخدمين كنيسة القديسة، مريم بالقسطنطينية لأجل هذا الغرض.

«بالنظر إلى ما نمر به الآن من خطر محقق ، فإنه لأمر جدير بالثناء أن نستعد للعمليات البحرية، ونظراً لأنه من الواضح بجلاء أن أسطول أولئك الأتراك الكفرة فى غاية القوة مقارنة بأسطولنا ، ولأنه توجد فى ميناء القسطنطينية وييرا العديد من السفن والشينيات ، وأنواع أخرى من السفن لأهم شتى ، ومن مناطق مختلفة ، ومن أجل ادراك الأسلوب الأمثل للقيام بالمعارك البحرية، وحتى نستطيع نحن المسيحيين تحقيق النصر والشرف فى هذا العالم على حساب الأتراك، من أجل هذا كله، تم عقد تصويت تحت سلطة المجمع ، قضى بضرورة تعيين النبيل الوفيكس ديبو ريان السفن القادمة من تانا، قائداً بحرياً عاماً على الأسطول البحرى الموجود بالميناء ، كما يجب عليه أن يتمتع بكافة السلطات من أجل اصدار الأوامر اللازمة لجميع السفن الموجودة فى الميناء».

وبعد الانتهاء من التصويت ، وافق ديبو على تسلم زمام القيادة البحرية ، وبدأ فى الحال بوضع نظام مناسب للسفن والشوانى الموجودة فى الميناء . وبشكل خاص بالسلسلة الموجودة فى الميناء لأن سلامة سفتنا وميناعنا تعتمد عليها . وعندما تم الانتهاء من تنظيم السفن والميناء بهذه الطريقة ، شعرنا بثقة أكبر، ولم نعد نشغل بالنا بأمر القتال البحرى .

فى يوم الحادى عشر من مايو ، لم يحدث شئ فى البر أو البحر، فيما عدا الكميات الهائلة من القذائف التى قام باطلاقها المدفع تجاه الأسوار البرية، ولم يحدث شئ آخر يستحق الذكر.

فى منتصف ليلة الثانى عشر من مايو ، وصل إلى أسوار القصر خمسين ألفاً من الأتراك المنظمين جيداً ، حيث أحاطوا بالقصر^(١) ، مستغلين صيحاتهم الوحشية ، وأصوات الصنج والدفوف ، وقاموا بهجوم عنيف على أسوار القصر ، لدرجة أن معظم سكان المدينة اعتقدوا أن المدينة ستسقط فى تلك الليلة .

لكن ربنا الرحيم ، يسوع المسيح ، لم يرغب فى سقوط المدينة ببساطة ، وكذلك رغب الرب فى أن تتحقق النبوة التى وضعت بواسطة القديس قسطنطين ، أول أباطرة القسطنطينية ، الذى سبق وأن تنبأ بأن المدينة لن تسقط ، حتى طلوع القمر على هيئة بدر معتم ، ما يلبث أن يختفى تصفه^(٢) ، وهكذا فإن الوقت الحالى ليس وقت سقوط المدينة ، على الرغم من أن تدميرها وهزيمة الامبراطورية التابعة لها وفقدانها ، قد لاح فى الأفق .

فى الثالث عشر من مايو ، ترك كابريل تريفيكسان ، ريان السفن الخفيفة ، سفنه تحت مسئولية قائد الميناء ، وتوجه لاتخاذ موقعه بصحبة رجاله عند أسوار المدينة ، من أجل حراسة الأسوار التى سبق أن قاموا بترميمها بعد تعرضها للأضرار من قبل قذائف المدفع . وظل فى مكانه عند الأسوار ، حتى احتلال الأتراك للمدينة . وخلال هذا اليوم أيضاً ، وصل عدد من الأتراك حتى الأسوار ، وقاموا بمناوشات هجومية ، لكن لم يحدث شئ ذو قيمة طوال النهار والليل ، باستثناء القذائف التى قام المدفع بإطلاقها بشكل مستمر على الأسوار سيئة الحظ .

فى الساعة الثالثة من يوم الرابع عشر من مايو ، قام السلطان التركى بتحريك المدفع الذى كان يقع فوق القل المطل على بيراء ، والذى كان حتى ذلك الوقت يقوم بقذف سفننا ، وأمكن حصر الأحجار التى قام المدفع بإطلاقها على أسطولنا ، فبلغت مائتين واثنى عشر حجراً ، كان وزن كل منها يبلغ مائتى رطل على الأقل .

وبعد تحريك ذلك المدفع من موقعه ، قام السلطان بنصبه فى مكان يستطيع منه إطلاق قذائفه على البوابة المعروفة باسم Chinigo ، وهو مكان قريب من قصر الامبراطور الأجل .

قام الأتراك بإطلاق كميات وافرة من قذائف مدفعهم ، لكنها لم تسبب أية أضرار ، ولهذا السبب قاموا بسحب المدفع بعيداً عن مكانه ، وقاموا بنصبه إلى جوار بعض المدافع الأخرى

١- الترجمة الحرفية للجملة هى «... وأحاط هؤلاء الكلاب الأتراك بالقصر».

٢- عن تلك النبوة ، والنبوءات الأخرى المتعلقة بسقوط القسطنطينية . انظر ما ذكره باربارو سابقاً

ص ١٢٨-١٢٩ . وانظر أيضاً هامش (١) . كذلك انظر ما ذكره باربارو لاحقاً الصفحات ١٦٩-١٧٠ .

قريباً من أسوار المدينة ، من أجل إطلاق القذائف على بوابة القدس رومانوس ، حيث الجزء الأضعف من أسوار المدينة .

ولم يتوقف المدفع - طوال الليل والنهار - عن إطلاق قذائفه على الأسوار المنكوبة، وقام بتحطيم أجزاء واسعة منها، بحيث اشتركنا نحن سكان المدينة ، نهائياً ولبلاً ، فى القيام بعمليات ترميم ، واصلاح جيده للأسوار التى تهدمت ، عبر استخدامنا للبراميل الخشبية ، والأغصان والشجيرات القصيرة والرمال، وكل ما يلزم لذلك ، ولهذا عاد ذلك الجزء من الأسوار قوياً كما كان، ولم نعد نخشى هدم الأتراك له مرة أخرى .

وعند تلك البوابة (بوابة القديس رومانوس) التى تضررت أكثر من غيرها ، قمنا بتسليح ثلاثمائة رجل فى كامل سلاحهم ، من أجل توفير الحماية للمكان ، كان جميعهم من الأجانب ، إذ لم يكن من بينهم أى بيزنطى ، لأنهم يتصفون بالجبن، وكان مع أولئك الرجال بعض المدافع والبنادق ، فضلاً عن وجود عدد كبير للغاية من رماة القوس والنشاب ، والأسلحة الأخرى.

فى الخامس عشر من مايو، لم تجر أية أحداث ذات قيمة فى البحر وعلى البر، فيما عدا استمرار المدفع فى إطلاق قذائفه على الأسوار ، وبمجرد تداعى جزء من الأسوار ، كنا نشرع فى ترميمه وكذلك فى تجهيز القنوات الداخلية للأسوار كما ذكرت سابقاً . وفى هذا اليوم ظل الأتراك هادئين للغاية فى معسكرهم دون أن يقوموا بمناوشاتهم المعتادة حول الأسوار.

فى السادس عشر من مايو. وعند الساعة الثانية والعشرين ، خرجت عدة سفن تركية من نوع الـ bregantini من بين أسطولهم الذى كان راسياً عند الأعمدة، وانطلقت بسرعة قصوى تجاه سلسلة الميناء ، بينما نحن المسيحيون ننتظر وصولهم بفرح بالغ، معتقدين أنهم المسيحيون الذين هربوا من السفن التركية ، وأرادوا الحضور إلينا من أجل تجنب المخاطر ، لكن عندما اقتربت السفن من السلسلة، قاموا بإطلاق العديد من الأصوات المزعجة . وعندما أدركنا حقيقة ما يحدث ، قررنا القيام بهجوم مضاد عبر استخدام سفننا من نوع الـ bre-gantini أيضاً ، وعندما شعر الأتراك بهجومنا ، لانوا بالفرار، وأخذ رجالنا فى مطاردتهم حيث تمكنوا من الإمساك ببعضهم، وحث الأتراك مجاديفهم من أجل الهرب بسرعة باتجاه أسطولهم . وعادت سفنتنا إلى داخل سلسلة الميناء، ولم يحدث شئ آخر ذو قيمة فى البحر ذلك اليوم.

فى السادس عشر من مايو ، جرت الأحداث التالية على البر : قام الأتراك بحفر نفق من أجل النفاذ منه إلى المدينة من تحت الأسوار. وتم اكتشاف النفق فى نفس اليوم، وكان الأتراك

قد بدأوا بحفره من مسافة تبعد نصف ميل عن أسوار القسطنطينية ، وتمر النفق أسفل أساسات الأسوار، لكن رجالنا في المدينة سمعواهم يعملون ليلاً في حفر النفق.

١- استخدم الأتراك العثمانيون أسلوب حفر الانفاق تحت أسوار القسطنطينية ، من أجل التناز إلى داخل المدينة ، لكن هذا الأسلوب فشل رغم تكراره أكثر من مرة . انظر:

Tursun Bey , Op. cit , pp. 47-51 .

لكنه لم يتحدث عن فشل ذلك الأسلوب في اقتحام المدينة. انظر أيضاً .

Runciman, Op. cit, pp. 118-119 .

حيث يذكر أن الأتراك قاموا بحفر نفق في السادس عشر من مايو، تحت السور القريب من قصر بلاخرناى Blachernae ، بالقرب من بوابة كاليجاريا Caligaria ، لكن البيزنطيين اكتشفوا ذلك وقام القائد الأعلى البيزنطى باستدعاء المهندس يوحنا جرانت Johannes Grant الذى قام بحفر نفق مضاد ، نجح من خلاله فى الوصول إلى نفق الأتراك ، واشعال النيران به مما أدى إلى مصرع العديد من حفارى النفق الأتراك . لكنهم لم يصابوا باليأس ، وقاموا يوم الحادى والعشرين من مايو بحفر نفق آخر بالقرب من بوابة كاليجاريا . وقام البيزنطيون بحفر نفق آخر مضاد بمساعدة المهندس جرانت ، واشعال النيران فى النفق التركى ، ما أدى إلى اختناق العديد من الأتراك ، وهروبهم .

والحقيقة أن البيزنطيين هم الذين فكروا أولاً فى استخدام الانفاق تحت أسوار القسطنطينية ، حيث يذكر المؤرخ البيزنطى دوكاس أن بعض البيزنطيين من كبار السن، كانوا يعرفون أحد الانفاق أسفل الطرف المنخفض من القصر (بلاخرناى) وكان مغلّقاً منذ سنوات. وعندما سمع الامبراطور بوجود هذا النفق، أمر باعادة حفره ، بحيث يستطيع الجنود البيزنطيون استخدامه فى هجومهم المباغت على الأتراك ، وذلك لأنه كان محمياً بجدران صلبة ، بحيث تقوم المعركة مع الأتراك العثمانيين فى الفناء الخارجى له. وكان اسم باب النفق يدعى كيركوبورتا Kerko Porta ، انظر:

Doukas , "Decline and Fall of Byzantium", p. 221 .

وكان هذا الباب يسمى أيضاً زيلوكيركون Nylokerkon لأنه يقود إلى ميدان مقفر خارج القسطنطينية انظر:

Mullingen , Op cit, pp 89-94

وانظر أيضاً : حاتم الطحاوى ، اقتحام العثمانيين للقسطنطينية. شهادة المؤرخ البيزنطى دوكاس ، مجلة «الاجتهاد»، العددان ٤١ ، ٤٢ ، السنة العاشرة ، بيروت ١٩٩٩م، ص١٩٣-٢٣٠ ، خاصة ص٢٠٣-٢٠٤ =

وبمجرد سماع الضجة الناتجة عن حفر النفق، قام القائد العسكرى الأعلى فوراً بإبلاغ الامبراطور الأجل، وأخبره أيضاً بالمرحلة التى وصلت إليها عملية حفر النفق، وانتابت الامبراطور دهشة كبيرة لهذا الأمر، وقام فى الحال بالنظر فى ما يجب فعله تجاه هذا الأمر .

تم البحث عبر المدينة كلها عن كافة الرجال الذين يتمتعون بخبرة فى عمل الأنفاق، وعندما تم العثور عليهم. أرسلوا لمقابلة القائد العسكرى الأعلى، الذى أمرهم بالشروع فى حفر نفق داخل المدينة، يمكنه مقابلة النفق الذى يقوم الأتراك بحفره، وبهذه الطريقة تمكنا من العثور على الأتراك تحت الأرض، وكان رجالنا مستعدين لذلك، فقاموا بسرعة بقذفهم بالنيران المشتعلة، ونجحوا فى احراق كافة الأعمدة والدعامات الخشبية التى اعتمدت عليها عملية حفر النفق، وذلك حتى يُهال التراب فوق رؤوس الأتراك، ويختنق أولئك الموجودين بالنفق، أو يحترقوا بفعل النيران (١).

كان ذلك النفق موجوداً تحت المكان المسمى كاليجاريا (Calegaria)، وقام الأتراك بحفره فى هذه المنطقة لأنه لم يكن بها حصون أماميه barbicans . وتسببت تلك المحاولة فى حدوث المزيد من الخوف والذعر فى القسطنطينية، لأنه ساد اعتقاد بأن الأتراك ربما يقومون بهجوم على المدينة فى أية ليلة، عبر استخدام الانفاق التى قاموا بحفرها، وذلك على الرغم من أنه تم احباط محاولتهم هذه المرة .

ولم يجر شئ آخر فى هذا اليوم، باستثناء الكمية الضخمة من قذائف المدفع، التى تساقطت على الأسوار بشكل معتاد، والصيحات العديدة التى تشق السكون .

وفى الساعة التى سبقت غروب شمس السابع عشر من مايو، اقتربت خمس سفن من نوع الـ Fuste من سلسلة الميناء، لكى تراقب الوضع الذى كان عليه أسطولنا، وكيفية تنظيمه،

١ = ونجح العثمانيون فى استغلال هذا النفق البيزنطى فتسلل منه خمسون محارباً عثمانياً، نجحوا فى الوصول إلى أعلى الأسوار، ومباغلة الحراس المرابطين هناك، والسيطرة عليها، انظر: Doukas, Op. cit, p. 223.

١- عن ذلك انظر أيضاً :

Leonard of Chios , Op. cit, pp. 17-18 , kielty, Op. cit , pp. 106-107 ; Schlumberger, Op. cit , pp. 203-204 .

ولكى تستكشف ما إذا كنا نشعر بالخوف منهم. وعندما شاهد رجالنا على متن السفن تلك السفن الخمسة تقترب من السلسلة ، بدأوا فى إطلاق نيران مدافعهم عليهم، وبدأ الجميع ، أولئك الذين بداخل القسطنطينية وأولئك الذين على متن السفن ، والآخرين على متن الشوانى، بدأوا جميعاً فى إطلاق أكثر من سبعين قذيفة ، لكن لسوء الحظ لم تصب واحدة منها مكانها الصحيح .

عندما شاهدت السفن التركية قذائف المدافع تنطلق تجاهها، قررت العودة إلى باقى سفن الأسطول الذى كان قد ألقى مراسيه عند الأعمدة . وهناك قدموا تقريراً إلى قائدهم البحرى بأنهم قد قاموا بمعاينة أسطولنا. ومنذ هذا الوقت فصاعداً ، بدأ الأتراك يشعرون بالخوف الشديد من أسطولنا البحرى.

ولم يحدث شئ آخر فى البحر ذلك اليوم، على الرغم من انطلاق العديد من قذائف المدافع عند الأسوار البرية ، وبعض المناوشات البسيطة، لكن لم يحدث شئ هام يستحق الذكر، فيما عدا أن كل شخص على البر كان يشعر بالخوف الشديد، ويتوقع الهجوم النهائى من يوم لآخر، ونتيجة لذلك، توقع كل شخص أنه سيجرى استرقاقه من قبل الأتراك، وهو ما حدث بالفعل فيما بعد (١).

فى ليلة الثامن عشر من مايو ، قام الأتراك ببناء برج قوى للغاية بالطريقة التالية: عملت أعداد كبيرة منهم طوال الليل، حتى نجحوا فى تشييد البرج على حافة الخندق، بحيث يصل ارتفاعه إلى مسافة أعلى من أسوار الحصون الأمامية ، بالقرب من المكان المسمى Cresca ، وتم عمل هذا البرج بطريقة معينة، بحيث لا يصدق أحد أنه كان من الممكن أن يتم بهذا الشكل كما أنهم لم يقوموا بتشديد مثله من قبل (٢).

١- عن وقوع العديد من الرجال والنساء البيزنطيين فى أسر العثمانيين ، انظر ما ذكره باربارو فى الصفحات التالية، ص ١٧٤-١٧٦

وانظر أيضاً المصادر البيزنطية والعثمانية واللاتينية المعاصرة: Chalcocandylas , Op. cit , p. 52 ; Kritovoulus, Op. cit, pp. 71-74 ; Doukas, Op. cit , pp. 226-227 , 229-231, 239 ; Tursun bey , Op. cit , pp. 59-63 , Asik Pasa Oglu , Op. cit, p. 134 , Riccheno, Op. cit, p. 23 ; Lomellino , op. cit , p. 132 .

٢- عن هذا البرج الذى ساهم بشكل فعال فى الوصول إلى أعلى أسوار القسطنطينية انظر:

حيث يذكر أن زاجان باشا هو الذى أمر بتشيد هذا البرج الخشبي. Tedaldi, Op. cit, p. 5 .

ويبدو أن كلام باربارو هنا لا يتصف بالبقية . إذ كيف يشيد الأتراك برجاً فى ليلة واحدة، إلا إذا كانوا قد قاموا بمثل هذا العمل من قبل. مع ملاحظة أنه يصفهم هنا أيضاً بالكفار .

ودعوني أخبركم ، أنه إذا ما رغب كافة المسيحيين في القسطنطينية في إقامة أى برج على هذا المستوى، فإنهم لن يستطيعوا إقامته في شهر واحد، لكن الأتراك فعلوها في ليلة واحدة.

كان هذا البرج الجدير بالملاحظة يقع على مسافة عشر خطوات عن الأسوار الرئيسية للمدينة، وتجمع أعلى الأسوار عدد كبير من الرجال المسلحين ، الذين ذهلوا جميعاً من ذلك البرج ، وعلى الرغم من اننى قلت أنه تم الانتهاء منه في ليلة واحدة، فإن الحقيقة أن تشييده تم في أقل من أربع ساعات. لقد انتهوا منه بسرعة بحيث أن أولئك الرجال الذين كانوا على الأسوار لحراستها، لم يدركوا أنه قد تم بناءه سوى في الصباح ، عندما شاهدوه بعد اكتمال بنائه ، حيث أصابهم الرعب والفرع .

عندما قام البيزنطيون بمعاينة هذا العمل الرائع، توجهوا بسرعة لخبار الإمبراطور الأجلّ، الذى حضر في الحال برفقة نبلائه لرؤية هذا العمل المدهش . وعندما شاهدوه أصيبوا بالرعب والهلع ، وتصاعد خوفهم من أن يتسبب هذا البرج في سقوط القسطنطينية ، لأن ارتفاعه يعلو على ارتفاع الحصون الأمامية للأسوار.

تم تشييد ذلك البرج بالطريقة التالية : في البدايه تم صنع اطار من الدعامات الخشبية المتينة، وتمت تغطيتها وتطويقها بجلود الجمال من أجل حمايتها^(١). وكانت مليئة من الداخل بالرمال حتى المنتصف ، كذلك أحاطت بها الرمال من الخارج حتى منتصفها ، كي لا تستطيع قذائف المدفع أو البنادق، أو حتى السهام القصيرة القوية hotte ، أصابتها بأضرار ، كذلك قاموا بوضع حواجز خشبية تمت تغطيتها بجلود الجمال .

كما قاموا بتعبيد طريق يبدأ من البرج إلى معسكرهم يبلغ طوله نصف الميل، مغطى بطبقة مزدوجة من الحواجز الخشبية المطوقة أيضاً بجلود الجمال، حتى يتمكنوا من التحرك من البرج إلى المعسكر تحت الحماية ، ودون التعرض لخطر البنادق أو السهام القصيرة القوية أو قذائف المدافع الصغيرة ، وداخل البرج كان الأتراك يقومون بحفر الأرض ، ويقومون في نفس الوقت برمي التراب في الخندق، واستمروا في تكويم التراب بهذه الطريقة .

١- عن ذلك البرج انظر أيضاً : Leonard of Chios, Op. cit, p. 18 .

لكنه يذكر أنه تمت تغطية الحواجز الخشبية بجلود الثيران .

قام الأتراك بتكوير كميات هائلة من التراب، حتى استطاعوا أن يصبحوا فى موقع أعلى من جدران الحصون الأمامية، وكان لهذا البرج مساهمة عظيمة فى استيلائهم على المدينة. شعر الأتراك بأنهم قد أحرزوا تقدماً هائلاً، عندما انتهوا من تشييد هذا البرج المتميز، والاستثنائى . وقاموا أيضاً بردم الخندق بالتراب أينما كان ذلك ضرورياً^(١).

ولم يحدث شئ آخر فى ذلك اليوم، سواء فى البحر أو فى البر، طوال النهار والليل، لكن يبدو من الواجب أن نتذكر أن الأتراك قاموا فى ذلك اليوم، بإطلاق عدد كبير من السهام من مكانهم بالبرج ، باتجاه المدينة، وبدأ أن روحهم المعنوية عالية تماماً ، بينما كان رجالنا يشعرون بالحزن الشديد ، فضلاً عن الرعب والفرع .

فى يوم التاسع عشر من مايو ، قام أولئك الأتراك الملاعين - المليئين بالشر والخبث - بعمل جسر عبر الميناء بجوار بيرا باتجاه القسطنطينية ، وله سياج من الأوتاد الخشبية القوية، وقاموا بصنعه مستخدمين البراميل الخشبية الكبيرة بعد صفها جنباً إلى جنب ، وعبر استخدام أعمدة خشبية طويلة تمتد من جانب لآخر، تم ربطها وشدها بإحكام لتصنع فى النهاية جسراً قوياً ومحكماً^(٢).

Runciman , Op . cit , p 119 .

-١-

٢- عن ذلك الجسر انظر Asik Pasa Oglu, Op. cit , p. 138

ومن أجل معرفة التفاصيل المتعلقة بكيفية صناعة هذا الجسر ، انظر المؤرخ البيزنطى المعاصر للأحداث دوكاس الذى ذكر بأن السلطان محمد الفاتح أمر بإقامة جسر امتد من غلطة إلى مكان يقع بالقرب من بوابة Kenegon (Chinigo) . وهكذا تم جمع أكثر من ألف برميل من براميل الخمور الفارغة ، وربطها معاً بالحبال، بحيث يصبح عرضها يساوى طول برميلين ، مكونة صفاً واحداً ، ثم صف آخر مثل الصف الأول، وبعد ذلك تم ربط الصفين معاً عبر الواح خشبية تم تثبيتها بالمسامير ، بحيث يوضع لوح خشبى سميك فوق البراميل . الأمر الذى أدى فى النهاية إلى ايجاد جسر خشبى يكفى عرضه لعبور خمسة من الجنود إلى الجانب الآخر دون صعوبة تذكر انظر.

Doukas , Op. cit , p 219 .

Leonard of Chios , Op. cit, p. 21 ; Riccherio , Op. cit, p. 119 .

انظر أيضاً : Tedaldi , Op. cit, p. 5 الذى يذكر أن زاجان باشا هو الذى قام بتشيد هذا الجسر الخشبى.

قام الأتراك بصنع الجسر على هذا الشكل ليمتد عبر الميناء عند قيامهم بالهجوم الرئيسى والنهائى ، ولكى يجعل هجومهم أكبر تأثيراً ، وأكثر فاعلية، وليجعل أيضاً رجالنا يتوزعون وينتشرون حول المدينة، ومن أجل أن يمنحوا أنفسهم فرصة كبرى لنجاح الهجوم على الجانب البرى، حيث توجد الأسوار التى أصيبت بالأضرار نتيجة قذائف المدافع.

احتفظ الأتراك بالجسر، ولم يقوموا بنصبه قبل الهجوم النهائى، لأن قذيفة مدفع واحدة كانت كافية بتحطيمه، وجعله بلا فائدة، ويمكننى القول بأن الهدف الرئيسى من ذلك كان تشتيت جهود رجالنا حول جميع أسوار المدينة . وكان مقرراً للجسر أن يمتد إلى بوابة Chi-migo، لكنه لم يمتد إلى الجانب الآخر، لأن الأتراك لم يحتاجوا لفعل ذلك.

كان هذا هو كل ما حدث فى البر والبحر هذا اليوم، فيما عدا ما حدث على البر من استمرار قذائف المدفع التى انهمرت ليلاً ونهاراً ، مما أدى إلى تهدم أجزاء من السور وسقوطها أرضاً ، حيث قام رجالنا بترميم وإعادة بناء ما تهدم من السور ، عبر استخدام البراميل الخشبية والرمال لجعلها أقوى مما كانت عليه .

وقام الأتراك أيضاً باطلاق عدد ضخم من السهام والقذائف ، وكنا نعانى يومياً من اطلاقهم للسهام والقذائف ، وكذلك من صياحهم المعتاد .

فى يوم العشرين من مايو، كانت هناك بالكاد هجمات أو مناوشات فى البحر وعلى البر^(١)، واستمرت قذائف المدافع المعتادة بطول الأسوار، مما تسبب فى تهدم أجزاء منها، وكنا نسرع ، نحن المسيحيين ، إلى ترميم واصلاح الأضرار عبر استخدام البراميل الخشبية والأغصان الطرية Withes والرمال، لجعلها أقوى مما كانت عليه من قبل .

وعمل الجميع ، رجالاً ونساءً ، كباراً فى السن ويافعين، وكذلك عمل القساوسة، حيث اشترك الجميع فى ترميم الأسوار بسبب الحاجة الملحة والعاجلة لذلك ، وحتى تكون الأسوار قوية ومنيعة، فقد قامت المدافع بتجريد المدينة كلها من دفاعاتها .

امتازت المدافع بكبر حجمها بشكل واضح ، وكان لأحدها حجم ضخم بشكل استثنائى ونادر، يلقي بقذيفة يبلغ وزنها ألف ومائتى رطل. وعندما يقوم باطلاق القذيفة ، فإن صوت انفجارها يجعل كافة أسوار المدينة ، والأراضى الداخليه بها تصاب بالارتجاج، حتى السفن

فى الميناء تشعر أيضاً بالاهتزاز من جراء ذلك. وبسبب الضجة الهائلة التى أحدثها هذا المدفع ، فإن العديد من النسوة قد أغمى عليهن جراء الصدمة التى سببتها عملية إطلاق القذائف . ولا يوجد مدفع آخر أضخم من ذلك المدفع^(١)، الذى قام بتحطيم أجزاء كبيرة من أسوار المدينة ، ولم تجر أية أحداث أخرى فى ذلك اليوم.

فى يوم الحادى والعشرين ، وقبل الفجر بساعتين، تحرك الأسطول التركى، الذى كان راسياً عند الأعمدة ، عبر التجديف بنشاط وحيوية، حتى اقترب من سلسلة الميناء، وانطلقت أصوات الصنج النحاسية والدفوف فى ضجة هائلة، من أجل بث الرعب فى قلوبنا ، ثم توقفت سفنهم عندما اقتربت من السلسلة ، وكنا نحن البحارة ننتظرهم فى شجاعة أن يقوموا بشن هجوم على أسطولنا . فقد كنا جميعاً مسلحين ومستعدين بشكل جيد، وخاصة السفن العشر الواقفة عند السلسلة^(٢)، التى كانت منظمة، ومجهزة تماماً استعداداً للهجوم التركى .

١- عن المدافع العثمانية ، وخاصة المدفع العملاق . انظر ما ذكره باربارو سابقاً ، عن أحداث يوم الحادى عشر من أبريل ١٤٥٣م، ص ١١٨ ، وانظر الهامش رقم (١) انظر أيضاً : Dolfın, Op. cit , p. 127
حيث يذكر أن المدفع العملاق كان ضخماً للغاية ، ونظراً لوجود صعوبة فى نقله، فقد تم ذلك عبر تفكيك أجزائه ، ليكون من السهل حمله ونقله إلى المكان المراد نصبه به .

انظر أيضاً المؤرخ البيزنطى دوكاس الذى يذكر أنه «عندما كانت تنطلق قذيفة المدفع، فإنها تقوم بتحطيم الأسوار واصابتها بالارتجاج . وأن العثمانيين كانوا يستمرون فى إطلاق قذائف المدفع على نفس المكان الذى أطلقت عليه القذائف السابقة . إلا أنهم استفادوا بعد ذلك من نصيحة سفير حنا هونيادى : John Hunyad ، الذى سخر من تلك الطريقة فى التصويب وأسدهم النصيح بأنهم إذا ما أرادوا حقيقة إسقاط الأسوار بسهولة ، فيجب عليهم أن يسددا القذائف نحو جزء آخر من السور يبعد عن القذيفة الأولى مسافة ثلاثين إلى ست وثلاثين ياردة . وبعد أن يتم ذلك بشكل متقن ، يجب أن يطلقوا القذيفة الثالثة على نقطة ثالثة . وعندما تكون النقاط التى سقطت عليها القذائف شكل مثلث، سوف يصيح سقوط هذا الجزء من السور أكثر سهولة »، انظر.

Doukas, Op. cit , p. 216 .

وتوجد صورته فوتوغرافية للمدفع العملاق الذى استخدمه العثمانيون لدى: عبد الرحمن فهمى، المرجع السابق، شكل (٨) .

٢- عن التفاصيل الخاصة بتلك السفن العشر وحمولتها. انظر ما سبق ص ١١٧-١١٨ .

ويدا أنهم سوف يقومون بالهجوم ، على الرغم من وجود عدد كبير من الرجال المسلحين على متن سفننا . ويمجرد اقتراب سفنهم من السلسلة، انطلقت صيحات التحذير عبر أرجاء المدينة كلها، معتقدين أن هذا اليوم هو يوم الهجوم التركي العام والنهائي .

وعندما دقت نواقيس الخطر وانطلقت صفارات الانذار، اندفع جميع سكان القسطنطينية لحمل السلاح ، وتوجه كل شخص للوقوف فى المكان الخاص به، والذي تم تحديده من قبل بواسطة الامبراطور الأجل^(١).

عندما لاحظ الأسطول التركى أننا فى غاية التنظيم والاستعداد ، وسمع التحذيرات تتردد بوتيرة واحدة عبر كافة جنبات المدينة كلها، تكوّن لديهم رأى آخر. فاستدارت السفن فجأة ، وعادت إلى مرساها عند الأعمدة.

وهكذا ، فبعد ساعتين من شروق الشمس ، كان الهدوء قد لف المعسكرين ، نتيجة عدم حدوث الهجوم البحرى . وعند ظهر ذلك اليوم ، عثرنا فى المدينة على نفق تحت Calegaria ، قام الأتراك بحفره تحت أساسات الأسوار لينفذ إلى المدينة، وذلك بنية اقتحامها، ومباغتتنا ذات ليلة بشكل مفاجئ^(٢).

ولم يكن ذلك بالأمر الخطير، فعندما اكتشف رجالنا هذا النفق، توجهوا لاشعال النيران بداخله ، وأدرك الأتراك فى الخارج أننا ننوى اشعال النار به، وبالفعل اشتعلت النيران داخل جانبى النفق، وكانت النتيجة أن ربحنا موقعة النفق. وكان هذا مصدر فخر لنا، إذ تجنبنا خطورة ما كان يمكن أن يحدث .

وفى نفس هذا اليوم أيضاً قام الأتراك بدك الأسوار الضعيفة بالقذائف بشكل رهيب^(٣)، وتم اسقاط العديد منها أيضاً ، كذلك سقط أحد أجزاء البرج، وقمنا بسرعة بعملية ترميم ناجحة باستخدام البراميل الخشبية ، والمواد الأخرى اللازمة لذلك.

وهكذا جرت أحداث عديدة فى البحر وعلى البر، وعندا المساء كانت جهودنا قد نفذت تماماً نتيجة للمشاكل التى تعرضنا لها.

١- عن ذلك انظر :

Nicol, Op. cit , p. 403 .

٢- عن ذلك انظر :

Runciman , Op. cit, pp. 118-119 .

٣- انظر :

Tursun bey , Op. cit, p. 53 .

فى يوم الثانى والعشرين من مايو ، وعند ساعة الـ Compline ^(١)، عثرنا على نفق آخر قام الأتراك بحفره تحت أساسات الأسوار عند Calegaria ، ويقع بالقرب من النفق الذى تم اكتشافه فى اليوم السابق، وتم حفره بنفس الطريقة .

قام رجالنا باضرام النيران بداخل النفق، وأحرقوه بشجاعة وفخر، واحترق العديد من الأتراك بداخل النفق، أولئك الذين كانوا بداخله ولم يستطيعوا الخروج بسرعة كافية .

وفى نفس اليوم أيضاً ، تم اكتشاف نفق آخر فى نفس المكان عند Calegaria، حيث لم تكن هناك تحصينات خارجية .

وكان اكتشاف هذا النفق من الصعوبة بمكان ، لولا رحمة الرب التى منحنا إياها، لذلك كان يجب أن تفشل خططهم، وأن يقتل كافة الأتراك الموجودين بالنفق .

ولتوضيح الطريقة التى استخدمها الأتراك لحفر الانفاق ، يمكن القول أنه قد تم حفرها فى باطن الأرض واتخذ الرجال طريقهم عبر الرمال بواسطة دعائم متينة من الخشب الصلب، حتى تمكنوا من الوصول إلى أساسات الأسوار، ثم قاموا بالحفر تحتها ، واستمروا بالحفر تحت الأرض داخل المدينة. وكانت تلك هى الطريقة التى قاموا بحفر الانفاق من خلالها .

وفى الساعة الأولى من ليلة الثانى والعشرين من مايو ظهرت علامة عجيبة ومدهشة فى السماء، كى تخبر قسطنطين ، امبراطور القسطنطينية الجدير بالاحترام والاجلال، أن امبراطوريته المتفطرة ، قد شارفت على نهايتها، وهو ما حدث بالفعل جاءت العلامة على هذا الشكل: ففى الساعة الأولى بعد الغروب، كان القمر مكتملاً (بدرًا) على شكل دائرة كاملة ، لكنه تحول كما لو كان قمرًا عمره ثلاثة أيام، ولم يظهر إلا جزء صغير منه على الرغم من أن الجو كان صافياً، ولا توجد به أية غيوم ، فقد كان الجو نقياً كالبللور .

واستمر القمر على هذا النحو لمدة أربعة ساعات ، وتدرجياً أخذ حجمه فى الزيادة ليكوّن دائرة كاملة، وهكذا ففى الساعة السادسة من الليل، كان القمر قد اتخذ صورته الكاملة.

وعندما شاهدنا نحن المسيحيين ، وكذلك الكفار ، تلك العلامة العجيبة والمدهشة، شعر امبراطور القسطنطينية ونبلاؤه بالانزعاج الشديد، لأن البيزنطيين كانت لديهم نبوءة تنكر أن

١- ساعة Compline هى ساعة الصلاة السابعة والأخيرة فى المساء وقبل النوم .

القسطنطينية لن تسقط حتى يعطى القمر المكتمل (البدر) علامة على ذلك (١).

وكان هذا هو السبب في الخوف الذي اعتري البيزنطيين. لكن الأتراك أقاموا احتفالاً كبيراً في معسكرهم ، ابتهاجاً وفرحاً بهذه العلامة ، لأنهم اعتقدوا أن النصر قد أصبح الآن في متناول أيديهم . وهو ما حدث بالفعل .

عند فجر يوم الثالث والعشرين من مايو. ثم اكتشف نفق عند Calegaria بالقرب من مكان وجود الأنفاق الأخرى التي تم اكتشافها من قبل . ولمعلوماتكم ، فإن Calegaria تقع بالقرب من قصر الامبراطور، وعندما وجدنا هذا النفق ، قمنا بسرعة بإشعال النيران به، فأنهار النفق في الحال (٢) واختنق عدد من الأتراك الذين كانوا بداخله .

١- عن تلك النبوة الخاصة بسقوط القسطنطينية ، وكذلك الروايات الأخرى المتعلقة بهذا الأمر، انظر ما سبق ص ١٢٨ هامش (١) .

والحقيقة أن سكان القسطنطينية من البيزنطيين واللاتين أصيبوا بالرعب، والهلع الشديد، نتيجة احساسهم بقرب نجاح العثمانيين في اقتحام المدينة، وكثرت الرؤى والنبوءات التي تتحدث عن ذلك، ولدينا وصف لأحد المصادر اللاتينية يعبر عن حالة الفزع والهلع التي أصابت الناس وتفكيرهم آنذاك «... اضطربت أذهان وأفكار الناس نتيجة قسوة ووحشية المصير الرهيب الذي بدأت نذره في الظهور تلك الايام ، سواء في السماء أو على الأرض أو في البحر ، فلعدة أيام سابقة - على اقتحام القسطنطينية - المحار الذي كان يتم جمعه من البحر، يقطر بالدماء عند فتحه . وظهرت في السماء العديد من السنة الذهب ، الاضواء الساطعة بالإضافة إلى هزيم الرعد. وخيم الظلام ، وأبرقت السماء بالرعود والصواعق ، وهبت العواصف العاتية على الأرض، وحدثت زلازل هددت بتخريب وتدمير المنازل ، ومات من الواضح أن الدمار والخراب النهائي للعالم قد أصبح على وشك الحدوث ، وانتشرت الاشاعات بأن الأفعى الوحشية الهائلة قد حضرت لتنتشر الخراب في القرى، وتقوم بالقضاء على قطعان الماشية وأسراب الأغنام ، ولهذا السبب تخلص الفلاحون عن محاربتهم ، وأهملوا محاصيلهم التي سبق جمعها من الحقول بعد أن قامت الأفعى الهائلة بمهاجمة الجميع عبر لفحهم بأنفاسها النارية». عن ذلك انظر.

Dolfin, Op. cit, p. 129 .

Runciman Op. cit , pp. 119-120 .

٢- انظر:

حيث يذكر أن المهندس جرانت Grant كان يقف بالمرصاد لكل نفق يقوم العثمانيون بحفره وأن جهوده ساهمت في اكتشاف العديد منها، وكذلك في مهاجمة الأتراك داخل تلك الانفاق ، وإشعال النيران بها. مما أدى إلى مصرع الكثيرين منهم حرقاً وخنقاً .

وقام البيزنطيون بأسر رجلين من الأتراك الذين كانوا بداخل النفق، وقاموا بتعذيبهما، وعرفوا منهما مكان باقى الانفاق التى تم حفرها ثم قاموا بقطع رأسيهما وجرى قذف جثتيهما من فوق الأسوار، باتجاه الجانب التركى. وما أن شاهد الأتراك ذلك حتى تميزوا من الغيظ الغضب، وشعروا بكراهية شديدة تجاه البيزنطيين، وتجاهنا نحن .. الايطاليين.

وفى نفس هذا اليوم أيضاً، وقبل الفجر بساعة ، قدمت سفينة من نوع Bregantino تبدو فى شكلها الخارجى كسفينة تركية ، كانت قد أبحرت نحو الدردنيل، وكانت هى السفينة الوحيدة التى تم ارسالها إلى الأرخبيل لمقابلة اسطولنا ^(١)، وإبلاغه ضرورة الحضور بأقصى سرعة ، لأن القسطنطينية ما زالت تقاوم ببسالة .

وما إن شاهد الأسطول التركى، الذى كان راسياً عند الأعمدة، تلك السفينة ذات الصاريين brig ، هى تقترب مجدفة بقوة ، أدرك أنها تابعة لنا، وليست سفينة تركية .

وهكذا، قام الأسطول بالتحرك من مكانه ، وتوجه نحوها، وعندما شاهد السلسلة وهى تفتح، والسفينة تدخل الميناء بسلام ، قامت سفن الأسطول التركى بالعودة مرة أخرى، والرسو فى مكانها المعتاد .

وفى تلك الأثناء ، كان جميع الرجال الموجودين على متن أسطولنا فى مواقعهم ، ومسلحين بالطريقة المعتادة، خشية مهاجمة الأسطول التركى للسلسلة . وانتظرنا بهذه الطريقة حتى بعد الفجر بساعة ونصف . وعندها وضعنا أسلحتنا جانباً . ولم تحدث أشياء مهمة ذلك اليوم، سوى ما حدث من حالة استنفار عام فى المدينة، ومن حديث الناس فى الميناء حول الخوف من الأسطول التركى ، كما أسلفنا سابقاً .

ثم انهمرت القذائف على أسوار القسطنطينية ، وتهاوت بعض أجزاء السور، وقمنا بترميمها بسرعة ، وهكذا كان هذا اليوم مليئاً بالعمل، والأخطار ، سواء فى البحر، أم فى جانب المدينة المواجه للأعداء.

١- انظر : . Nicol, Op. cit, p. 403

وكانت هذه السفينة قد أبحرت من القسطنطينية فى منتصف ليلة الثالث من مايو، تحت علم السلطان محمد الفاتح ، ويرتدى بحارتها زى البحارة الأتراك من أجل خداع السفن التركية، والوصول إلى الارخبيل لمقابلة الأسطول البنقى المزعوم. عن ذلك انظر ما سبق ص ١٤٢-١٤٤ .

فى ظهيرة يوم الرابع والعشرين من مايو ، تم اكتشاف نفق آخر، مجاور للأنفاق الأخرى عند Calegaria، وقام الأتراك الملاعين بتشبيد نصف برج على دعائم وأعمدة، يبعد عن السور بعشر خطوات ، من أجل القيام برمى النيران إلى الداخل، ومن ثم دخول المدينة . لكن الرب لم يرد لنا أن نقاسى من الشر والأذى فى ذلك الوقت، ولم يشأ أن تسقط المدينة بهذه الطريقة .

عندما عثر البيزنطيون على ذلك النفق الأخير، بدأوا فى اعمال الحفر، وقاموا باحاطته بجدار ملاصق له ، فأصبح المكان محصناً كما كان من قبل، ولهذا فلم يعد هناك مبرر للخوف. وفى هذا اليوم قام الأتراك بهجمات عنيفة على أسوار المدينة، عبر استخدام قذائف المدفع والبنادق ، وأعداد لا تحصى من السهام، ولهذا فقد عانينا بالفعل من يوم سئ للغاية . ولم نعان من أية أخطار فى البحر ، وعلى الرغم من هذا، فقد وقفنا مستعدين ، حاملين أسلحتنا خوفاً من أسطولهم ، إذا ما قام بالهجوم علينا دون سابق انذار .

حدث فى ذلك اليوم احتفال كبير فى المعسكر التركى، استخدمت فيه الموسيقى، وكثر فيه المرح والصخب ، لأن الأتراك أدركوا أنهم قد اقتربوا من القيام بالهجوم الكبير والنهائى .

فى يوم الخامس والعشرين من مايو ، وفى ساعة صلاة الغروب Vespers ، تم اكتشاف نفق آخر فى نفس منطقة Calegaria بالقرب من الأنفاق الأولى. وكان هذا النفق محصناً ، وفى منتهى الخطورة بالفعل، لأنهم قاموا بوضع دعائم وأعمدة خشبية تحت جزء من السور، لكى يقوموا بإشعال النيران من جانبهم، ومن ثم ينهار النفق، وبعد ذلك يتمكن الأتراك من النفاذ إلى داخل المدينة ، والاستيلاء عليها دون صعوبة .

كان هذا هو النفق الأخير الذى قاموا بحفره ، والأخير الذى تم العثور عليه، وكان أكثر خطورة من أية أنفاق أخرى تم اكتشافها .

فى نفس هذا اليوم ، قامت القذائف التركية الثقيلة بتهديم جزء كبير من الأسوار ، وقمنا بترميمها بسرعة وبشكل جيد ، عبر استعمال البراميل الخشبية والرمال ، كذلك أطلقوا باتجاهنا أعداداً لاحصر لها من السهام.

ولم يقم الأسطول التركى بأية تحركات جديدة . كذلك الأمر بالنسبة لأسطولنا ، فيما عدا وقوف رجالنا على متن السفن والشينيات ، حاملين الأسلحة ليلاً ونهاراً .

فى يوم السادس والعشرين من مايو ، وبعد الغروب بساعة ، قام الأتراك بإشعال النيران التى توهجت وأضاعت معسكرهم بأكمله ، وقامت كل خيمة فى معسكرهم بإيقاد نار كبيرة

أمامها . وكان ضوء النيران ساطعاً لدرجة تجعل المرء يعتقد أن ضوء النهار قد بزغ . واستمرت تلك النيران مشتعلة حتى منتصف الليل^(١).

وكان السلطان قد أمر بإيقاد النيران في المعسكر من أجل استثارة حماسة رجاله، لأن الوقت قد أزف لتدمير المدينة ، ومن أجل القيام بالهجوم النهائي .

وكما قام الكفار بإشعال النيران ، بدأوا في الصباح حسب الطريقة التركية^(٢)، وهكذا بدأ كما لو أن السماء نفسها قد انشقت . وكانت المدينة كلها تعيش حالة من الذعر والهلع ، وكان كل شخص يبكي ويصلي للرب، ولريم العذراء ، من أجل تحاشي غضب الكفار الشديد^(٣).

إننى لا أستطيع أن أصف مقدار الأضرار التي أحدثتها المدفع في أسوار بوابة القديس رومانوس^(٤)، خاصة تلك التي أحدثتها المدفع الضخم ، وهكذا ففي ذلك الوقت كانت معاناتنا كبيرة ، وكنا نشعر بالخوف الشديد. وعلى الصعيد البحرى لم يحدث شئ يستحق الذكر، فيما أننا شاهدنا الأسطول التركى وهو يحتشد في موقعه.

١- انظر: Leonard of Chios , Op. cit, p. 33 ; Doukas , Op. cit, pp. 220-221 .

٢- لابد أن العثمانيين كانوا يبتهلون إلى الله أن ينصرهم وأن يفتح القسطنطينية عليهم، ولابد أن أنهم استخدموا صيحات باللغة العربية مثل «الله أكبر» وغيرها ، ويذكر أحد أهم المصادر اللاتينية أنهم كانوا يصيحون «لا إله إلا الله ، محمد رسول الله» ويفسرها بأن الله موجود ، وسوف يستمر إلى الابد، وأن محمد هو خادمه . ويذكر أن من يستمع إلى صيحات الأتراك العالية، سوف ينعقد لسانه، ويصاب بالدهشة والذهول. انظر: Leonard of Chios, Op. cit, pp. 33 , 36 .

Tursun bey , Op. cit , p 55 .

وانظر كذلك :

Doukas, Op. cit, p 220

٣- انظر :

حيث يذكر أن مشهد اشعال العثمانيين للنيران العالية، الكثيفة ، وصيحاتهم العالية، والجلبة والضوضاء المصاحبة لتحركات القوات العثمانية ، كل ذلك قد أثر بشكل كبير على سكان القسطنطينية وحسب تعبيره «اجتاح الرعدة أوصالهم، فلم يتمكنوا من التقاط أنفاسهم بسهولة».

٤- كانت بوابة القديس رومانوس St. Romanus ، أكثر الأماكن تعرضاً لقذائف مدفعية العثمانيين، الأمر الذى جعلها أكثر الأماكن ضعفاً، وكان سورها هو الأضعف بين الأسوار، لسابق نجاح الأتراك في هدم الجزء الأكبر منه ، انظر:

Tedaldi, Op. cit, p. 7

فى يوم السابع والعشرين من مايو، استمر الأتراك الملاعين فى إطلاق القذائف طوال الليل، كما فعلوا فى الليلة الماضية ، فاستمر انطلاق القذائف حتى منتصف الليل، بالإضافة إلى صياحهم البغيض للغاية ، الذى وصل إلى مقربة من ساحل الأناضول Anatolia ، على مسافة اثنتى عشر ميلاً ، وشعرنا، نحن المسيحيون بالذعر، واستمر هذا الشئ الفظيع طوال اليوم ، لكنهم طوال اليوم التالى، لم يقوموا بفعل شئ سوى قذف الأسوار الضعيفة ، وطرح أجزاء منها أرضاً ، وكان نصف الأسوار قد أصابته أضرار بالغه . ولم يحدث شئ فى البحر يستحق الذكر، وهذا هو كل ما حدث فى هذا اليوم وهذه الليلة .

فى يوم الثامن والعشرين، أصدر السلطان التركى تعليمات بتشغيل أصوات الأبواق عبر كافة أرجاء المعسكر. وخشية التعرض لعقوبة الاعدام ، كان على باشواته Pashas وضباطه ، وياقى قاداته ، والرجال من كافة المستويات الاجتماعية الذين حكمهم الأتراك، كان عليهم جميعاً أن يكونوا مستعدين فى مواقعهم طوال اليوم، لأن السلطان قد انتوى أن يقوم فى الغد بالهجوم النهائى على المدينة البائسة .

عندما سرت تلك الأوامر عبر المعسكر، توجه الجميع نحو مواقعهم بأقصى سرعة ممكنة، وطوال بقية ذلك اليوم ، من الفجر حتى آخر الليل. لم يقم الأتراك بأية تحركات فيما عدا احضار سلالم طويلة للغاية تستعمل فى تسلق الأسوار، من أجل استخدامها فى اليوم التالى، حيث سيبلغ الهجوم ذروته ، كان هناك ألفان من تلك السلالم ، ويعد ذلك قاموا بجلب عدد ضخم من الحواجز الخشبية لحماية الرجال الذين سيقومون بارتقاء السلالم حتى الأسوار.

عندما تم الانتهاء من ذلك كله ، قام الأتراك باطلاق أصوات الأبواق عبر معسكرهم وكذا أصوات الصنج النحاسية ، والدقوف ، من أجل استثارة حماسة وشجاعة الجنود، وأخذوا فى الصياح «يا أبناء محمد، لتفرحوا وتبتهجوا بشدة، ففى الغد سوف يسقط العديد من المسيحيين فى قبضتنا ، وسوف نقوم ببيعهم كالعبيد، كل اثنين منهم مقابل دوكات ducat بندقية واحدة ، وسوف نصبح أثرياء للغاية لأننا سنقوم بالاستيلاء على كافة كميات الذهب الموجود بالمدينة. وسوف نصنع من لحى البيزنطيين مقاود لكلابنا ، وسوف تكون زوجاتهم وأبنائهم عبيداً لنا. لذلك كله يجب أن تبتهجوا بشدة يا أبناء محمد ويجب أن تكونوا مستعدين للموت بقلوب لاتخشى الردى، إذا كنتم تحبون محمد !».

وهكذا توجه الأتراك الكفار نحو معسكرهم ، ممتلئين شجاعة وحماسة .

وفيما بعد ، تم النداء فى معسكرهم ، بأن كل تركى ، يجب أن يقف ويتحرك ، وأن يقوم بتنفيذ أوامر ضباطه مهما كانت وإلا فإن الموت هو مصيره . وبمجرد حلول المساء ، توجه الأتراك جميعاً ، منتظمين بشكل جيد ، نحو مواقعهم برفقة أسلحتهم ، وأكوام ضخمة من السهام.

عندما حل المساء . كانوا قد وصلوا جميعاً إلى مواقعهم ، متمتعين بقلوب ملؤها الشجاعة ، ومتلهفين على الاشتراك فى المعركة ، وقاموا جميعاً بالصلاة تجاه محمد لمساعدتهم على النصر^(١).

فى هذا اليوم - الثامن والعشرين من مايو - قام الأتراك بإطلاق القذائف بقوة على الأسوار الضعيفة ، بشكل لم يحدث من قبل فى هذا العالم ، واستخدموا هذا الأسلوب ، لأنه كان يومهم الأخير فى إطلاق القذائف.

وفى هذا اليوم أيضاً ، قمنا نحن المسيحيون برفع ما يعادل حمولة سبع عربات نقل Car-load من الستائر الواقية النقالة Manetlets ، لوضعها عند الأسوار ذات الفتحات العلوية ، التى يطلق منها النيران فى أعلى الأسوار البرية.

عندما تم عمل وتجهيز تلك الأستار النقالة ، تم احضارها إلى الساحة Piazza ، وأصدر البايل Bailo البندقى أوامره للبيزنطيين بضرورة حملها إلى الأسوار فى الحال ، لكنهم رفضوا القيام بذلك إلا بعد أن يتقاضوا ثمن ذلك مقدماً.

وحدث جدال ذلك المساء ، لأننا نحن البنادقة أردنا أن يتم الدفع مباشرة لأولئك الذين سيقومون بحملها ، أما البيزنطيون فاتهم لم يوافقوا على دفع الأموال.

وأخيراً ، وعندما تم نقل الستائر الواقية النقالة إلى الأسوار ، كان الوقت ليلاً ، ولم يستطع الرجال وضعها على الأسوار ذات الفتحات العلوية ، وهكذا لم نستطع استخدامها بسبب جشع وطمع البيزنطيين .

١- هنا يسقط نيقولو باربارو المسيحى الكاثوليكي ، أفكاره المسيحية على الدين الإسلامى ، فهو يعتقد أن العثمانيين المسلمين توجهوا بالصلاة إلى سيدنا محمد لمساعدتهم على النصر ، وهو هنا يتصور أن المسلمين يصلون إلى محمد كما يصلى المسيحيون إلى يسوع ، غير مدرك للفارق الضخم بين الذهنية الغربية المسيحية والذهنية الشرقية الإسلامية «وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» . آل عمران / ١٤٤ . وأن المسلمين يتوجهون بصلواتهم فقط نحو الله سبحانه وتعالى.

وعند الظهيرة، أمر الباييل كافة البنادقة بضرورة التوجه نحو الأسوار على الجانب البرى، من أجل محبة الرب، واکراماً للقسطنطينية، ودفاعاً عن شرف الدين المسيحى.

وأطاع كل بندقى أوامره بقلب مفعم بالاخلاص ، وأصبح الجميع مستعدين للموت فى مواقعهم ، وكان كل شخص يحمل بين جوانحه قلباً مخلصاً قد أطاع أوامر الباييل، وقمنا بتنظيم أنفسنا ، كأفضل ما يكون . وبنفس الطريقة كان الأسطول مستعداً ، وبشكل خاص السفن والشوانى وسلسلة الميناء.

امتطى السلطان التركى جواده برفقة عشرة آلاف فارس، واتجه ناحية أسطوله الراسى عند الأعمدة ، ليقوم بتفقدده ، وجعله فى حالة استعداد للهجوم النهائى فى اليوم التالى. وقام السلطان باتخاذ الترتيبات مع قائده البحرى، حول أسلوب الهجوم الذى ينبغى استخدامه . وعندما تم الانتهاء من تلك الترتيبات ، شعر السلطان ومعه قائده البحرى، وكافة جنوده بالفرح والابتهاج ، وبدأ الجميع فى الشراب والسكر طبقاً لعادتهم^(١).

بعد أن قام السلطان بتفقد الأسطول ، قفل عائداً إلى معسكره ، وهو فى حالة من الابتهاج، وطوال اليوم كان صوت الناقوس Tocsin يذق فى المدينة ، من أجل أن يدفع بكل شخص إلى موقعه ، كذلك قام النساء والأطفال بحمل الأحجار نحو الأسوار، لوضعها فى الشرفات ذات الفتحات أعلى الأسوار ، لكى يمكن قذفها إلى أسفل فوق الأتراك . وكان كل شخص فى المدينة ، يبكى من الخوف الشديد الذى يشعر به الأتراك.

بعد حلول الظلام بساعة ، بدأ الأتراك فى إيقاد نيران هائلة فى معسكرهم ، أكبر من تلك التى قاموا بإيقادها فى الليلتين السابقتين ، وأكثر استعاراً ، وكان صراخهم وصياحهم أعلى من أن نستطيع نحن المسيحيين تحمله ، وبالإضافة إلى صراخهم قاموا بإطلاق القذائف بأعداد كبيرة من المدافع والبنادق ، وقذفوا بأحجار لاحصر لها ، حتى بدأ لنا أن ما يحدث لهو الجحيم بعينه .

١- لم يرد لدينا من المصادر ما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان يشرب الخمر، ويبدو - مرة

أخرى- أن باربارو يسقط أفكاره الغربية على الأتراك العثمانيين المسلمين .

استمرت هذه الاحتفالات حتى منتصف الليل، عندما خبت النيران، وطوال ذلك النهار والليل، أخذ الكفار الوثنيون في الصلاة إلى محمد^(١). من أجل أن يجلب لهم النصر، ولأجل غزو مدينة القسطنطينية ، أما نحن المسيحيين ، فظللنا طوال النهار والليل نصلى للرب، ولوالدة الرب، ولكافة القديسين في السماوات . كنا نصلى ونبتهل بالدموع إليهم من أجل أن يقوموا بمنحنا النصر، وأن نفرّ من وجه أولئك الكفرة الملاحين الذين يملكهم الغضب الشديد.

وبينما أخذ كل طرف يصلى من أجل تحقيق النصر ، هم توجهوا نحو الهيم ، ونحن توجهنا ناحية الرب ومريم العذراء والقديسين، كان ربنا في السماوات قد قرر - مع والدته- أى من الطرفين يجب أن ينتصر في هذه المعركة، التى تميزت بعنفها الشديد، تلك المعركة التى ستضع أوزارها فى اليوم التالى.

فى يوم التاسع والعشرين من مايو ، آخر أيام الحصار ، كان الرب قد اتخذ قراره ، مع وافر الأسى والأسف للبيزنطيين ، لقد أراد الرب للمدينة أن تسقط هذا اليوم فى قبضة محمد بك التركى ابن مراد ، بطريقة أو بأخرى، وبالأسلوب الذى سيتم ايضاحه لاحقاً .

كذلك فإن الرب الخالد أراد أن يحدث هذا ، كى تتحقق كافة النبوءات القديمة ، وبشكل خاص النبوءة الأولى التى قال بها القديس قسطنطين ، عندما كان على صهوة جواده عند العمود الكائن بالقرب من كنيسة القديسه صوفيا فى هذا المدينة ، حيث تنبأ وأشار بيده قائلاً «من هذه الناحية ، سوف يقبل الشخص الذى سيقضى علىّ» وكان يشير باتجاه الأناضول Anatolia التى تعنى الآن تركيا Turkey^(٢).

لقد اتخذ الرب قراره هذا لكى تتحقق كافة النبوءات من ذلك نبوءة أخرى تذكر أنه عندما يحكم المدينة امبراطور يدعى قسطنطين ابن هيلينا Helena، سوف تسقط المدينة خلال فترة حكمه. بالإضافة إلى ذلك كانت هناك نبوءة ثالثة تذكر أنه عندما يحدث القمر علامة فى السماء، فإن الأتراك- وخلال عدة أيام- سوف يتمكنون من المدينة .

١- مرة أخرى يبرز لدى المؤلف نيقولاو باربارو خلطاً وتشويشاً كبيراً عن العقيدة الإسلامية . انظر ما سبق ، ص ١٦٥ ، هامش (١).

٢- عن تلك النبوءة والنبوءات الأخرى المتعلقة بسقوط القسطنطينية . انظر ما سبق ، ص ١٢٨ ، هامش (١) ، ١٢٩ ، ١٥٩ ، ١٦٠ ، هامش (١) .

وحدثت جميع تلك النبوءات الثلاث ، فقد نفذ الأتراك إلى بلاد اليونان Greece وكان هناك امبراطور يدعى قسطنطين ابن هيلينا ، وكذلك أحدث القمر علامة في السماء. ولهذا كله ، اتخذ الرب قراره ضد المسيحيين ، وبشكل خاص ضد امبراطورية القسطنطينية، كما سوف ترون بعد قليل.

فى يوم التاسع والعشرين من شهر مايو عام ١٤٥٣م . وقبل الفجر بثلاث ساعات^(١)، حضر محمد بك ابن مراد بنفسه إلى أسوار القسطنطينية لبدء الهجوم النهائى الذى استولى بمقتضاه على المدينة. وقام السلطان بتقسيم قواته إلى ثلاث فرق ، تكون كل منها من خمسين ألف رجل^(٢)، تألفت الفرقة الأولى من المسيحيين الذين احتفظ بهم السلطان فى معسكره ، والفرقة الثانية كانت من الرجال الذين جاؤا من مكانة اجتماعية منخفضة ، كالفلاحين وغيرهم بينما تألفت الفرقة الثالث من الانكشارية Janissaries أصحاب العمامات البيضاء^(٣).

كان هؤلاء هم كل جنود السلطان الذين يدفع لهم المال بشكل يومى، وكان الجميع مسلحين بشكل جيد ، ويتميزون بالشجاعة فى القتال. وخلف الانكشارية كان يوجد باقى الجنود، وكان السلطان التركى موجوداً خلف قواته.

١- انظر ك Nicol , Op. cit, p. 403 الذى يتفق مع باربارو فى توقيت بدء الهجوم التركى ، بينما يذكر المؤرخ البيزنطى المعاصر كريتوفوليس أن الهجوم بدأ فى الساعة الواحدة والنصف صباحاً . انظر: Krit-ovoulos, Op. cit , pp. 66-67 واعتمد على ذلك أيضاً البروفسير رنسمان انظر : "The Fall of Constantinople" ولانرى تناقضاً فى ذلك إذا ما كان فجر التاسع والعشرين من مايو ١٤٥٣م قد بزغ فى الساعة الرابعة والنصف صباحاً .

٢- ذكر المؤلف نيقولو باربارو من قبل فى يومياته عن يوم الخامس من أبريل ١٤٥٣م، أن محمد الفاتح حضر أمام أسوار القسطنطينية وتحت لوائه مائة وستين ألف مقاتل، انظر ما سبق، ص ١١٣ ، وانظر مناقشة أعداد الجيش التركى المحاصر فى نفس الصفحة ، هامش (١) .

وربما كان العشرة آلاف جندي الباقين ملازمين للمعسكر التركى ويقومون بأعمال الحراسة وطهى الطعام، والعناية بالخيول فضلاً عن الدعم اللوجستى للقوات المهاجمة.

٣- مثل جنود الانكشارية العمود الفقري للجيش التركى ، والعامل المؤثر فى فتح القسطنطينية ، للمزيد عنهم وعن دورهم العسكرى ، انظر ما سبق ، ص ١٢٢ بالإضافة إلى هامش (١) ، ص ١١٤ .

كانت مهمة المجموعة الأولى التي تألفت من المسيحيين هي حمل السلالم ونصبها على الأسوار، كما حاولوا صعود السلالم حتى أعلى الأسوار. وفي الحال قمنا بطرحهم أرضاً بواسطة رجالنا الذين وضعوا نهاية لهم، فقتلوا جميعاً في الحال. وقمنا بقذفهم بأحجار ضخمة من الفتحات العلوية بالأسوار، وربما ظل عدد منهم على قيد الحياة. وفي الحقيقة لقد تم قتل كل شخص نجح في الاقتراب من الأسوار.

وعندما شاهد أولئك الذين كانوا يحاولون صعود الأسوار مقتل العديد منهم، حاولوا التراجع والتقهقر باتجاه معسكرهم ، حتى لا يقعوا صرعى للأحجار .

وعندما شاهدتهم باقى الأتراك وهم يهيمون بالهرب ، قاموا في الحال- وبواسطة سيوفهم بتمزيق بعضهم إرباً إرباً ، وقاموا بدفعهم ثانيةً باتجاه الأسوار. وهكذا فقد كان لديهم فقط حق اختيار الموت، بواسطة أحد الطرفين !

عندما تم تشتيت شمل الفرقة الأولى، بدأت الفرقة الثانية في القتال بشجاعة . وكان قد تم وضع الفرقة الأولى في المقدمة لسبيين ، الأول لأن الأتراك فضلوا أن يُقتل المسيحيون على أن يقتل الأتراك . والثاني من أجل ارهاقنا واصابة قواتنا خارج المدينة بالانهاك . وهكذا فعندما سقط أفراد الفرقة الأولى ما بين قتيل وجريح ، تقدم رجال الفرقة الثانية كالأسود التي تحررت من سلاسلها ، لمهاجمة الأسوار في منطقة القديس رومانوس .

وعندما شاهدنا ذلك الحدث المرعب (الهجوم العنيف للفرقة الثانية) ، دق ناقوس الخطر في الحال عبر كافة أرجاء المدينة ، وفي كل موقع دفاعي أعلى الأسوار. وأخذ كل شخص في الجرى وطلب المساعدة. وأظهر لنا الرب الخالد رحمته ضد الأتراك^(١). وهكذا هرب جميع الرجال من أجل صد هجوم الكفرة الوثنيين ، الذين بدأوا في التراجع خارج الحصون الأمامية.

تألفت الفرقة الثانية من رجال يتصفون بالشجاعة ، فقد هاجموا الأسوار ، وقاموا بارهاق وانهاك أولئك المدافعين عن المدينة ، كما أنهم قاموا بمحاولة هائلة لرفع السلالم وتثبيتها على الأسوار، لكن الرجال المدافعين عنها قاوموهم بشجاعة ، وقاموا - مرة ثانية- بطرحهم أرضاً، حيث قُتل العديد من الأتراك.

١- الترجمة الحرفية للجملة هي «وأظهر لنا الرب الخالد رحمته ضد تلك الكلاب التركية».

ابان تقدم الفرقة الثانية إلى الامام ، ومحاولتها اقتحام المدينة دون جدوى، قامت الفرقة الثالثة بالتحرك والتقدم خلفها ، وكانت تتألف من الجنود الانكشارية الذين يتم دفع الأموال لهم، مع ضباطهم وقادتهم الكبار، وكان جميعهم يتصفون بالشجاعة والبسالة (١)، وكان السلطان التركي في موقعه خلف الجميع (٢) .

قامت الفرقة الثالثة بالهجوم على أسوار المدينة البائسة ، لم يكن جنودها يحاربون كالأتراك، بل مثل الأسود الضارية ، وكانت صيحاتهم ، وصوت الصنج النحاسية ، تبدو كشيء ليس له مثيل في هذا العالم. وتم سماع صراخهم وصيحاتهم على البعد، بالقرب من الأناضول Anatolia ، على مسافة اثنتى عشر ميلاً من معسكرهم (٣).

وتألفت الفرقة الثالثة جميعها من محاربين محترفين، وجدوا أن الرجال المدافعين على الأسوار قد أصابهم التعب والانهك الشديد، بعد اشتباكهم مع رجال الفرقتين الأولى والثانية، بينما كان الكفار الوثنيون ممثلين صحة وعافية ، ومتلهفين على القتال. وعبر صيحاتهم وصراخهم المذوى الذى انطلق فى ميدان المعركة . تسببوا فى نشر الذعر فى كافة أرجاء المدينة ، وسلبوا منّا شجاعتنا بواسطة صياحهم وصراخهم والجلبة العالية التى أحدثوها .

شعر السكان البؤساء بالمدينة أنهم قد سقطوا بالفعل، وقرروا إعادة دق ناقوس الخطر فى كافة أرجاء المدينة ، كما قاموا بدق النواقيس فى كل الأماكن الموجودة أعلى الأسوار، وأخذوا فى الصياح والصراخ بكل ما أمكنهم من قوة «الرحمة ! الرحمة! إبعث لنا- أيها الرب- مساعدة من السماء لامبرطورية قسطنطين . لأن الشعب الوثنى الكافر (الأتراك) لا يجب أن يقوم بحكم الامبراطورية».

قام كافة سكان المدينة ، رجالاً ونساءً ، بالجثو على ركبهم، ودخل الجميع فى صلاة جادة مكرسة للرب القادر على كل شيء ، ووالدته المقدسة مريم العذراء، وجميع القديسين الرجال والنساء، أصحاب المراتب السماوية ، من أجل منحنا النصر على هذا الجنس الوثنى ، أولئك الأتراك الملاحين، أعداء الدين المسيحى.

١- على الرغم من كراهية باربارو الشديدة للأتراك العثمانيين، فإنه يحترم شجاعة وبسالة الانكشارية . حيث أشاد بهم فى أكثر من موضع من كتابه . انظر ما سبق ص ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٦٨ .

٢- يتميز أسلوب نيقولو باربارو بالتكرار . فقد ذكر نفس هذا الكلام سابقاً ، فى ص ١٦٨ . عن أسلوب التكرار لدى باربارو . انظر مقدمة الترجمة الإنجليزية ص ٧: مقدمة الترجمة العربية، ص ٧٧ .

٣- هذا مثال صارخ للتكرار فى أسلوب باربارو . انظر ص ١٢٣ ، ١٤٦ ، ١٧٢ .

وبينما كانت تجرى تلك التوسلات والتضرعات ، كان الأتراك يهاجمون الأسوار البرية بضراوة عند بوابة القديس رومانوس، بالقرب من مقر قيادة الامبراطور الأجل، وجميع نبلائه وفرسانه الكبار، ورجاله الأكثر شجاعة ، الذين بقوا إلى جواره يحاربون ببسالة .

كان الأتراك يهاجمون ، مثلما ذكرت سابقاً ، مثل رجال عقبوا النية والعزم على دخول المدينة، عند الأسوار البرية بالقرب من بوابة رومانوس ، وقاموا باطلاق وابل من قذائف مدافعهم بشكل مستمر، واستخدموا أعداداً لاتحصى من البنادق والسهام .

وأخذ الكفرة الوثنيون فى الصباح ، حتى انشق الجو نتيجة لأصواتهم العالية، واستمر مدفعهم الضخم فى اطلاق القذائف ، وكانت الواحدة منها تزن ألف ومائتى رطل، واستمروا كذلك فى اطلاق السهام، بطول الأسوار على الجانب المواجه لمعسكرهم عبر مسافة ستة أميال. وهكذا كان داخل الحصون الأمامية مالا يقل عن حمولة ثمانين جماً من المهاجمين الأتراك، وكان ما يقارب حمولة عشرين جمل من هؤلاء فى الخندق الموجود أسفل الأسوار. واستمرت تلك المعركة العنيفة حتى الفجر .

وقام رجالنا البنادقة بابداء دفاع مذهل فى البستين bastion^(١) عندما قام الأتراك بتركيز هجومهم عليه . لكن دفاعهم لم يكن ليغير من الأمر شيئاً ، لأن الرب الخالد قد اتخذ قراره بأن تسقط المدينة فى أيدي الأتراك .

ونظراً لأن الرب كان قد حدد ذلك بشكل حاسم، فلم يكن هناك شئ يمكن عمله أو حدوثه ، سوى أننا جميعاً نحن المسيحيين ، الذين وجدنا أنفسنا آنذاك فى المدينة البائسة يجب أن نضع أنفسنا رهن ارادة ربنا المسيح الرحيم ، ووالدته ، القديسة مريم العذراء، اللذان يملكان إسباغ الرحمة على أرواح أولئك الذين قتلوا هذا اليوم فى المعركة.

وقبل الفجر بساعة ، أمر السلطان باطلاق القذائف من مدفعه الضخم، فانطلقت القذائف باتجاه الترميمات التى قمنا بها فى الأسوار من قبل، فقامت بهدمها وطرحها أرضاً .

تسبب الدخان الذى أحدثه المدفع فى حجب الرؤية تماماً، وتقدم الأتراك تحت ستار الدخان، وقام ثلاثمائة رجل منهم باقتحام الحصون الأمامية .

١- البستين bastion هو الجزء البارز من الحصن أو القلعة وهو مخمس الأضلاع غالباً .

ودافع البيزنطيون والبنادقة ببسالة ونجحوا في اخراجهم من الحصون الأمامية، وتم قتل العديد من الأتراك ، من بينهم معظم الذين تمكنوا من اقتحام الحصون.

هكذا قاتل البيزنطيون ببسالة في هذه المعركة، واعتقدوا أنهم قد أحرزوا النصر ضد الوثنيين، وشعرنا نحن المسيحيين بالراحة لذلك.

بعد أن تم اخراج الأتراك من الحصون الأمامية، قاموا مرة ثانية باطلاق قذائف مدفعهم الضخم، وتقدم الكفار، ككلاب الصيد hounds خلف بخان المدفع ، وقاموا بهجمات عنيفة في كل اتجاه مثل الحيوانات المتوحشة ، وهكذا ففي خلال ربع الساعة ، كان هناك أكثر من ثلاثة آلاف تركي بداخل الحصون الأمامية ، مع صراخهم الهائل الذي بدأ كأنه الجحيم بعينه لدرجة أنه سمع بالقرب من الأناضول .

عندما نجح الأتراك في اقتحام الحصون الأمامية، قاموا في الحال بالاستيلاء على الصف الأول منها، وقبل أن يحكموا سيطرتهم عليه تماماً، تم قتل عدد ضخم منهم بواسطة البيزنطيين الذين كانوا في مكان مرتفع عنهم، فوق الأسوار ، حيث قاموا بقذفهم بالأحجار القاتلة .

بعد الاستيلاء على الصف الأول من الحصون الأمامية، أصبح وضع الأتراك قوياً بفضل قوات العزبان Axapi^(١)، وبعد ذلك حضر إلى داخل الحصون الأمامية حوالي سبعين ألف تركي بكامل أسلحتهم، وبدأ الوضع كأنه الجحيم بعينه^(٢)، وخلال وقت قصير ، كانت الحصون الأمامية التي تمتد لمسافة ستة أميال ، قد غصت بالأتراك.

١- axapi هم قوات العزبان أو العزب Azabs ، عن دور تلك الفرقة في الجيش العثماني ، وفي اقتحام القسطنطينية . انظر ما سبق : ص ١٢٠ ، ١٢١ هامش (٢) .

٢- عن اقتحام أسوار القسطنطينية انظر المؤرخ العثماني المعاصر طورسون بك حيث يذكر : «... تقدمت المدافع ، ولم يبق الكفار بعد من صدمتها ، ودارت المعركة في كل اتجاه ، وتقدم الجنود كالأسود صائحين الله أكبر، وبدأ السلب والنهب. وأخذت السهام تتطاير من البروج، ... كما بدت في الساحة قوارير النفط الملتهبة ، ورعد المدافع ، «كأنه ظله» خيمت فوق القلعة ، يصدق عليه قوله تعالى: «وإذ نتقنا الجبل فوقهم كأنه ظلة» الأعراف ، ١٧١ ، والحاصل أن نيران المدافع والبنادق وكذا السهام، نزلت عليهم كالطرر ، ونوازل القضاء » انظر: Tarih-i Ebül-Feth, p. 55.

وكما ذكرت سابقاً ، فإن أولئك الذين كانوا فوق الأسوار، قاموا بقتل أعداد ضخمة من الأتراك عبر استخدام الأحجار ، التي استمروا في قذفها من أعلى إلى أسفل دون توقف ، وهكذا تم قتل العديد منهم ، لدرجة أن أربعين عربة Carts لم تستطع نقل جثث القتلى الأتراك الذين سقطوا قبيل اقتحام المدينة .

وشعرنا ، نحن المسيحيون ، فى ذلك الوقت بالرعب والفرع الشديدين . وأمر الامبراطور بدق الناقوس عبر كافة أرجاء المدينة ، وفى المواقع أعلى الأسوار، وأخذ الجميع، فى الصباح «الرحمة.. أيها الرب الخالد» وكان صراخ الراهبات والنسوة الشابات هو الأعلى، وساد النواح والعيول لدرجة أن اليهودى الذى تميز بقلبه الأكثر قسوة ، كان سوف يشعر بالشفقة تجاهنا^(١).

كان جوان جستنان^(٢)، ذلك الجنوى الذى قدم من بلده، قد قرر أن يترك موقعه^(٣)، وأن يهرب إلى سفينته التى كانت راسية عند السلسلة .

١- تعبّر هذه الجملة عن موقف البنادقة تجاه اليهود، ويبدو أن اليهود فى الأيام الأخيرة للامبراطورية البيزنطية قد نافسوا التجار الايطاليين ، فى الامتيازات التجارية ، يدل على ذلك امتلاكهم للعديد من الثروات والمجوهرات وهو الأمر الذى أوغر نفوس البنادقة تجاههم . ويبدو أن العثمانيين كانوا يكرهون اليهود أيضاً ، ويعرفون أماكن اقامتهم بالقسطنطينية، حيث قاموا باقتحام الحى اليهودى بالقسطنطينية ... «حتى تكون لديهم فرصة أفضل للحصول على الغنائم ، «حيث تواجدت ثروات كبيرة فى منازل اليهود، وخاصة المجوهرات». انظر ما يلى، ص ١٧٥ . وانظر أيضاً ما كتبه المؤرخ البيزنطى المعاصر بوكاس عن احتقار الأتراك واليهود للبيزنطيين. انظر:

“Decline and Fall of Byzantium “, p. 218 .

وعن اليهود داخل الامبراطورية البيزنطية انظر:

Sharf, A, Byzantium Jewry from Justinian to The Fourth Crusade, London, 1971 , Starr, J. Jews in The Byzantine Empire (641-1204) Athens, 1939 ; Charanis , p” The jews in The Byzantine Empire under the First Palaeologus” in , Sp. , 22 , 1947 , pp. 75-77 . Bowman , S. B, The Jews of Byzantium 1204-1453 . Alabama , 1985 .

٢- هوجيوفانى جستنيانى، القائد الجنوى الشهير، انظر ما سبق، ص ١٠٢، ١٠٤ .

٣- ملاحظة هامشية: لأنه أصيب بسهم ، (الترجمة الانجليزية) والحقيقة أن المصادر التاريخية اختلفت ما بين اصابتة بسهم خلف نراعه ، أو بزخات من الرصاص .

وكان الإمبراطور قد عين جستنان قائداً على قواته ، وبينما الأخير فى طريقه للهرب، توجه عبر المدينة صائحاً «لقد اقتحم الأتراك المدينة بالفعل»^(١). ولم يكن ذلك دقيقاً تماماً ، فقد كان يمتلك مقدرة كبرى على الكذب، لأن الأتراك لم يكونوا قد نجحوا بعد فى اقتحام المدينة.

وعندما سمع الناس كلمات قائدهم العسكرى حول اقتحام الأتراك للقسطنطينية أخذوا فى الهرب، وترك الجميع مواقعهم فى الحال ، واندفعوا باتجاه الميناء على أمل الهرب على متن السفن والشوانى.

وخلال لحظة الفوضى والارتباك هذه، التى حدثت لدى شروق الشمس، كان ربنا صاحب القدرة المطلقة قد وصل إلى قراره الأكثر قسوة وألماً، وقرر أن يقوم بتحقيق كافة النبوءات، كما ذكرت سابقاً .

دخل الأتراك القسطنطينية ، عند شروق الشمس، من منطقة تقع بالقرب من بوابة القديس رومانوس، حيث كانت الأسوار التى جرى تدميرها تماماً ، وتسويتها بالأرض بواسطة مدفعهم الضخم ، وقبل دخول الأتراك جرت معركة عنيفة مع المسيحيين داخل المدينة الذين قاموا بالتصدي لهم، وقُتل العديد منهم ، لدرجة أن عشرين عربة، امتلأت بجثث الأتراك المهاجمين.

وبعد الموجة الأولى للهجوم التركى، قاموا بالموجة الثانية، فاندفعوا نحو المدينة، وقاموا بقتل جميع من صادفهم من الرجال أو النساء ، سواء الطاعنين فى السن أو من هم فى شرح الشباب، ويصرف النظر عن حالتهم أو وضعهم الاجتماعى .

استمرت عملية سفك الدماء من شروق الشمس حتى الظهر ، فكان الأتراك- فى موجة غضبهم العارم- يقومون بقتل كل من يقف فى طريقهم، وقام رجالنا من البنادقة التجار بالهرب، والاختباء فى أماكن سرية ، وعندما وضعت تلك المذبحة المجنونة أوزارها ، تمكّن الأتراك من العثور عليهم وأسروهم ، حيث جرى بيعهم كالعبيد.

١- لم يقل جستنيانى تلك العبارة ، فقد أشارت كافة المصادر بشجاعته ، ويرى الباحث هنا أن نيقولو باربارو البندقى ، يريد أن يقوم بتشويه صورة جستنيانى الجنوى الذى لم ينسحب من المعركة إلا بعد إصابته بالحية، وصاح بالإمبراطور قائلاً «اثبت مكانك مشجاعة ، فسوف أذهب لتلقى العلاج بسفينتى وأعود بسرعة» ويمكن فهم ذلك فى إطار الصراع البندقى/ الجنوى، واتهام باربارو البندقى للجنوية بمساعدة محمد الفاتح على فتح القسطنطينية ، لدرجة أنه كثيراً ما يصفهم «بالكفار .. أعداء الدين المسيحى».

كان الأتراك متلهفين إلى الوصول إلى الميدان الكبير بالمدينة، على مسافة خمسة أميال من النقطة التي دخلوا منها عند بوابة القديس رومانوس . وعندما وصلوا إليه، قام بعضهم في الحال بتسلق البرج الذي يرفرف عليه علما القديس مارك St. Mark ، والإمبراطور الأجل . وقاموا بتمزيقهما وطرحهما أرضاً . وبعد ذلك قاموا برفع علم السلطان على نفس البرج .

وعندما قام الأتراك بإنزال هذين العلمين، ورفع العلم التركي ^(١)، شعرنا ، نحن المسيحيين، الموجودين بالقسطنطينية بالحزن والأسى، ويأن المدينة قد سقطت كلها في يد الأتراك . سوف أقوم الآن بسرد الأحداث التي جرت في البحر، لأننى قمت - فيما مضى - بسرد الأحداث التي جرت على البر.

قبيل الفجر بساعة ، اتخذ الأسطول التركى الذى كان راسياً عند الأعمدة طريق صوب سلسلة الميناء ، فى انتظار المعركة المرتقبة فى هذا المكان، لكن قائدهم البحرى أدرك أن ميناءنا تمت حمايته بشكل جيد بواسطة السفن والشوانى، وخاصة المنطقة التى توجد بها السلسلة ، التى خضعت لحماية عشر سفن كبيرة ، تزن حمولة الواحدة منها ثمانمائة tonne ولأن القائد البحرى التركى كان يخشى قوة أسطولنا ، فقد قرر الرحيل، وأن يحارب معركته خلف المدينة، على ضفة الدردنيل، وأن يترك الميناء دون قتال.

وهكذا توجهت السفن التركية باتجاه الياصلة المطلة على الدردنيل ، ونزل بعض الأتراك بالقرب من Giudecca ^(٢) حتى تكون لديهم فرصة أفضل للحصول على الغنائم ، حيث تواجدت ثروات كبيرة فى منازل اليهود، وخاصة المجوهرات .

وهاجمت السبعين سفينة، التى تم سحبها وجرها عبر وادى بيرا بقيادة زاجان باشا، القسطنطينية عند المكان المسمى بالفنار Fanari . ونجح المسيحيون فى الدفاع عن تلك المنطقة بشجاعة ، وقاموا بردها على أعقابها .

عندما شاهد الرجال على متن السفن هزيمة المسيحيين (البيزنطيين) ، وفقدان القسطنطينية ، ورأوا أيضاً علم محمد بك التركى يرتفع مرفرفاً فوق البرج الرئيسى للمدينة ، وأن علمى القديس مارك والإمبراطور قد تمزقا ، وتمت الإطاحة بهما ، عندما شاهد الرجال ذلك نزلوا جميعاً من السفن . وفى نفس الوقت ، فإن جميع أولئك الذين كانوا على متن

١- الترجمة الحرفية لكلمات المؤلف . . . ورفع علم الكلب التركى .

٢- يبدو للباحث أن منطقة Giudecca كانت تمثل الحى اليهودى فى القسطنطينية ١٤٥٣م.

الأسطول التركي في الدردنيل ، تركوا سفنهم عند الساحل ، وقاموا جميعاً بالجرى والهرولة وهم في حالة من الهياج الشديد^(١)، وانتشروا في المدينة من أجل البحث عن الذهب والمجوهرات ، والأموال، ومن أجل أخذ التجار كأسرى . وقصصوا إلى الأديرة ، وتم اقتياد كافة الراهبات إلى الأسطول، حيث قام الأتراك باغتصابهن واذاهن جسدًا .

وبعد ذلك تم بيع الراهبات في مزاد علني للعبيد عبر الأراضي التركية. وتم أيضاً اغتصاب الفتيات البيزنطيات، ثم بيعهن بعد ذلك بأى مقابل . وعلى الرغم من هذا فقد فضل بعضهن القاء أنفسهن من فوق الأسوار، والموت غرقاً ، بدلاً من الوقوع في أيدي الأتراك. وفعل الأمر نفسه عدد من النسوة المتزوجات .

قام الأتراك بحمل الأسرى إلى سفنهم^(٢)، بالإضافة إلى كميات لاحصر لها من الغنائم والأسلاب ، وكان تصرفهم على النحو التالي:

١- الترجمة الحرفية للجملة «... وهم في حالة من الهياج كالكلاب» .

٢- عن أسر العثمانيين لآلاف البيزنطيين من سكان القسطنطينية انظر المصادر المعاصرة التالية:

Lomellino , Op. cit, p. 132 , Reccherio, Op. cit, p. 123 .

الذى يذكر «أن الأتراك انتشروا في كل مكان وأخذوا في ذبح كل من يقا لهم ، ووجدوا متفلساً لطبيعتهم الوحشية واللا انسانية عبر ارتكاب كافة الأعمال التى تتصف بالقسوة والشق الجنى».

ويمكن تفهم ما ذكره ريشيريو في ضوء المرارة التى شعر بها كل مسيحى لسقوط القسطنطينية .

وأنظر أيضاً : Leonard of Chios , Op. cit, pp. 38,39 .

الذى يذكر أن العثمانيين أسروا ستين ألفاً من البيزنطيين واللاتين داخل القسطنطينية وأنهم قاموا بطرح كافة الصلبان التى وجدوها على أسطح وجدران الكنائس أرضاً وقاموا بوطئها بالأقدام ، فضلاً عن اغتصاب النساء ، وافتضاء بكارات العذارى و... ويبدو لنا أن هناك ثمة مبالغه من ليوناردو فى أعداد الأسرى المسيحيين الذين سقطوا فى أيدي الأتراك، علاوة على مبالغته الثانية حول التصرفات الجنسية للعثمانيين . على الرغم من اتفاق بعض المصادر الأخرى البيزنطية واللاتينية فى تلك النقطة . وأنظر أيضاً المؤرخين البيزنطيين المعاصرين:

Chalcocandylas , Op. cit , p. 52 ; Kritovoulus , Op. cit , pp. 71-74 ; Doukas ,, Op. cit , pp. 229 , 232 - 233 , 235, 239 .

وفى الصفحة الأخيرة يذكر بوكاس بقلم أدبى رفيع المستوى ما حدث للأسرى البيزنطيين . «... كيف للسان أن يصف كارثة سقوط القسطنطينية ووقوعها فى الأسر، وما عانتها من رحيل العديد من السكان عنها، الذين لم يرحلوا هذه المرة من أورشليم إلى بابل وبلاد آشور ، لكنهم رحلوا من القسطنطينية إلى الشام، ومصر، وأرمينيا ، وبلاد فارس، والجزيرة العربية، وكذلك إلى أفريقيا . وتفرقوا عبر إيطاليا، وآسيا الصغرى ، =

إذا ما توجه أحدهم نحو أحد المنازل ، وقام بسرعة برفع علم فوقه ، أو أية علامة أو رمز تدل عليه ، يقوم الأتراك الباقون بترك هذا المنزل. ويتوجهون للبحث عن منزل آخر لا يرتفع فوقه علم أو علامة^(١). وهكذا قاموا بوضع أعلامهم في كل مكان بالمدينة ، حتى الأديرة والكنائس.

= وباقي البلاد الأخرى . كيف حدث ذلك ؟ كيف تم أخذ الزوج أسيراً إلى اقليم بافلاجونيا ، بينما سيقت الزوجة إلى مصر، وتناثر أولادهم في أماكن أخرى، وقاموا بتبديل لسانهم من لغة إلى أخرى، وبدلوا أحوالهم من التقوى والورع إلى مصاف الأشرار ، وقاموا بتغيير عقيدتهم من اتباع الكتاب المقدس إلى اتباع كتابات خرقاء».

وعن أسر العثمانيين للبيزنطيين في القسطنطينية انظر المصادر العثمانية المعاصرة :

Asik Pasa Oglu , Op. cit , p. 138 ; Tursun Bey , Op. cit, pp. 59-63 .

حيث يذكر «كان العثمانيون يسوقون الفتيان والغلمان أمامهم قطعاً كما تسوق النمر والأسود الغزلان ...» وأيضاً «قام أهل الايمان (الأتراك) بجمع الأطفال والغلمان ، وكذلك البنات اللاتي اتصفن بالحسن واستقامة القد، وتورد الخد، وتزجج الحاجبين ، ودقة الأنف، وليلية الشعر، وبدرية الوجه ، وبلورية السرر ..» .

١- جرى الأمر عند اقتحام المدن في العصور الوسطى أن يسارع الغزاة إلى الاستيلاء ، على منازل المدينة التي تم غزوها، من أجل الحصول على ما بها من ثروات ومجوهرات وسلع وبضائع ، وهو الأمر الذي فعله الصليبيون لدى غزوهم لمدينة القدس ١٠٩٩م. إذ استولى الغزاة على كافة منازل السكان المسلمين فكان كل من يسبق الآخرين في الاستيلاء على أحد المنازل ، يقوم بتعليق سلاحه أو مجته عليه ، حتى لا يجوز للآخرين التوقف عنده، أو منازعته ملكيته . انظر. وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ترجمة حسن حبشي ، ج ٢ ، ١٩٩٢م، ص ١٢٨ : فوشيه الشارترى ، الصليبيون في الشرق العربي، ترجمة قاسم عنده قاسم، الكويت، ١٩٩٢م ص ١٥٤-١٥٥ .

وهو الأمر الذي تكرر لدى غزو الحملة الصليبية الرابعة للقسطنطينية ١٢٠٤م ، إذ اتفق كبار الفرسان والأثرياء الصليبيين على أن يتقاسموا أفضل منازل القسطنطينية وأكثرها ثراء فيما بينهم من دون أن يخبروا باقي أفراد الحملة بذلك ، وبالفعل بدأوا في الاستيلاء على أفضل بيوت القسطنطينية ، دون أن يعلم الفرسان والفقراء الصليبيين بذلك انظر: روبرت كلاري، فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين، ص ١٢١-١٢٢ .

ومن الجدير بالذكر أن العثمانيين الذين اقتحموا القسطنطينية ١٤٥٣م ، وقاموا برفع أعلامهم على منازل المدينة، قاموا بالاستيلاء على ما بداخلها من سكان وثروات ، ولكنهم لم يستولوا على منازل القسطنطينية ذاتها، لأنها كانت تقع في نصيب السلطان محمد الفاتح. الذي منحهم كافة ما بداخل المدينة عدا أسوارها ومنازلها ، فهي ملك له بعد الفتح . كما أنه يذكر أن محمد الفاتح شعر بالمرارة والأسف والندم على ذلك الاتفاق، بعد أن رأى كمية الثروات التي تم الاستيلاء عليها من القسطنطينية ، وكذا العدد الهائل من الأسرى

البيزنطيين . انظر : . Doukas, Op. cit , p. 231 .

وبقدر ما يمكنني أن أخمن ، أنه كان هناك مائتا ألف من تلك الأعلام ترفرف فوق منازل القسطنطينية، فبعض المنازل كان عليها حوال عشرة أعلام ، وعاش الأتراك حالة من الاثارة والهياج بفضل النصر الذي تمكنوا من احرازه .

وظلت تلك الأعلام ترفرف فوق المنازل طوال ذلك اليوم . وابتان ذلك قام الأتراك بذبح المسيحيين في أرجاء المدينة ، وفاضت الدماء في المدينة كمياه الأمطار في الميازيب بعد نهاية عاصفة مفاجئة، وتم رمي جثث الأتراك المسيحيين القتلى في مياه الدردنيل ، حيث طفت كالبطيخ بطول المضيق.

لم يسمع أحد أية أخبار عن الامبراطور. ماذا حدث له ، أو ما إذا كان قد قُتل أم لا زال على قيد الحياة. لكن البعض ذكر أن جثة الامبراطور قد شوهدت بين جثث القتلى^(١). وقيل أنه قد شتق نفسه في اللحظة التي قام فيها الأتراك باقتحام بوابة القديس رومانوس^(٢).

الآن .. سقطت القسطنطينية ، ولأنه لم يعد هناك أية بارقة أمل ، فقد استعد شعبنا (البنادقة) لانقاذ أنفسهم، وانقاذ أسطولنا وجميع سفنه ، واخراجها من الميناء، وتحطيم السلسلة الموجودة عبر مدخل الميناء.

١- بعد نجاح العثمانيين في اقتحام القسطنطينية ، تسامل محمد الفاتح عما جرى للامبراطور قسطنطين الحادي عشر، هل هرب أم قتل . وتقدم جنديان عثمانيان فذكرا أنهما قاما بالاجهاز على الامبراطور. وبالفعل تم احضار رأس الامبراطور التي فصلت عن جسده حيث تعرف عليها القائد العسكري الأعلى نوتاراس وتم تعليقها حتى المساء على عمود أغسطس ، قبل أن يتم انزالها ، وتحنيطها ، وارسالها - كدليل على النصر- إلى باقي بلاد المسلمين. انظر Doukas , Op. cit, p. 104 وكذلك المصادر التالية :

Asik Pasa, Op. cit , p. 138 , Chalcocondylas, Op cit , p. 52 ; Dolfi , Op. cit , p 129 .

Kretovoulus , Op. cit , p. 71 ; Sphrantzes, Op cit , p. 70 ; Tursun Bey , Op. cit , p. 59 .

الذي يذكر أن الإمبراطور قام بالهجوم على جندي تركي مصاب، فتعثر حصانه ليسقط الامبراطور تحت أقدامه . وعندها قام أحد الجنود المصابين من طائفة العزبان، بحز رأسه

٢- ملاحظة هامشية . توصل الامبراطور إلى أحد رجال حاشيته ليقوم بالاجهاز عليه ، واندفع في القتال المستعر شاهراً سيفه ، حيث سقط، ثم نهض ، ثم سقط ثانية ومات .

وعندما رأى الوفيكس ديبو ، الضابط المسئول عن الميناء ، وقائد الشينية القادمة من تانا ، أن القسطنطينية قد سقطت تماماً ، هبط في الحال من سفينته حيث توجه إلى بودستا بيراً^(١) ، وتباحث معه حول ما يجب عمله تجاه أسطولنا ، ما إذا كان يجب عليه الفرار ، أو اعداده لدخول المعركة بكافة سفنه وشوانيه .

وعندما طلب الوفيكس ديبو النصيحة من بودستا مدينة بيراً ، أجابه قائلاً «أيها القائد، ابق هنا في بيراً ، وسوف أقوم بإرسال مبعوث إلى السلطان ، وسوف نرى ما إذا كنا نحن الجنوية والبنادقة سوف نقوم بقتاله ، أو باقرار السلام معه ».

وبينما كانت تجرى هذه المقابلة ، أمر البودستا الجنوي لمدينة بيراً باغلاق بوابات مدينته ، وحجز القائد بداخلها ، مع بارتلوميو فيوريان Bartolomeo Fiorian صانع الدروع على الشوانى القادمة من تانا . ونيقولو باربارو Nicolo Barbaro^(٢) ، الطبيب والجراح الخاص بالشوانى.

وأدركنا عند احتجازنا أننا أصبحنا في وضع خطير . فقد فعل الجنوي ذلك كي يقوم بتسليم شوانينا وسفننا وممتلكاتنا إلى الأتراك . ولم يبق بارسال أية رسول إلى السلطان.

وبينما نحن محتجزين في مدينتهم ، بدأت السفن في فرد أشرعتها ، وبدأ مجدفيها في الاستعداد للإبحار دون قائدها الذى أدرك الآن أنه يقع تحت طائلة عقوبة السجن ، فتمكن - عبر كلمات مناسبة - من اقناع البودستا باطلاق سراحه وزملائه .

وبعد الخروج من بيراً بقليل بدأت السفن فى جر Kedge^(٣) أنفسها حتى السلسلة الموجودة بالميناء .

١- كان البودستا الجنوي هو انجيلوا جيوفانى لوميلينو Angelo Giovanni Lomellino الذى قام بتسليم مقاتيح بيراً إلى السلطان محمد الفاتح . عن دوره فى الأحداث السابقة على اقتحام القسطنطينية انظر ما سبق ، ص ١٢٥-١٣٦

٢- هى المرة الأولى، التى يذكر المؤلف فيها اسمه ومهنته بالكتاب، ومن ناحية أخرى يدلنا هذا على ضرورة وجود الطبيب الجراح على متن السفن التجارية الإيطالية فى نهايات العصور الوسطى.

٣- Kedge هى عملية جر السفينة بمخفاف تقالى، والتعبير الأصلى هو Caggar المشتق من Catch (بمنى يعلق بالأرض) .

واستعملت الكلمة بخصوص السفن البحرية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ثم تطورت إلى Kedge عند نهاية القرن السادس عشر الميلادى. انظر: The "A Comprehensive Maritime Dictionary", p. 295 ; Oxford Companion to Ships & The Sea , pp. 442-443 .

عندما وصلنا إلى السلسلة ، لم نستطع اجتيازها بسبب امتدادها بطول المسافة بين مدينتي القسطنطينية ، وبيرا . لكن رجلين امتازا بالشجاعة قفزا إلى أسفل فوق أحد الأجزاء الخشبية من السلسلة ، وعبر استخدام فأسين حادين تمكنا من قطعها ، وقمنا بسرعة بتغيير اتجاه hurried سفنتنا إلى خارج السلسلة . وأبحرنا إلى المكان المسمى بالأعمدة ، خلف بييرا ، حيث كان الأسطول التركي قد ألقى مراسيه من قبل .

وهناك في ذلك المكان، انتظرنا حتى انتصف النهار، لنرى إذا ما كان أحد من تجارنا قد وصل إلى الشوانى . ولم يتمكن أحد منهم من فعل ذلك ، لأنه جرى أسرهم جميعاً .

وهكذا ، عند الظهر ، وبمساعدة من الرب، أعلن الوفيكس دييدو ريان السفن القادمة من تانا ضرورة الإبحار على متن شوانيه ، وقام بعده جيروليمو موريكسينى والشينية القادمة من طرابيزون تحت قيادة وكيل الربان يولفين يولفين^(١) باتخاذ نفس القرار.

ولاقت سفينة طرابيزون صعوبة كبرى فى الإبحار ، بسبب فقدانها لمائة وأربعة وستين من بحارتها، عندما غرق بعضهم وقتل البعض الآخر إبان عمليات إطلاق القذائف، أو ماتوا بأية طريقة إبان القتال المتواصل.

وفى النهاية ، استطاع رجالها بالكاد رفع أشرعتها، أما السفينة الخفيفة الخاصة بكابرييل تريفيكسان ، فقد أبحرت ، على الرغم من بقائه فى المدينة، حيث سقط فى قبضة الأتراك . كذلك أبحرت الشينية القادمة من كانديا برفقة زكريا جريونى الفارس ، بسبب أسر الربان. وخلف تلك السفن والشوانى أبحرت ثلاث سفن كانت قادمة من كانديا تحت قيادة جوان فانير Zuen Vamer وآنطونيو فيلا ماتى Antonio Filamati ، والثالث الذى لُقِّب بالدجاجة The Hen.

وأبحرنا جميعاً من القسطنطينية بأمان وسلام عبر المضائق، وهبت رياح الشمال التى بلغت سرعتها أكثر من اثنتى عشر ميلاً فى الساعة ، مما ساعدنا لأنه لو كان الجو هادئاً، لكان قد تم اللحاق بنا وأسرنّا جميعاً .

عندما أبحرنا من القسطنطينية ، كانت جميع سفن الأسطول التركى خالية من الرجال والسلاح، لأن جميع الربابنة والقادة البحريين توجهوا إلى داخل المدينة من أجل سلبها .

١- كان يولفين يولفين مسئولاً عن حراسة البوابة الامبراطورية إبان الهجوم العثمانى على القسطنطينية .

انظر ما سبق ، ص ١١٠ وكذلك Nicole, Op. cit , p. 400

ويجب أن تكونوا متأكدين أنه لو كان أسطولهم مستعداً وجاهزاً ، لما كانت سفينة واحدة من سفننا قد استطاعت الهرب، وكان الأتراك قد استولوا عليها جميعاً كأسلاب وغنائم حرب، لأننا كنا محتجزين داخل السلسلة ، لكن الأتراك تركوا أسطولهم ونزلوا إلى المدينة.

بقيت خمس عشرة سفينة داخل الميناء ، وهى تخص الجنوبية ، والامبراطور ، وسكان مدينة انكونا Ancona^(١)، كذلك كان بالميناء كافة الشوانى الخاصة بالامبراطور، التى يبلغ عددها خمس شوانى ، غير مسلحة . بالاضافة إلى ذلك بقيت هناك أيضاً كافة السفن والشوانى الأخرى التى لم تستطع الهرب، وسقطت جميعها فى يد الأتراك.

وبصرف النظر عن تلك السفن الخمس عشرة، فقد هربت سبع سفن جنوبية كانت بالقرب من السلسلة . كذلك سفينة تابعه لجورجى دوريا Zorzi Dona الجنوبى كانت حمولتها تبلغ ٢٤٠ box، وتمكنت هذه السفينة من الهرب برفقة السفن السبع الأخرى، منتهزة حلول المساء.

استمر القتال من الفجر حتى الظهر ، وبينما كانت المذبحة تجرى فى المدينة ، ويتم قتل كل شخص ، قام الأتراك بعد ذلك بقليل بأخذ الباقين كأسرى حرب، وأمر السلطان محمد الفاتح بقطع رقبة قنصلنا جيروليمو مينوتو^(٢).

١- مدينة انكونا Ancona هى ميناء ايطالى على البحر الادرياتي احتفظت بحالية وبحى لها فى القسطنطينية منذ العام ١١٩٩م. قام الامبراطور البيزنطى اندرونيكوس الثانى بمنح تجارها امتيازات تجارية بالقسطنطينية ١٢٠٨م كان أهمها أن يتساوى تجارها مع تجار جنوا والبندقية فى دفع جمرک يعادل ٢٪ من قيمة البضائع التى تدخل أو تخرج من ميناء القسطنطينية . قدم قنصل مدينة أنكونا مساعدة من أجل الدفاع عن أسوار القسطنطينية ابان الحصار العثمانى انظر: O.D.B. vol , I, p. 91

٢- أمر السلطان محمد الفاتح بضرب عتق كل من قنصل البنادق جيروليمو مينوتو ، وكذلك قنصل القطلان بالقسطنطينية بيرى جوليا Péré Julia الذى كان على رأس الجالية القطلونية فى القسطنطينية ، وساعد فى الدفاع عنها انظر: Lomelline , Op cit , p. 134 ; Runciman Op. cit , p. 84 .

وعن الدور الذى لعبه القطلان فى الامبراطورية البيزنطية قبل ذلك، انظر:

Setton , K, " The Catalans in Greece 1311-1380 " , p. pp. 167-224 ; Idem , " The Catalans and Florentines in Greece 1380-1462 " , pp. 225-277 , in Setten & Hazard (eds.) A History of the Crusades , vol, 3 , Wisconsin , 1975 .

وانظر أيضاً : أحمد كامل عبيد المقصود ، الجماعات القطلونية فى الامبراطورية البيزنطية ١٢٠٢-١٢٨٨م، رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٦م.

تلك هى نهاية عملية غزو القسطنطينية التى حدثت فى يوم الثلاثاء^(١)، الموافق التاسع والعشرين من مايو ، عام ألف وأربعمائة ثلاثة وخمسين.

إليك أسماء لرجال البنادقة النبلاء ، الذين قتلوا فى الحرب ضد الأتراك:

- ١- السيد جيروليمو مينوتو البابل .
- ٢- السيد جورجى مينوتو ابن السيد جيروليمو^(٢).
- ٣- السيد زكريا دامولنى ابن السيد جوان.
- ٤- السيد فابروزي كورنر ابن السيد جوان .
- ٥- السيد جاكومو كوكو، ربان الشينية التى قدمت من مدينة طراييزون . والذي كان قد مات غرقاً .

وهؤلاء هم النبلاء الذين هربوا بسفنهم وشوانيهم فى هذا اليوم :

- ١- السيد الوثيكس ديبو ربان الشينية .
- ٢- السيد سيلفسترو تريفيكس ، ربان الشينية .
- ٣- السيد جيروليمو موريكسينى ، ربان الشينية .
- ٤- السيد دولفين دولفين ، نائب ربان الشينية .
- ٥- السيد جوان فانير ، ربان السفينة القادمة من كريت .
- ٦- السيد لوكاجريتى ابن السيد تريادان.
- ٧- السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليوناردو الأول .
- ٨- السيد توما موزينجو ابن السيد مارين .

١- ملاحظة هامشية : تم أسر ستين ألف شخص ووجد الأتراك كمية لاتصدق من الثروات. وبلغ مجموع المبالغ التى خسرها المسيحيون حوالى ٢٠٠ ألفاً من اللوكات النندقية ، بينما خسر الذين وردت أسماعهم بعد قليل ١٠٠ ألف لوكات . (الترجمة الإنجليزية) .

٢- ملاحظه هامشية : هو ابن البابل البندى جيروليمو مينوتو . (الترجمة الإنجليزية) .

- ۹- السيد نيقولو جستنيان ابن السيد برناردو.
- ۱۰- السيد ميشيل بولو ابن السيد بينيو.
- ۱۱- السيد الوفيكس دى بريولى ابن السيد بييرو.
- ۱۲- السيد مارين كونتارينى ابن السيد برتوزى.
- ۱۳- السيد بييرو كونتارينى ابن السيد جاكومو.
- ۱۴- السيد جاكومو تايابييرا ابن السيد بييرو.
- ۱۵- السيد انطونيو دى بيزارو ابن السيد بييرو.
- ۱۶- السيد الويز داکانال ابن السيد بورتولو.
- ۱۷- السيد جيروليمو داکانال ابن السيد بورتولو.
- ۱۸- السيد ماركو ديينو ابن السيد الويز.
- ۱۹- السيد فيتور ديينو ابن السيد الويز.
- ۲۰- السيد نيكولو باربارو ابن السيد ماركو.
- ۲۱- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو.
- ۲۲- السيد ماركو اليزا ابن السيد فرانشييسكو .
- ۲۳- السيد دوناو ترون ابن السيد بييرو.
- ۲۴- السيد بولو مينوتو ابن السيد جيروليمو .
- ۲۵- السيد ماركو تريفيكسان ابن السيد جابرييل.
- ۲۶- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقولو.
- ۲۷- السيد جيروليمو ابرامو ابن السيد انطونيو .
- ۲۸- السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو .
- ۲۹- السيد جابرييل كونتارينى ابن السيد نيقولو .
- ۳۰- السيد دانيل فيتورى ابن السيد ريتيه .

٣١- السيد انطونيو كويو ابن السيد جوكومو .

٣٢- السيد جوان لولين ابن السيد انزولو .

٣٣- اليساندرو لولين ابن السيد انزولو . من جزيرة كريت

المجموع : ٣٣

أما النبلاء الآتى أسماؤهم ، فقد سقطوا فى قبضة الأتراك كأسرى حرب :

١- السيد جابرييل تريفيكسان ، نائب القبطان على السفينة.

٢- السيد زكريا جريونى، الفارس ، الذى تم ذكره سابقاً .

٣- السيد دومينيجو بالدى ابن السيد نيقولو.

٤- السيد كاتارين كونتارينى ابن السيد جوان .

٥- السيد بارتولو جورجى ابن السيد ...

٦- السيد فيليبو كونتارينى ابن السيد ...

٧- السيد الويز بيمبو ابن السيد بينيتن .

٨- السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينيتن .

٩- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو.

١٠- السيد نيقولو بالبي ابن السيد مارين .

١١- السيد الويز نافاير ابن السيد ميشيل .

١٢- السيد الويز كوتتارينى ابن السيد جاكومو .

١٣- السيد زكريا باربارو ابن السيد فاتيو.

١٤- السيد جيروليمو كورتر ابن السيد ..

١٥- السيد برناردو بالبي ابن السيد دومينجو.

١٦- السيد فرانثيسكو فانيير ابن السيد برناردو.

١٧- السيد فرانثيسكو ميشيل ابن السيد ...

- ١٨- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دوناو
 ١٩- السيد فانتن جن ابن السيد انطونيو .
 ٢٠- السيد بييرو ثاني ابن السيد جوان .
 ٢١- السيد باتيستا جريتي ابن السيد أومويون،
 ٢٢- السيد بيرو تريفيكسان ابن السيد جوان .
 ٢٣- السيد نيقولو موريكسيني ابن السيد جاكومو .
 ٢٤- السيد نيقولو بيزاني ابن السيد أندريا .
 ٢٥- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .
 ٢٦- السيد اندريا مالبيريرو ابن السيد ..
 ٢٧- ماركو أبرامو .
 ٢٨- بييرو بارباريجو.
 من جزيرة كريت
 ٢٩- نادال سينول.

المجموع : ٢٩

ومن الجدير بالذكر أن جميع أولئك التسعة والعشرين نبيلاً بندقياً^(١)، الذين أخذهم الأتراك كأسرى ، عادوا إلى البندقية في غضون عام واحد ، بعد أن تم دفع فدية تتراوح ما بين ثمانمائة إلى ألفى دوكات لكل منهم.

أما التالي أسماؤهم ، فهم كافة نبلاء البندقية الذين كانوا موجودين يوم حدث الهجوم التركي على القسطنطينية ، وقتل بعضهم ، وتم أسر البعض الآخر، ونجح آخرون في الهرب عبر استخدام السفن والشوانى، كما تم ايضاحه سابقاً .

١- أنظر أيضاً . Nicol " Byzantium and Venice " pp. 405-406 حيث يذكر أسر العثمانيين لتسع وعشرين من النبلاء السنادقة الذين جرى اقتداعهم فيما بعد بمبلغ يتراوح ما بين ٨٠٠-٢٠٠٠ دوكات بندقي لكن البروفسير نيقول يذكر أن عدد البنادق كان حوالي ٦٠٠ بندقي في القسطنطينية وبينما قتل بعضهم في الحرب، وأحداث اقتحام العثمانيين للمدينة ، فإن الباقين تم بيعهم كعبيد في أسواق الرقيق .
 انظر أيضاً المصادر التالية . Chalcocondylas, Op. cit , p. 52 . Tedaldi , Op. cit , pp 9-10 .

ولكى يمكننا التعرف على جميع النبلاء الذين حضروا سقوط المدينة، وسوف أقوم بترتيب قائمة بأسمائهم .

- ١- السيد جيروليمو مينوتو ، بايل البنادقة في القسطنطينية .
- ٢- السيد جورجى ابن السيد جيروليمو . (ابنه)
- ٣- السيد بولو ابن السيد جيروليمو.
- ٤- السيد الوفيكس ديبو ، ربان الشينية .
- ٥- السيد ماركو ديبو ابن السيد الوفيكس.
- ٦- السيد فيتور ديبو ابن السيد الوفيكس .
- ٧- السيد جابريل تريفيكسان ، نائب الربان على الشينيتين .
- ٨- السيد ماركو تريفيكسان ابن السيد جابريل.
- ٩- السيد زكريا جريوتى الفارس، الذى جاء ذكره سابقاً .
- ١٠- السيد سلفسترو تريفيكسان، ربان الشينية الكبيرة.
- ١١- السيد جيروليمو موريكسينى، ربان الشينية الكبيرة .
- ١٢- السيد دولفين دولفين، نائب القبطان وابن السيد دومينجو.
- ١٣- السيد جاكومو ، ربان الشينية الكبيرة .
- ١٤- السيد كاتارين كونتارينى ابن السيد جوان.
- ١٥- السيد مارين كونتارينى، ابن السيد برتوزى.
- ١٦- السيد بييرو كونتارينى ابن السيد جاكومو.
- ١٧- السيد الويز كونتارينى ابن السيد جاكومو .
- ١٨- السيد جابريل كونتارينى ابن السيد نيقولو .
- ١٩- السيد فيليبو كونتارينى ابن السيد ..
- ٢٠- السيد نيقولو موريكسينى ابن السيد جاكومو .
- ٢١- السيد نيقولو جستتيان ابن السيد برناردو.
- ٢٢- السيد برناردو جستتيان ابن السيد نيقولو .

أخوان

أخوان

- ٢٣- السيد دومينجو بالبي ابن السيد نيقولو .
- ٢٤- السيد نيقولو بالبي ابن السيد مارين .
- ٢٥- السيد برناردو بالبي ابن السيد دوميتيجو .
- ٢٦- السيد الويز بيمبو ابن السيد بينيتين.
- ٢٧- السيد انطونيو بيمبو ابن السيد بينيتين .
- ٢٨- السيد نيقولو تافاير ابن السيد ميشيل .
- ٢٩- السيد نيقولو موزينجو ابن السيد ليونارد الأول.
- ٣٠- السيد توما موزينجو ابن السيد مارين.
- ٣١- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ...
- ٣٢- السيد انطونيو دي زادا بيزارو ابن السيد بييرو.
- ٣٣- السيد بييرو نانتي ابن السيد جوان .
- ٣٤- السيد بييرو تريفيكسان ابن السيد جوان.
- ٣٥- السيد آدامو تريفيكسان ابن السيد ..
- ٣٦- السيد ميشيل بولدو ابن السيد بينيتو.
- ٣٧- السيد باتيستاجريتي ابن السيد اوموبون .
- ٣٨- السيد لوكا جريتي ابن السيد تريادان.
- ٣٩- السيد جوان فانير ، ربان السفينة القادمة من كريت.
- ٤٠- السيد فرانثيسكو فانير ابن السيد برناردو .
- ٤١- السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو.
- ٤٢- السيد نيقولو باربارو ابن السيد ماركو.
- ٤٣- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو .
- ٤٤- السيد مافيو دي بريولي ابن السيد بييرو .
- ٤٥- السيد الويز دي بريولي ابن السيد بييرو .
- ٤٦- السيد انطونيو كويو ابن السيد جاكومو .

أخوان

- ٤٧- السيد فابروزي ابن السيد جوان .
- ٤٨- السيد جيروليمو أبرامو ابن السيد انطونيو .
- ٤٩- السيد ماركو أبرامو الكريتي .
- ٥٠- السيد اليساندرو لولين ابن السيد انزولو.
- ٥١- السيد جوان لولين ابن السيد انزولو .
- ٥٢- السيد نادال سيفولو الكريتي .
- ٥٣- السيد ببيرو بارباريجو الكريتي.
- ٥٤- السيد دانيال فيتوري ابن السيد رينيه .
- ٥٥- السيد بورتولو جورجى ابن السيد فرانثيسكو.
- ٥٦- السيد اندريا مالبيريرو ابن السيد...
- ٥٧- السيد انطونيو بيزامانو ابن السيد نيقولو .
- ٥٨- السيد جاكومو تايا بييرا بان السيد بييرو .
- ٥٩- السيد فرانثيسكو ميشيل ابن السيد ...
- ٦٠- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دونادو .
- ٦١- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقول .
- ٦٢- السيد الويز دى كانال ابن السيد بورنولو.
- ٦٣- السيد جيروليمو دى كانال ابن السيد بورنولو .
- ٦٤- السيد نيقولو بيزانى ابن السيد أندريا .
- ٦٥- السيد فانتن جن ابن السيد انطونيو .
- ٦٦- السيد دونادو ترون ابن السيد بييرو .
- ٦٧- السيد ماركو داليز ابن السيد فرانثيسكو .
- ٦٨- السيد زكريا دامولين ابن السيد جوان .

أخوان

أخوان

أسماء الذين قتلوا من بين الثمانية والستين نبيلًا بندقياً الذين شهدوا حصار وسقوط القسطنطينية :

١- السيد جيروليمو مينوتو، بايل البنادقة فى القسطنطينية.

٢- السيد جاكومو كوكو ، ربان الشينية القادمة من طرايزون.

٣- السيد أدامو تريفيكسان ابن السيد ..

٤- السيد فابروزي كورنر ابن السيد جوان .

٥- السيد زكريا دا مولين بن السيد جوان .

٦- السيد جورجى مينوتو ابن السيد جيروليمو .

٧- السيد فيليبو كوتارينى ابن السيد ..

٨- السيد ماركو ديبو ابن السيد الويز .

٩- السيد انطونيو دا كا دايزارو ابن السيد بييرو.

١٠- السيد الويز بيمبو ابن السيد بيتتين.

١١- السيد الويز نافاير ابن السيد ميخائيل .

١٢- السيد الويز كوتارينى ابن السيد جاكومو.

١٣- السيد بولو مينوتو ابن السيد جيروليمو.

١٤- السيد زكريا جريونى الفارس .

١٥- السيد دونالد ترون ابن السيد بييرو .

١٦- السيد فيتور ديبو ابن السيد الويز.

١٧- السيد بورتولو جورجى ابن السيد فرانثيسكو .

١٨- السيد نيقولو بالبي ابن السيد مارين .

١٩- السيد جيروليمو كورنر ابن السيد ...

٢٠- السيد برناردو بالبي ابن السيد دومينجو.

٢١- السيد الويزى ديبو ابن السيد ماركو .

٢٢- السيد انطونيو بيزامانوا ابن السيد نيقولو .

- ٢٣- السيد فرانثيسكو فانير ابن السيد برناردو .
- ٢٤- السيد اليساندرو لولين ابن السيد انزولو.
- ٢٥- السيد نادال سينولو الكريتي .
- ٢٦- السيد دومينجو بالبي ابن السيد نيقولو .
- ٢٧- السيد جيروليمو دى كانال ابن السيد بورتولو.
- ٢٨- السيد بييرو ثانى ابن السيد جوان .
- ٢٩- السيد جوان فانير الكريتي.
- ٣٠- السيد ماركو ابرامو الكريتي .
- ٣١- السيد جوان لولين الكريتي.
- ٣٢- السيد بييرو بارباريجو الكريتي.
- ٣٣- السيد جابريل تريفيكسان .
- ٣٤- السيد سيلفسترو تريفيكسان ، ريان الشينية .
- ٣٥- السيد لولفين لولفين ، نائب ريان الشينية .
- ٣٦- السيد نيقولو جستتيان ابن السيد برناردو.
- ٣٧- السيد بييرو ميشيل ابن السيد دونانو .
- ٣٨- السيد لوكا جريتي ابن السيد تريادان.
- ٣٩- السيد ميشيل بولدو ابن السيد بينيوتو.
- ٤٠- السيد جاكومو تايايرا ابن السيد بييرو.
- ٤١- السيد جيروليمو موريكسينى الريان.
- ٤٢- جابريل كوتارينى ابن السيد نيقولو
- ٤٣- السيد زكريا باربارو ابن السيد ماتيو.
- ٤٤- السيد دانيال فيتورى ابن السيد رينيه .
- ٤٥- السيد فرانثيسكو ميشيل ابن السيد ..
- ٤٦- السيد نادال سالامون ابن السيد نيقولو .

- ٤٧- السيد بييرو تريفيكسان ابن السيد جوان .
 ٤٨- السيد ماركو داليز ابن السيد فرانشيسكو .
 ٤٩- السيد الويز دى بريولى ابن السيد بييرو.
 ٥٠- السيد جيروليمو أبرامو ابن السيد انطونيو .
 ٥١- السيد كاتارين كوتارينى الكبير.
 ٥٢- السيد مافيو دى بريولى ابن السيد بييرو.
 ٥٣- السيد اندريا مالبيريرو ابن السيد
 ٥٤- السيد انطونيو مالبيريرو ابن السيد بينيتن.
 ٥٥- السيد جوان لوريدان ابن السيد بولو.
 ٥٦- السيد باتيستا جريتى ابن السيد اوموبون .
 ٥٧- السيد انطونيو كويو ابن السيد جاكومو.
 ٥٨- السيد برناردو جستنيان ابن السيد نيقولو.
 ٥٩- السيد مارين كونتارينى ابن السيد برتوزى الأول .
 ٦٠- السيد الويز دى كانال ابن السيد بورتولاميو.
 ٦١- السيد توما موزينيجو ابن السيد مارين .
 ٦٢- السيد نيقولو موزينيجو ابن السيد ليوناردو الأول .
 ٦٣- السيد نيقولو موريكسينى ابن السيد جاكومو.

المجموع : ٦٣

أنا نيقولو باربارو ، ابن ماركو باربارو ، كتبت بيدي هذه اليوميات، حول كافة الهجمات التى قام بها الأتراك على القسطنطينية ، حتى اليوم الذى تمكنتوا فيه من الاستيلاء عليها . كما قمت بكتابة ما جرى بشكل كامل ، ووافٍ ، ومناسب ومرتب . ويرجع ذلك إلى وجودى شخصياً فى القسطنطينية ، عندما تم اقتحامها والاستيلاء عليها . فى فجر يوم الثلاثاء ، الموافق التاسع والعشرين من مايو لعام ١٤٥٣ م.

ملاحظات اضافية بواسطة ماركو باربارو

١٨ يولييه ١٤٥٣م

تم اتخاذ قرار بأن يقدم أعضاء لجان تجارة الملح إلى أبناء جاكومو كوكو ، ريان الشينية التي كانت قادمة في رحلة إلى بيزنطة ، والذي مات، كما جاء في الصفحة رقم ٣٠ من هذا المخطوط * ٦٠ دوكات Ducats من أجل اعالتهم ، خلال العام القادم.

وخلال هذا العام ينبغي عليهم شراء سندات رسمية تبلغ قيمتها ٦٠٠ دوكات ذهبية من النقود العالية القيمة ، وأن يتم تخصيصها إلى بنات جاكومو ، الذي تم ذكره سابقاً ، من أجل توفير بائئات لهن. بحيث تظل معهن السندات كرأسمال حتى زواجهن . وإذا ما وافتهن المنية قبل الزواج ، فإن ملكية السندات يجب أن تنتقل إلى أخيهما . وخلال نفس الفترة ، يجب أن يتم شراء نفس العدد من السندات لكي تخصص من أجل ابن جاكومو كوكو (١).

كان الامبراطور، ابان حصار القسطنطينية في أشد الاحتياج إلى الأموال، فسأل باروناته اقراضه بعض المال لكنهم اعتذروا بدعوى أنهم لايمتلكون أية أموال، وعلى الرغم من ذلك، فقد وجد الأتراك مبلغاً كبيراً بعد دخولهم المدينة ، حيث عثروا على ثلاثين ألف دوكات في حوزة أحد هؤلاء النبلاء ، الذين كانوا قد وجهوا النصيح للامبراطور ، ابان حصار المدينة ، بضرورة أخذ الأواني الفضية من الكنائس (٢)، بدلاً من فرض الضرائب العالية وقام الامبراطور بذلك بالفعل .

بعد أن تم الاستيلاء على المدينة ، أصدر السلطان بياناً بأن أولئك الذين يمتلكون منازل بالقسطنطينية ، يجب أن يخبروه بذلك، حتى يقوم بتخصيصها لهم. وتوجه إليه العديد من البيزنطيين واللاتين لاختباره عن موقع منازلهم. وكان من بين هؤلاء الباييل التابع للبندقية والقنصل الاسباني .

* المقصود بالمخطوط هنا هو كتاب نيقولو باربارو الاصلى. عن مقتل جاكومو انظر ص ٤١ في الترجمة الإنجليزية ، وص ١٢٨ في الترجمة العربية .

١- انظر أيضاً : Nicol, Op. cit, p. 406 , not 2

حيث توجد اشارة إلى الترتيبات التي وضعها السناتو البندقي من أجل أبناء جاكومو كوكو .

Kritovoulos, Op. cit, p. 36 .

٢- عن ذلك انظر :

وبدلاً أن يقوم السلطان بتسليمهم ما يمتلكون من منازل ، أمر السلطان بقطع رقابهم،
القتل واثنين من موظفيه. وكذلك البايلى وابنه ، واثنين آخرين من نبلائنا، كما جاء فى
الصفحة رقم ٦٠* من هذا المخطوط.

وأراد السلطان أن تُقطع رقبة كل شخص يحضر أمامه، وتم نصحه بأنه من الأفضل أن
يتركهم أحياء .

وقيل أيضاً أن باروناً بيزنطياً من منزلة اجتماعية عالية، قد نال حظوة لدى السلطان ،
وأرسل إليه اثنتين من بناته ، كل منهما تحمل طبقاً مليئاً بالمال فى يدها .

وأظهر له السلطان الكثير من الشرف ، وبدأ أنه قد مال إليه بشكل كبير ، وعندما شاهد
النبلاء الآخرون التأييد والاستحسان الذى تلقاه ، قام كل منهم باحضار مبالغ مالية كبيرة، كل
على قدر استطاعته، وقاموا بتقديمها هدية للسلطان من أجل كسب وده واستمالته .

وافق السلطان على قبول الهدية، ودفع بهم إلى مواقع الشرف، لكنه، وعندما نفذت الهدايا
المالية، أمر باحضارهم إليه وقطع رقابهم. وقال عنهم أنهم جبناء كالكلاب غير الأصيلية Curs
(المهجنة) . إذ لم يقوموا باقراض تلك الأموال إلى سيدهم الامبراطور، وتركوا مدينتهم تتجه
نحو السقوط .

لم يصدق أعضاء السناتو Senators لدينا فى البندقية ، أنه بمقدور الأتراك جلب أسطول
بحرى قوى أمام القسطنطينية ، وقرروا ضرورة تسليح خمس عشرة شينية وسفينتين ، حمولة
كل منهما ٨٠٠ botte، فى يوم التاسع والعشرين من فبراير ١٤٥٣م، لكن لم يتم ارسالها نحو
القسطنطينية حتى علمنا أن الأتراك قد بدأوا حصارهم للمدينة (١)

* كما جاء فى الصفحة رقم ٧٠ من الترجمة الإنجليزية والصفحة رقم ١٨١ من الترجمة العربية .

١- وصل هذا الأسطول متأخراً إلى القسطنطينية، وبعد سقوط المدينة بالفعل فى ٢٩ مايو ١٤٥٣م. انظر
ما سبق ص ١٤٢ ، ١٤٤ ، ١٦١ عندما أرسل الامبراطور فى ٣ مايو سفينة لاستطلاع أخبار ذلك الأسطول
البندقى، لكنها عادت فى الرابع والعشرين من مايو بعد ما فقدت الأمل فى ملاقاته . وانظر أيضاً ، ص ١٤٢ ،
هامش (٢) .

قائمة المصادر والمراجع

قائمة المختصرات

- A . H . R American Historical Review . London .
- B Byzantion . Bruxelles.
- B . F Byzantinisch Förschungen . Amesterdam .
- B . H . M Bulletin of the History of Medicin .
- B . S ByzantinoSlavica . Prague .
- C . H . R Catholic Historical Review .
- C . M . H Cambridge Medieval History . Cambridge University .
- C . S . H . B Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae . Bonne .
- D . O . P Dumbartan Oaks Paper . Harvard Universty .
- Ire Irénikon .
- O . C . P Orientalia Christiana Periodica , Roma .
- O . D . B . Oxford University .
- R . E . I Revue des Etudes Islamiques. Paris .
- S P Speculum . Cambridge, Mass.
- S V Studi Veneziani, Venice .
- U.B.H.J. University of Birmingham Historical Journal , Birmingham

أولا : المصادر الأجنبية

١- المصادر البيزنطية :

- Anna Comnena , The Alexiad . Trans . by , Daws , E . London , 1928 .
- Ashburner , W (ed.) , The Rhodian Sea Law . Oxford, 1909 .
- Chalcocondylas, L, "Turkish History" , Book VIII, 201-214 , in , Jones (ed.) The Siege of Constantinople 1453 , Amesterdam , 1972 , pp. 42-55 .
- Choniates , N , O city of Byzantium. Annales of Niketas Choniates. Trani . by , Harry J. Magoulis, Detroit , 1984 .
- Constantine Porphyrogenus, De Adminstrando Imperio, Trans by , Jenkins , R . J . H, Washington, 1974 .
- اعتمدت على الترجمة العربية للكتاب : قسطنطين السابع بورفيريو جنيتوس ، ادارة الامبراطورية البيزنطية ، ترجمة محمود سعيد عمران ، بيروت ، ١٩٨٠ م . وللترجمة الانجليزية للكتاب جزء ثان ، يحتوى على التعليقات والهوامش. لم يترجم بعد .
- Doukas , M, " Historia Turco - Byzantina " , Decline and Fall of Byzantium to Ottoman Turks Trans. by . Harry J. Magoulis , Detroit, 1975 .
- وهناك ترجمة أخرى لبعض فصول هذا الكتاب :
- Ducas , Byzantine History . Ch. 33- 42. in , Jones (ed.) " The Siege of Constantinople", pp. 56-116 .
- Kinnamos , J. Deeds of John and Manuel Comnenus. Trans. by , Ch . Brand , New York, 1976 .
- Kritovoulos, History of Mehmed The Conqueror . Trans. by C.T. Riggs, Princeton, 1954 .
- Miklosich F. R & Müller , J, Acta Et Diplomata Graeca, III, Vien , 1865.
- Pachymers, G , De Michael Palacologus, vol, I , Bekker (ed.) , in Corpus Scriptorum Historiae Byzantinae , Bonne , 1835 .
- Pesellus , M. Fourteen Byzantine Rulers, The Chronographia of Michael Pesellus , Trans . by , Sewter , E . R.A., London , 1966 .

- Sphrantzes, G, The Fall of Byzantine Empire . Achronicle by George Sphrantzes 1401-1477 . Trans . by , M . Philippides. Amherest , 1980 .
- Theodore Spandounes, On The Origin of the Ottoman Emperors. Trans. by , Nicol, D. Cambridge, 1997 .
- Theophanes, The Chronicle of Theophanes (6095-6305) (A.D 602-813) . Trans by , Harry Turtledove , Pennsylvania , 1982 .

واعتمدت أيضاً على ترجمة حديثة لهذا المصدر . انظر :

- Theophanes Confessor , The Chronicle of Theophanes Confessor . Byzantine and Near Eastern History AD,284-813 . Translation with Introduction and Commentary by , Cyril Mango & Roger Scott, With The Assistance of Geoffrey Greatnes, Oxford, 1997 .

٢- المصادر اللاتينية :

- Angelo Giovanni ; Lomellino , ex- Podesta of pera , to his brother , in , Jones (ed.) , The Sieg of Constantinople , pp. 131-135 .

- Anonymous , Deeds of The Franks and The Other Pilgrims to Jerusalem, R . Hill (ed.) London , 1962 .

اعتمدت على الترجمة العربية : المؤرخ المجهول، أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة وتعليق حسن حبشي، القاهرة، ١٩٥٨ م.

- Belgrano , L.T , Documenti riguardanti la Colonia Genovesi di Pera, Genoa, 1888 .

- Danduli , A Chronica Per Extensum Descripta a a 461-1280 d. C. A Cura di Ester Pastorello, Bologna , 1938 .

- Dölger, F, Regesten der Kaiserurkunden Des Oströmischen Reiches von 565-1453 , Teil IV , Munchen, 1925 .

- Fulcher of Charter , A History of Expedition to Jerusalem . H. Find (ed.), knoxille, 1969 .

اعتمدت على الترجمة العربية فوشيه الشارترى ، الوجود الصليبي في الشرق العربي، ترجمة وتعليق قاسم عبده قاسم، الكويت، ١٩٨٨ م.

- Giacomo Tedaldi ; in Jones (ed.)" The Siege of Constantinople" , pp. 1-10 .

- Joinville , Vie de St. Louis , Paris, 1874 .

اعتمدت على الترجمة العربية : القديس لويس . حياته وحملاته على مصر والشام ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٨م .

- Jones (ed.) The Siege of Constantinople . Seven Contemporary Accounts . Amesterdam, 1972 .

- Jones (ed.), Mehmet's Treaty with The Genoese, pp. 136-137 .

- Leonard of Chios , in Jones (ed.) " The Siege of Constantinople" , pp. 11-41 .

- Raymond of Aguilers , Franks Conquerers of Jerusalem , J. H . Hill & L.L. Hill (eds.) , philadelphia , 1968 .

اعتمدت على الترجمة العربية : ريمونداجيل ، تاريخ الفرنجة غزاة بيت المقدس ، ترجمة وتعليق حسين عطية ، الاسكندرية ، ١٩٩٠م .

- Riccherio, C, " The Capture of Constantinople in The Year 1453 , on the Twenty - ninth day of May", in Jones (ed.) The Siege of Constantinople, pp. 117-124 .

- Robbert Clari , la Conquête de Constantinople , Philippe, L . (ed.) , Paris , 1924 .

اعتمدت على الترجمة العربية : روبرت كلاري ، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين . ترجمة وتعليق حسن حبشي ، القاهرة ، ١٩٦٤م .

- Villehardwin, J. La Conquete de Constantinople . text et Traduction nouvelle avec notes et Glossaire 2 Toms . Paris , 1891 .

اعتمدت على الترجمة العربية : فلهاروين ، فتح القسطنطينية ، ترجمة وتعليق حسن حبشي ، جدة ، ١٩٨٢م .

- William of Tyre , A History of The Deeds done beyond The Sea Trans . by . E.A. Babcock, A. C. Krey , New York , 1947 .

اعتمدت على الترجمة العربية : وليم الصوري ، الحروب الصليبية ، ج١، ج٢ ، القاهرة ، ١٩٩١-١٩٩٢م .

- Zorzi Dolfīn , " Cronaca, ff. 313-322 (Selections) in , Jones (ed.) "The Siege of Constantinople", pp. 125-130 .

٣- المصادر العثمانية :

- Asik Pasa Oglu , “ Asik Pasa Oglu Tarihi “ Hazirlayan, H. Nihal Atsiz , Ankara , 1985 .
- Tursun Bey , Tarih-i Ebul- Feth. Hazirlayan, Mertol Tulum , Istanbul , 1997 .

٤- المصادر الفارسية :

- ابن البيبي (ابن بي بي) (العلامة حسنى بن محمد بن على الجعفرى الرغدى) .
أخبار سلاجقة الروم . مختصر سلجوق نامه، ترجمة محمد السعيد جمال الدين، الدوحة ، ١٩٩٤م.
- البندارى (الفتح بن على البندارى الأصفهاني) .
تاريخ دولة آل سلجوق . بيروت د.ت .
- الحسينى (صدر الدين على بن ناصر)
زبدة التواريخ ، أخبار الأمراء والملوك السلجوقية.
تحقيق محمد نور الدين، بيروت ، ١٩٨٦م.

ثانياً : المصادر العربية

- ابن أعثم (أبى محمد أحمد بن أعثم الكوفى) .
الفتوح ، ج ١ ، بيروت . د.ت .
- ابن الأثير (أبى الحسن على بن أبى الكرم الملقب عز الدين)
الكامل فى التاريخ ج ٢ ، ج ٤ ، تحقيق يوسف الدقاق ، بيروت، ١٩٨٧م.
- ابن العبرى (أبى الفرج جمال الدين)
تاريخ الزمان. ترجمة الأب أسحق أرملة ، بيروت، ١٩٨٦م .
- ابن العماد الحنبلى (أبو الفلاح عبد الحى)
شذرات الذهب فى أخبار من ذهب، ج ٧ ، بيروت ، د.ت .
- ابن القلانسى (أبويعلى حمزة بن أسد بن التميمى)
ذيل تاريخ دمشق ، بيروت ، ١٩٠٨م.
- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى).

- صفحات لم تنتشر من بدائع الزهور فى وقائع الدهور، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٥١م.
- ابن اياس (محمد بن أحمد بن اياس الحنفى)
بدائع الزهور فى وقائع الدهور، ج ٢، تحقيق محمد مصطفى، القاهرة، ١٩٨٤م.
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة، ج ١٢، ج ١٦، القاهرة، د.ت.
- ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)
حوادث الدهور فى مدى الأيام والشهور، ج ١، تحقيق فهم شلتوت، القاهرة، ١٩٩٠م.
- ابن عربشاه (ابى العباس شهاب الدين بن محمد الدمشقى)
عجائب المقتور فى نوائب تيمور، تحقيق فايز الحمصى، بيروت، ١٩٨٦م.
- ابن كثير (الحافظ عماد الدين أبو الفدا اسماعيل)
البدایه والنهایة، ج ٩، بيروت، ١٩٦٦م.
- ابن ممتى (شرف الدين أبو المكارم بن ابى سعيد)
قوانين الدواوين، جمع وتحقيق عزيز سوريال، القاهرة، ١٩٩١م.
- البلاذرى (أحمد بن يحيى بن جابر)
فتوح البلدان، تحقيق عبدالله وعمر الصباغ، بيروت، ١٩٨٧م.
- الطبرى (ابى جعفر محمد بن جرير)
تاريخ الرسل والملوك، ج ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨، ٩، تحقيق محمد أبو الفضل، القاهرة، ١٩٧٩).
- القرماتى (ابى العباس أحمد بن يوسف بن أحمد الدمشقى).
أخبار الدول وآثار الأول فى التاريخ، بيروت، د.ت.
- القلقشندى (ابو العباس أحمد بن على بن أحمد)
صبح الأعشى فى صناعة الانشا، ج ٣، القاهرة، ١٩١٣م.
- المقرئى (تقى الدين أحمد بن على)
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، ج ١، القاهرة، ٢٠٠٠م.

ثالثاً : المراجع الأجنبية

- Alexanderescu - Dersca , La Campagne de Timur en Anatolia, 1402 .
London , 1972 .
- Ali Sevim , Malazgirt. Maydam Savasi . Ankara , 1971 .
- Atiya , A .S , The Crusades in The Later Middle Ages . London , 1938 .
- Babinger , F , Mehmad The Conqueror and His Time Trans. by , R
Manheim, W.C . Hickman . Princeton, 1978 .
- Barker, J . W . Manuel II Palacologus 1391-1425 . A Study in Later
Byzantine Statesmanship, New Jersey , 1969 .
- Bartusis , M , The Late Byzantine Army : Arms and Socity, 1204-1453,
Philadelphica, 1992 .
- Bowman, S.B, The Jews of Byzantium 1204-1453 Alabama , 1985 .
- Cave . c.c & Coulson , H. A source Book for medieval Economic His-
tory . New York , 1965 .
- Cemal Kafadar , Between Two Worlds. The Construction of the Otto-
man State, London , 1995 .
- Charanis , p. "The Jews in The Byzantine Empire under The First pa-
lacologus " , in, Sp, 22, 1947 .
- Charanis, p. "On The Date of The Occupation of Gallipoli by The
Turks" in BS, XVI, Prague , 1955 .
- Charanis, p. "An Important Short Chronicle of The Fourteenth Century"
in , B , XIII, 1938 .
- Day , G " Italian Churches in the Byzantine Empire to 1204", in C.H.R,
Lxx, 1984 .
- Dennis , S.J " The Byzantine - Turkish Treaty in 1403. in O. C . P.
XXXIII, 1967 .
- Derksen , D, The Crescent and The Cross , New York , 1964 .
- Farouk Sumer & Ali Sevim, Islam Kaynaklarına gore Malazgirt Savasi .
Ankara, 1971 .

- Gill, J, *Personalities of the Council of Florence* New York, 1964 .
- Goodwin , G, *The Janissaries* . London , 1997 .
- Hidden, A, *The Ottoman Dynasty* . New York , 1962 .
- Hignett, C, *Xerxes invasion of Greece* . Oxford , 1963 .
- Inalcik , H, "Mehmed The Conquerors, (1432-1481) and his Time ". in *D.O.P*, 35 , 1960 .
- Inalcik, H. " The Policy of Mehmed II Toward The Greek Populations in Istanbul and the Byzantine Buildings in the City ", in *D.O.P*, 23-24, 1969-1970 .
- Inalcik , H , *The Ottoman Empire . The Classical Age 1300-1600* . London , 1973 .
- Kielty , B , *La Chute de Constantinople* , Paris, 1961 .
- Kinross , L, *The Ottoman Centuries . The Rise and fall of the Turkish Empire* . London , 1977 .
- Krajevar , J " Metropolitan Isidor's Journy to The Council of Florence . Some remarks", in , *O.C.P*. 38 , 1972 .
- Kristeller , P.O . *The School of Salerno : its development and its Contribution to The History of Learning* " in, *B.H.M*, XVII, 1945 .
- Lane , F " Venetian Shipping during The Commercial Revolution, in, *J. H. R*, XXXVIII, 1933 .
- Lane , F " The First Infidelities of the Venetian Lire" in, Miskimen & Perlihy & Udovich (eds.) , *The Medieval City* . Yale , 1977.
- La Valleeé, *The Histoire de L'Empire Ottoman* , 1855 .
- Martin, M.E " Venetian Tana in the Later Fourteenth and Early Fifteenth Centuries : in , *B. F*, 11. 1987 .
- Maltezou , ch, *Ho Thesmos tou en konstantinoupoli Benetou bailou* , Athens, 1970 .
- Menzies , S , *History of the Ottoman Empire in Europe*, London , 1977.
- Miller , W, *Trebizond . The Last Greek Empire* , London , 1926 .

- Millingen , V, Byzantine Constantinople . The Walls of The City and adjoining Historical sites London , 1899 .
- Nicol , D “ A, Byzantine Emperor in England , Manuel’s Visit to London 1400-1401" in, University of Birmingham Historical Journal, XII / 2, 1971 .
- Nicol, D, The Last Centuries of Byzantium 1261-1453 , London , 1972 .
- Nicol , D, Byzantium and Venice : A Study. in diplomatic and Cultural relations . Cambridge, 1988 .
- Pearse , E “ The Ottoman Turks to The Fall of Constantinople “, in C. M . H , I, (4), 1927 .
- Pearse , E, The Destruction of the Greek Empire and The Story of the Capture of Constantinople by The Turks , New York , 1968 .
- Queller, D, Anote on the Reorganization of the Venetian Coinage by Doge Enrico Dandolo “ in , Medieval Diplomacy and the Fourth Crusade , London , 1980 .
- Robbert, L .B, “Venetian Money Market 1150-1229" in S.V XIII, 1971.
- Robbert , L. B, “Reorganization of The Venetian Coinage by The Doge Enrico Dandolo “, in, SP, XLIX, 1974 .
- Runciman , S, The Fall of Constantinople 1453 . Cambridge , 1965 .
- Sauli , D . L, Della Colonia Dei Genovesi in Galata . 2 Tomo . Turin , 1831 .
- Schlumberger , G, Le Siege la Praise et le Sac de Constantinople par ls Turces en 1453 . Paris , 1914 .
- Semavi Eyice, Malazgirt Savası kaybeden Romano IV Diogens . Ankara, 1971 .
- Setton , K, “ The Catalans in Greece 1311-1380" in , Setton & Hazard (eds.) A, History of the Crusades , vol .3 , Wisconsin, 1975 .
- Setton , K, “ The Catalans and Florentine in Greece 1380-1462 in , Setton & Hazard (eds.) A History of the Crusades . vol . 3 , Wisconsin, 1975 .

- Sharf , A , Byzantine Jewry from Justinian to the Fourth Crusade .London , 1971 .
- Starr, J, Jews in The Byzantine Empire 641-1204, Athens, 1939 .
- Wittek , P, De La defeat D'Ankara a' la Praise de Constantinople. in Re-
vue des Etudes Islamiques , XII , 1938 .
- Zachariadou , E, " The Conquest of Adrianople by The Turks, in SV ,
XII, 1970 .
- Zachariadon, E, Trade and Crusade : Venetians Crete and The Emirates
of Monteshe and Ayden, 1300-1415 . Venice , 1983 .
- Ziegler , A, W, Isidore de Kiev, A Portre de L'Union Florentine " , in,
Irenikon, 13, 1936 .

رابعاً : المراجع العربية والمعربة

- أحمد رمضان أحمد ، تاريخ فن القتال البحرى فى العصر الوسيط، القاهرة . د.ت .
- اسماعيل سرهنك ، تاريخ الدولة العثمانية ، مراجعة حسن الزين . بيروت . د.ت .
- اسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ج ١ القاهرة ، ١٢١٢هـ .
- حاتم عبد الرحمن الطحاوى ، بيزنطة والمدن الإيطالية، (العلاقات التجارية)
١٠٨١-١٢٠٤م. القاهرة ، ١٩٩٨م.
- حاتم عبد الرحمن الطحاوى، الاقتصاد الصليبي فى بلاد الشام، القاهرة ، ١٩٩٩م.
- حاتم عبد الرحمن الطحاوى، «اقتحام العثمانيين للقسطنطينية . شهادة المؤرخ البيزنطى
يوكاس» مجلة الاجتهاد ، العددان الواحد والأربعين والثانى والأربعين، السنة الحادية
عشر، بيروت، ١٩٩٩م.
- حسن بيرينا ، مشير الدولة : تاريخ ايران القديم من البداية حتى نهاية العصر
الساسانى. ترجمة محمد نور الدين عبد المنعم، السباعى محمود السباعى، مراجعة
وتقديم يحيى الخشاب ، القاهرة، ١٩٩٥م.
- حسين عطية، «عشر صلاح الدين وأصوله التاريخية فى غرب أوروبا ومملكة بيت
المقدس»، بحث مستخرج من كتابه : دراسات فى الحروب الصليبية ، الاسكندرية،
٢٠٠٠م.
- حسين عطية، «معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م ونهاية النفوذ البيزنطى فى آسيا الصغرى،
مجلة كلية الآداب - جامعة طنطا .

- جوزيف داهموس، سبع معارك فاصلة في العصور الوسطى ترجمة محمد فتحى الشاعر، القاهرة، ١٩٩٢م.
- رأفت النبراوى ، الدوكات الذهبية البنديقية ، «مجلة الدارة» ، العدد ٤ ، السنة السابعة عشرة ، رمضان ، ١٤١٢هـ .
- سمير فوزى ، القديس مرقس وتأسيس كنيسة الاسكندرية، ترجمة نسيم مجلى ، القاهرة، ١٩٩٩م.
- فايز نجيب اسكندر ، دراسه لاتفاقيه تجارية بين امبراطورية طرابيزون والبنديقية ١٣٦٤م، الاسكندرية ١٩٨٣م.
- عبد الرازق الطنطاوى القرموط ، العلاقات المصرية العثمانية ٧٨٤-٩٢٣هـ / ١٢٨٢-١٥١٧م. القاهرة ١٩٩٥م.
- عبد الرحمن فهمى ، ابن اياس واستخدام الأسلحة النارية فى ضوء ما كتبه فى كتاب بدائع الزهور ، بحث مستخرج من كتاب ابن اياس : دراسات وبحوث ، اشراف أحمد عزت عبد الكريم، القاهرة ، ١٩٧٣م.
- عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام فى الهند، القاهرة، ١٩٩٠م.
- على بن صالح المحاميد، الدانشمندیون وجهادهم فى بلاد الأناضول، الاسكندرية، ١٩٩٤م .
- على عوده الغامدى ، معركة ميريا كيفالون ١١٧٦م ، مجلة كلية الشريعة ، مكة ، جامعة أم القرى، ١٤٠٤هـ.
- محمد الوسىمى ، جامع القسطنطينية الأول ودوره السياسى، مجلة كلية الآداب- جامعة القاهرة، مجلد ٦٠ عدد (٢) أبريل ٢٠٠٠م.
- محمد فؤاد كوبريللى ، قيام الدولة العثمانية ترجمة أحمد السعيد سليمان ، القاهرة، ١٩٩٣م.
- محمود سعيد عمران ، السياسة الشرقية للامبراطورية البيزنطية فى عهد الامبراطور مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠م . الاسكندرية ، ١٩٨٥م.
- محمود سعيد عمران ، الحملة الصليبية الخامسة على مصر ، القاهرة ، ١٩٨٥م.
- موفق سالم نورى ، العلاقات العباسية البيزنطية ١٢٢-٢٤٧ هـ / ٧٥٠-٨٦١م، بغداد ، ١٩٩٠م.
- نعيم زكى فهمى ، طرق التجارة الدولية ومحطاتها بين الشرق والغرب أواخر العصور الوسطى ، القاهرة ، ١٩٧٣م.

- نورمان كانتور ، التاريخ الوسيط ، قصة حضارة ، البداية والنهاية ج٢ ، ترجمة قاسم عبده قاسم ، القاهرة ، ١٩٨٦ م.
- هاسكتز ، نشأة الجامعات فى العصور الوسطى ، ترجمة جوزيف نسيم ، الاسكندرية ، ١٩٨٤ م.
- هايد . ف ، تاريخ التجارة فى الشرق الأدنى فى العصور الوسطى . ترجمة أحمد رضا ، ج ٢ ، ج ٤ ، القاهرة ، ١٩٩٤ م.
- هسى . ج.م ، العالم البيزنطى ، تقديم وترجمة وتعليق رأفت عبد الحميد ، القاهرة ، ١٩٩٧ م.
- وسام فرج ، العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والدولة الأموية حتى منتصف القرن الثامن الميلادى ، الاسكندرية ، ١٩٨١ م.
- وسام فرج ، الألقاب والمناصب الحكومية فى بيزنطة بين الاستمرارية والانقطاع . بحث مستخرج من الكتاب السنوى الثالث ، الجمعية المصرية للدراسات اليونانية والرومانية ، تحرير أحمد عتمان ، القاهرة ، ١٩٩٨ م.
- يلماز أوزتونا ، تاريخ الدولة العثمانية ، ج ١ ترجمة عدنان سلمان ، مراجعة محمود الأنصارى ، استانبول ، ١٩٩٨ م.

خامساً : الرسائل العلمية الجامعية

- أحمد كامل عبد المقصود ، الجماعات القبطالونية فى الامبراطورية البيزنطية ١٢٠٣-١٢٨٨ م. رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٦ م.
- السيد محمد متولى ، الدولة البيزنطية فى عالم القرن الخامس عشر للميلاد . رسالة ماجستير غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة المنصورة ، ١٩٩٨ م.
- صلاح محمد ضبيح ، العلاقات السياسية بين العثمانيين والامبراطورية والبيزنطية ١٢٦١-١٤٥٣ م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، كلية الآداب ، جامعة جنوب الوادى ، ١٩٩٨ م.
- ناهد عمر صالح ، السياسة الخارجية للدولة البيزنطية فى عهد الامبراطور أندرونيقوس الثانى باليولوغس ١٢٨٢-١٣٢٨ م. رسالة دكتوراه غير منشورة ، جامعة القاهرة ، ١٩٩٩ م.

سادساً : المعاجم والقواميس المتخصصة :

- ادى شير ، معجم الألفاظ الفارسية المعربة ، بيروت ، ١٩٩٠م.
- بطرس عبد الملك & جون الكساندر طومسون & ابراهيم مطر . قاموس الكتاب المقدس ، القاهرة ، ١٩٩٩م.
- درويش التخلي ، السفن الإسلامية على حروف المعجم . الاسكندرية ، ١٩٧٤م.
- A Comprehensive Maritime Dictionary . Alexandria , 1989 .
- Attwater , D, The Penguin Dictionary of Saints. New York , 1983 .
- Bayerle, G, Pashas , Begg, and Effendies : A Historical Dictionary of Titles and Terms in the Ottoman Empire. Istanbul , 1997 .
- De Roover, E , F Glossary of Medieval Terms of Business., Italian Series 1200-1600, Cambridge, Mass. 1934 .
- Dozy , R, Supplement Aux Dictionnaire Arabes, Tome , 2 . Beyrouth , 1981 .
- Kelly , J . N . D The Oxford Dictionary of Popes . Oxford, 1986 .
- Kemp, p. (ed.) The Oxford Companion to Ships & The Sea. Oxford , 1976.
- Midhat Sert Oglu , Osmanli Tarih Lügati. Istanbul , 1986 .
- Nicol , D ,A Biographical Dictionary of the Byzantine Empire . London , 1991 .
- Oxford Dictionary of Byzantium, 3 vols. Oxford University .
- Webster's New Collegiate Dictionary . New York .
- Webster New Geographical Dictionary . New York .

المحتويات

صفحة

الإهداء	٣
تقديم : أ.د. قاسم عبده قاسم	٥
مقدمة الترجمة الإنجليزية	٧
مقدمة الترجمة العربية	٩
نقولو باربارو :	
يوميات حصار القسطنطينية ١٤٥٣ م	٨٠
قائمة المصادر والمراجع	١٩٥

رقم الإيداع ٧٩٧٢ / ٢٠٠٠

الترقيم الدولي 3 - 03 - 6001 - 977 - I.S.B.N.

دار روتايريت للطباعة ت : ٧٩٥٢٣٦٢ - ٧٩٥٠٦٩٤

مهندس / يوسف عز

٥٣ شارع بويار - باب اللوق

Bibliotheca Alexandrina



0354156



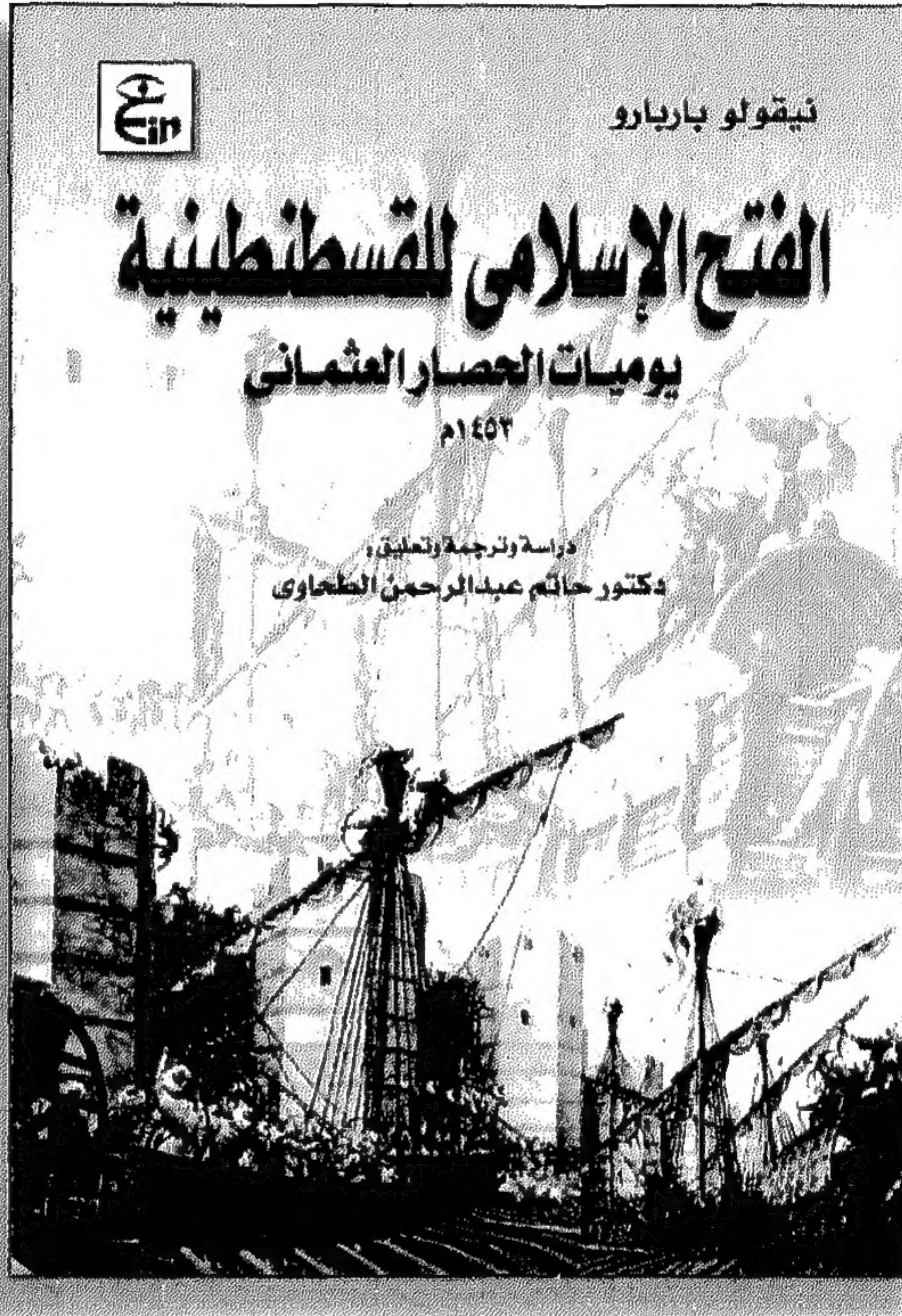
نيقولو باريارو

الفتح الإسلامي للقسطنطينية

يوميات الحصار العثماني

١٤٥٢م

دراسة وترجمة وتعليق
دكتور حاتم عبدالرحمن الطحاوي



للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية

FOR HUMAN AND SOCIAL STUDIES